إنصاف الخصم فى القرآن
وأثره الإعلامى

تأليف

د . عبد الحليم حفنى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

● الاخراج الفنى والغلاف

● الهام عارف عبد الباسط

بسم الله الرحمن الرحيم

(ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا

اعدلوا هو أقرب للتقوى)

قرآن كريم

على الذين يتحدثون عن حرية الرأى ...

وعن الرأى والرأى الآخر ...

وعن حرية المعارضة فى ابداء آرائها ...

وعن مبادىء العدل والمساواة ...

أن يلقوا نظرة متاملة على القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يستطيع القارىء أن يلم بأهم اتجاهات الكتاب وموضوعاته فى النقاط الآتية :

١ ـ فكرة هذا الكتاب تنبع من أن عدم انتشار الثقافة الدينية يجعل كثيرا من المثقفين حتى المؤمنين منهم يتصورون أن الاسلام ليس الا أوامر صارمة ، مصوغة فى تشريع يسير فى خط واحد ، هو خط المؤمنين به فحسب ، فهؤلاء المؤمنون لهم كل الحقوق ، وليس لخصومهم أو لمن سواهم حقوق ، مع أن التشريع الاسلامى يسير فى خطوط متوازية ، لا تتعارض ولا تتناقض أبدا ، وبعض هذه الخطوط يمثل حقوق المؤمنين ، وبعضها يمثل حقوق خصوم المؤمنين وأعدائهم ، وحقوق خصوم المؤمنين وأعدائهم كثيرة معروفة فى الاسلام ، منها حرية العقيدة ، ومنها حرية الرأى ، ومنها حق طلب الحماية واللجوء ، ومن أسس هذا فى القرآن :

(وان أحد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مامنه) (١) .

---

(١) ٦ سورة التوبة .

وموضوع الكتاب يدور حول أحد هذه الحقوق ، وهو حق الخصم فى أثناء الخصومة ٠

٢ – ينبغى أن يكون واضحا للقارىء أن الخصومة التى يدور حولها موضوع الكتاب تعنى نوعين :

خصومة الرأى ، وخصومة الموقف ، فأما خصومة الرأى فلا تتعدى الاختلاف فى الرأى ، ويمكن ان تكون بل كثيرا ما تكون بين أصدق الاصدقاء وأقرب المقربين ، فلا تفسد ما بينهما من صداقة أو مودة ، واما خصومة الموقف فهى التى تتعدى اختلاف الرأى الى العلاقة بين الطرفين ويمكن ان توصف حينئذ بالعداوة ، حيث ان جوهر الخلاف فيها منصب على سوء العلاقة بين الطرفين أو هو نابع منه ، بخلاف خصومة الرأى التى يفترض فيها أن تنتهى بظهور الحق فى جانب أحدهما فيبادر الآخر الى الرضوخ له ٠

وكلا النوعين هما من موضوع الكتاب ، من حيث ابراز حقوق الخصم عامة فى أثناء الخصومة ٠

٣ – التشريع الاسلامى يقوم على التزام العدل فى كل شىء ، ومع كل أحد ، باعطاء كل ذى حق حقه ، فالنفس لها على صاحبها حق ، وذو القربى له على قريبه حق ، والجار له على جاره حق ، والمجتمع له على كل فرد فيه حق ، وهكذا فى كل شىء ، وأداء الحق لصاحبه واجب ، وعدم أدائه جور عن العدل ، ومن هذه الحقوق حق الخصم

وموضوع الكتاب يدور حول هذا الجانب فقط ، وهو حقوق الخصم فى أثناء الخصومة ، ومن أسسه فى القرآن

(ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) (١)

والشنآن العداوة والبغضاء ٠

---

(١) ٨ سورة المائدة ٠

وحتى تبدو أهمية هذا الجانب ومدى عمقه فى الاسلام فان القرآن ذاته هو الذى يتولى ابرازه وضرب أمثلته .

٤ ــ اذا كانت العاطفة فى طبيعة الناس تلون المرئيات بلونها ، كعاطفة الحب التى تحاول تلوين صفات المحبوب بلونها فتبرز المزايا مضخمة ، وتحاول طمس المساوىء أو تصغيرها ، وكعاطفة البغض التى تحاول عكس ذلك ، من باب قول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدى المساويا

فان الاسلام لا يقر هذا المنزع الذى يجافى العدل فى الحكم على الأمور وعلى الناس ، ولا يبيح للعاطفة أن تكون حكما رغم اعترافه بسلطانها على النفوس كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم فى التعبير عن عدله بين ازواجه :

(اللهم هذا قسطى فيما املك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك)

بمعنى أن الانسان لا يؤاخذ على عاطفته لذاتها ، حبا أو بغضا مهما تبلغ فى الحالين ، لأنه لا سلطان له عليها ، وانما يؤاخذ على ما يصدر منه فى سلوكه وفى مدى عدله سواء فى الحب والبغض ، حيث يجب عليه ان يلتزم العدل فى الحالين.

والقرآن فضلا عن تأكيده التزام العدل فى مبادئه النظرية كالآية السابقة التى تحذر من أن يجور بنا الشنآن عن العدل فانه يضرب أمثلة تطبيقية عديدة لذلك ، منها أن القرآن يتحدث كثيرا عن السابقين ، شعوبا وجماعات وأفرادا ، ومعظم الذين تحدث عنهم كانوا من أعداء الله ورسله ، ومهما تكن لهجة الغضب على من يتحدث عنه من هؤلاء الأعداء فان ذلك لا يطمس ميزة لهم ، ولا يصغر من فضيلة فيهم ، فما من عدو فردا أو جماعة تحدث عنه القرآن وله ميزة أو موقف حسن الا أبرزه القرآن واضحا ، كما تحدث عن ملكة سبأ والملأ من قومها ، وبعد أن أكد ضلالهم

الديني في عبادتهم الشمس اذا هو يبرز مزايا هذه الملكة في سياستها والتزامها الشورى في ذلك الماضي السحيق ، ثم سداد رأيها وحسن استنتاجها من أحداث التاريخ ، وكذلك حسن موقف الملأ من قومها ، واستطاعتهم الجمع بين الحرص على مصلحة شعبهم والطاعة لولية أمرهم ، وكما تحدث عن الزعيم القرشي الذي تولى كبر محاربة القرآن ونشر الدعاية ضده فانه مع ذلك ينوه بذكاء هذا الزعيم رغم عداوته ، ويبرز مدى عمق عقليته ومقدرته على التدبير والتقدير في حربه ضد القرآن ، وكما يتحدث عن النصارى فرغم أنه يحكم عليهم بالكفر في العقيدة الا أنه يبرز في خلقهم مزايا لم يتحدث بها ، في مجموعها عن أمة سواهم .

وهكذا في كل من تحدث عنهم القرآن من أعدائه من ابراز أية ميزة لأحد منهم وهذا انصاف واضح .

٥ — ومن مبادىء العدل والانصاف التي يرسيها الاسلام ، والتي يحسب بعض الناس أنها وليدة حضارة أوربا حرية المناظرة ، التي تتيح للخصم مهما صغر شأنه أن يشعر في أثناء الخصومة بأنه مساو للخصم الآخر مهما عظم شأنه ، وانه يستطيع أن يزاول الخصومة معه على قدم المساواة في حرية ابداء الرأي والاعتراض وعرض الأدلة وغير ذلك من وجوه التخاصم ، وهذا واضح في تشريع القضاء في الفقه الاسلامي .

ومن روائع القرآن في ذلك أن الله سبحانه يتخذ من ذاته في هذا المجال مثلا يتكرر كثيرا في القرآن، حيث يتيح سبحانه لخصومه ، سواء أكانوا من خصوم العداوة كابليس ، أم من خصوم الرأي كالملائكة والأنبياء أن يختلفوا معه سبحانه ، فتكون لهم الحرية الكاملة حينئذ في أن يخالفوا الله سبحانه في الرأي ، بل أن يعترضوا أحيانا على رأيه ، ويتمسكون بخلافهم مع الله ، واعتراضهم رأيه حتى يتبين وجه الحق في

غير لبس فيسارع الخيرون الى اعتناقه ، ويعلن الشريرون مناصبتهم العداء وتشبثهم بالباطل ٠

ولكن موضع العبرة أنهم جميعا فى أثناء الخصومة يجدون حريتهم كاملة فى ان يزاولوا خصومتهم من وجهة نظرهم كما يشاءون ضد الله سبحانه ذاته ، دون ان ينالهم حينئذ غضب من الله ، لأن من حقهم بوصفهم خصما ان يعبروا عن موقفهم وعن وجهتهم كما يشاءون بصرف النظر عن منزلة خصمهم وشأنه ، وتمكينهم من هذا انصاف لهم ، فالقرآن يرسى هذا المبدأ ، ويضرب بذات الله سبحانه أمثلة عديدة فى هذا الموقف ليكون المبدأ أشد وضوحا واستقرارا ٠

ومن أبلغ الأمثلة المتعددة العبرة فى ذلك موقف خلق آدم بين الله سبحانه والملائكة ، حيث يصور القرآن كان الله أراد ان يستشير الملائكة فى خلق آدم ، فاذا الملائكة يعترضون مستنكرين عليه سبحانه ان يقدم على هذا العمل الذى يرونه افسادا فى الارض ، واذا الله لا يغضب منهم ، وانما يخبرهم بأنه يعلم أن فى خلقه خيرا ، واذا الملائكة ايضا يصرون على موقفهم من الاعتراض والاستنكار ، حتى يجرى الله لهم اختبارا عمليا يتبين منه فى صورة واقعية عملية صدق الله سبحانه وحكمته ، فبعد ذلك يخرون لآدم مكبرين معظمين ٠

ففضلا عما يتضمنه هذا المثل من مواضع العبرة فى المستشير والمستشار ووجوب الشورى ، فانه يتضمن فيما يتضمن عبرة بالغة فى انصاف الخصم واتاحة الحرية له كاملة فى مزاولة الخصومة ٠

٦ ـ ومن مبادىء الانصاف التى أرساها القرآن ، والتى لا يتوقع كثير من الناس أن القرآن هو الذى أرساها حرية الخصم فى ابداء رأيه فى أى شىء يتعلق بخصمه ، مهما تكن صفة هذا الخصم أو شأنه ، وليس من حق الخصم أن يغضب أو أن يمنعه من ابداء رأيه مهما يبلغ سوء هذا الرأى ، وانما عليه ان شاء اظهار الحق أن يرد عليه بالمنطق والحجة ٠

وفى هذا المجال يضرب القرآن أمثلة لا تكاد تحصى. لانصاف خصومه فى اتاحة الحرية لهم فى أن يقولوا فى أثناء خصومتهم ما يشاءون ، سواء ضد الله سبحانه ذاته ، أو ضد رسله ، أو ضد كتبه ومعجزاته ، وتستوعب هذه الأمثلة العديدة المتنوعة كل صنوف الخصوم، سواء اكانوا من خصوم الرأى أم من خصوم العداوة ، فيعرض القرآن فى عدة أمثلة ما قاله أعداء الله ضد الله من سباب وشتائم ، ومن تنقيص وتهوين وغير ذلك ، وكذلك ما قالوه ضد رسل الله من كل ألوان السب والتكذيب والاستهزاء والتحقير ، وكذلك ما قالوه ضد كتب الله ، وضد المؤمنين بالله ، وضد كل مايتعلق بالدين ، حيث يعرض القرآن كل ما قالوه دون أن يبدى فى سياق العرض أو التمهيد له ما يوحى بأى سخط أو استنكار، وكأنه عارض محايد ، حتى اذا فرغ من هذا العرض المحايد الأمين ناقشه بالحجة والمنطق ، حتى اذا ظهر الحق فى غير لبس كان من الواضح أن على المتشبث بالباطل أن يتحمل تبعة تشبثه وعقابه على ذلك .

٧ ــ وحيث كان الهدف من القرآن ، ومن كل كتب الله ورسل الله هو الدعوة الى الله ، فان كل ما سبق رغم انه مبادىء انسانية خلقية واجتماعية الا أن اهم ما يتضمنه الاسهام هو فى الدعوة الى الله بأسلوب الحكمة ، حتى يتعلم الدعاة الى الله الا يواجهوا خصومهم باللعن أو العداء حين يظهرون كفرهم، وحين تنزلق أو تنساب من السنتهم السهام الموجهة الى الدين، فان اللعن أو العداء لن يجذبهم الى الدين ، بل ينفرهم ويزيدهم عنه بعدا ، وانما عليهم أن يتأسوا بهذا المنهج من القرآن فى أن يتقبلوا كل ما يصدر من خصومهم بصدور رحبة ، بل لا مانع من أن يستزيدوا فى اخراج كل مافى نفوس خصمهم مهما يبلغ من السوء ، ثم عليهم بعد ذلك أن يردوا على هذا بالحجة والمنطق ، بل ان القرآن يضرب من الأمثلة فى حكمة أسلوب الدعوة ما هو أبلغ ، كأسلوب ابراهيم عليه السلام الذى أظهر لقومه أنه مشرك مثلهم ، وأنه أشد منهم

اقتناعا بعبادة الكواكب ، وظل يعبــد معهم الكواكب أياما ، ولكنه كان يتخذ من ذلك وسيلة لدعوتهم الى الله عن طـــريق العقل والمنطق ، فكان أسلوبه نوعا من أسلوب (الحكمة) فى الدعوة ٠

وانصاف الخصم فى القرآن ليس الا أسلوبا من أساليب الدعوة الحكيمة ، وجانبا من جوانب منهجالحكمة التى يبرزها قوله تعالى :

(ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)

فان شعور الخصم بأن خصمه ينصفه هذا مما يبعث فى نفسه شعورا بالثقة فى الخصم ، والاطمئنان اليه ، وهــذا بالتالى يدعوه الى أن يفتح عقله وقلبــه ولو لحظات ليتــأمل ما يدعوه اليه خصمه فى غــير انفعال أو جمــوح ، وهــذه اللحظات قد تكون كافية لوصــول شــعاع الايمان الى قلبه ، ولاستخدام عقله ، فان أيسر نظرة عقلية محــايدة كافيــة لاقناع كل عقل بالفارق الشاسع بين الايمان والكفر وحيث كان القرآن وسيظل هو اعلام الاسلام ، فانه سيظل (ســيد الدعاة) بما يتضمنه من الحكمة المتعددة الجوانب والأساليب فى الدعوة ٠

وما أسلوب انصاف الخصم فى القــرآن الا جانبــا من جوانب هذه الحكمة ٠

وقبل كل شيء وبعده فانى أسأل الله جل علمه التوفيق ٠

د ٠ عبد الحليم حفني

التزام العدل

الخصومة من المواقف التى من شأنها أن تجعل المرء فى حالة انفعالية غير عادية ، فمهما تكن درجة الخصومة هينة ، ومهما يكن انفعال المرء بها يسيرا الا أنها تتجاوز الوضع العادى لنفسية صاحبها ، ويترتب على ذلك أن يكون حكمه على الأمور حينئذ متأثرا بهذا الانفعال ، وحيث ان الاسلام ينظر الى المؤمن على أنه قاض عادل فى نظرته الى كل الأمور فلا تتأثر أحكامه أو مسالكه بأى انفعال ، وكما أنه يجعل هذا تشريعا فى خلق القاضى الذى يقضى بين الخصوم كما هو معروف فى تشريع القضاء فى الفقه الاسلامى من أنه لا ينبغى للقاضى أن يقضى وهو يعانى أى انفعال من غضب أو سخط أو شىء من شأنه أن يمس اتزان نفسيته ، بل لا ينبغى أن يزاول القضاء وهو يعانى من شعور بحاجة أية غريزة من غرائزه كالجوع أو العطش أو أية حاجة عضوية ، وذلك ضمانا لاستقرار نفسيته على الاعتدال والاتزان الذى يساعده على العدل ، وينأى به عن الميل والجور فى الحكم ، فكذلك يوجه الاسلام كل مؤمن الى التزام هذا الاعتدال فى

كل أمره ، حتى فى انفعاله ، حتى يكون منصفا لنفسه ولمن حوله ، سواء فى معيشته ، وفى نفسيته ، فان جوره عن الاعتدال فى معيشته كالاسراف والتبذير فيه اضرار بماله ثم بنفسه ، وهما فى الحقيقة ليس ملكه ، وانما هو مستخلف وأمين عليهما ، وفيه اضرار بمن يرتبطون به فى المعيشة والرزق كأسرته ، ولذلك يقول تعالى :

(وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين) (١) ٠

وأيضا من عدم العدل المعيشى التقتير ، وفيه اضرار بنفسه وبمن يرتبطون به ، ولذلك يقول تعالى :

(ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) (٢) ٠

وكذلك الوضع فى نفسية المرء ، فان من راحته وراحة من حوله أن تكون نفسيته فى حالة اعتدال واتزان فى كل مشاعرها وانفعالاتها ، فاذا جارت عن هذا الاعتدال كان فى ذلك اضرار بنفسه ، وكذلك بمن حوله ، لأنهم يتأثرون بحالته ولو من باب المثل الشائع (من جاور السعيد يسعد) ومفهومه المقابل أن من جاور الشقى يشقى ٠

وعلى سبيل المثال فان من حالة الاعتدال النفسى أن يكون المرء راضيا عن نفسه رضا عقليا وليس وجدانيا ، بمعنى أن تكون مقوماته الذاتية التى يملكها وكذلك سلوكه من كل نواحيه يستحق الرضا بالمقياس العقلى المجرد عن الهوى والانحياز ، فحينما يكون فى هذه الدرجة من مجرد الرضا فهذه سعادته وسعادة من حوله ، لأن هذا الاعتدال سيكون بمثابة حكم قضائى عادل يصدره المرء ازاء نفسه ، ولكنه

---

(١) ٣١ سورة الأعراف ٠

(٢) ٢٩ سورة الاسراء ٠

اذا تجاوز هذا العدل بالجور الى أعلى أو الى أسفل فانه سيضر بنفسه وبمن حوله :

(أ) فأما الجور الى أعلى فهو كتضخيم الشعور بالذات بأن يرى المرء نفسه فى صورة أكبر من حقيقتها فانه حينئذ يتدرج فى مراحل الغرور ودرجاته بمقدار ضخامة هـذه الصورة عن الواقع ، ومن الواضح ان هذه الصورة الضخمة صورة مزيفة عن الـواقع ، فيترتب عـلى ذلك أن صـاحبها سيكون مسلكه ازاء نفسه وازاء غيره مبنيا على هذه الصورة المزيفة ، والناس يرونه على حقيقته ، وليس فى الصـورة المزيفة وسينفرون بالضرورة من هذا التناقض ، ومن عـدم مطابقة مسلكه لما تقتضيه حقيقته ، ولن يقتنع هو بنفـور الناس منه ، لأنه لا يفهم لماذا ينفرون منه ، وقد يحمل موقفهم منه ونظرتهم اليه على انه نوع من الحقد أو الحسد أو الجهل أو غير ذلك ، ولكنه في كل الأحوال سيصبح فى موقف تعارض وعدم توافق مع من حوله ، وهذا ولا شك يسبب له نوعا من الضيق والقلق ، كما يسبب هذه المشاعر أيضا لمن حـوله ، وبهذا يكون قد أوجد لنفسه ولمن حوله نوعا من الشقاء.

(ب) وأما الجور الى أسفل فهو أن يرى المرء نفسـه فى صورة أصغر وأدنى من حقيقته ، بأن تسـتقر نفسيته عـلى احتقار نفسه ومسلكه دون أن يستخدم فى ذلك المقياس العقلى والمنطقى ، بمعنى أن تكون نظرته الى نفسه فيها ظلم لهـا وتجاهل لمزاياها ، فعندئذ ترتد هـذه النظرة الى سـلوكه ووضعه فى المجتمع ، فيضع نفسـه فى مواضـع الهـوان ، ويسلك سـلوكا لا يليق بمثله ، ويقبـل مـواقف من الذل لا تنبغى له وهكذا ، ولا شك أن فى هذا اضرارا معنويا به ، وسيلحق المحيطين به شىء من هذا الاضرار المعنوى ، فبحكم طبيعة الروابط العائلية والاجتماعية لابد أن يتأثر القريب والصديق أو يتأذى بما يصيب قريبه أو صديقه واذن فالعدل النفسى هو الذى يحقق للمرء ولمن حولهالتوافق والطمأنينة ،

والاخلال به هو الذى يحدث الأثر العكسى ، بمقدار البعد عن خط الاعتدال ٠

ولهذا يوجه القرآن الكريم المؤمنين الى التزام العدل النفسى فى كل مواقف الانفعال والمشاعر ، كقوله تعالى :

(لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) (٣) ٠

بمعنى لا تبالغوا فى الأسف والحزن على ما فاتكم مما كنتم تتمنونه فلم تحظوا به ، وأيضا لا تبالغوا فى الفرح بما انعم الله به عليكم ، بل التزموا العدل النفسى ، وذلك ان مجاوزة العدل النفسى سواء الى أعلى أو الى أسفل ستجر الى الصورة المشار اليها آنفا ، ومن هذا القبيل قول النبى صلى الله عليه وسلم (رحم الله امرءا عرف قدر نفسه) ولذلك كان شعار الفلاسفة (اعرف نفسك) ٠

واذا كان بعض الناس يرى أن مجال الخصومة يبيح له أن يسلك من الوسائل غير المشروعة ما ينتصر به على خصمه، أو ما يحمى به نفسه من انتصار خصمه عليه ، ثم مما يلحقه به هذا من ضرر ، فان الاسلام لا يبيح للمؤمن أن يتزحزح عن مبادئه الثابتة تحت أى ظرف من الظروف ، ومن مبادىء الاسلام الراسخة التزام العدل فى كل الظروف ، وازاء كل طرف ، بصرف النظر عن مشاعرنا نحو هذا الطرف ، ولو كان هذا الطرف هو أشخاصنا نحن ، أو أحب الناس الينا ، ومن ذلك قوله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ٠٠) (٤) ٠

---

(٣) ٢٣ سورة الحديد ٠

(٤) ١٣٥ سورة النساء ٠

فحينما يكون الشخص هو بذاته طرفا فى الخصومة ، أو أحد والديه أو أقاربه ، فهنا يكون الموقف الصعب ، وهو أن النفس بطبيعتها ستجد هوى وانحيازا الى مصلحتها أو مصلحة من تنتمى اليهم بالقرابة أو العاطفة • وفى مثل هذا الموقف يبدو مدى قوة المؤمن وصلابة ايمانه ، ولكن الاسلام لا يضع أمامه حينئذ الا خيارا واحدا ، هو طريق العدل ونبذ الهوى **(فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا)** فلا يبيح المحاباة والمجاملة فى أى موقف يقتضى العدل ، ولو كانت هذه المحاباة للنفس ، أو لأقرب الأقربين ، أو لأحب الأحبة •

العدل ازاء الخصوم

ومن المـواقف الصعبة التى تحتـاج الى مغالبة للنفس ، الموقف الذى يجد المرء فيـه عدوه تحت رحمتـه ، يملك أن ينتقم منه فيشفى غلته ، سواء أكان هذا العدو فى خصومة نحن نملك الحكم فيهـا ، أم كان فى موقف ضعف أمامنـا ، ونملك أن ننزل به أو نأمر فيه بما نشاء ، أو فى أية صورة يتاح لنا فيها أن ننال منه ، ففى مثل هذا الموقف تجد النفس العادية متعة وفرصة فى أن تشفى غليلها من عـدو ، ولـكن الدين لا يريد لنفس المؤمن أن تكون نفسا عادية تحركهـا الأهواء ، وتصرفها النزعات ، وانما يريد لها التزام القيم المحددة ، التى تبدأ من التأثر بأى تقلب أو التواء ، وهناك أمر ذو أهمية يتضح من خـلال مبادىء القرآن ، وهـو أن الاسلام يريد أن يملأ نفس المؤمن بهذه المبادىء بصفة دائمة وثابتة ، بحيث لا ينتظر حدوث المـواقف التى تسـتدعيها ، وانما يكون مهيئا نفسيا ، وعارفا مقدما بأن هـذه المبادىء هى المسلك الوحيد المتاح له حينما يعرض له موقف يستدعيها.

وهذه المبادىء تشمل كل حالات الخصومة ودرجاتها ومراحلها ، ومن أبرزها :

١ - هذه القاعدة العامة التى توضح وتؤكد أنه مهما تبلغ العداوة والبغضاء نحو طرف فلا يجوز أن تزحزحنا مشاعر البغضاء عن العدل ، بل يجب أن نلتزم العدل مع العدو مهما تبلغ عداوتنا له ، ومن هذا قوله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) (١) .

وتذييل الآية الكريمة بتعبير (ان الله خبير بما تعملون) زيادة تحذير وتنبيه الى مراقبة الله ، بمعنى أنه اذا تصور أحد أنه يستطيع أن ينال من عدوه نيلا خفيا بغير حق ، أو أن يمكر به مكرا سيئا لا يجد خصمه شاهدا عليه فان الله مطلع عليه وكفى به شهيدا .

٢ - يحدد القرآن أن العدل الكامل لا يلتمس الا فى شريعة الله ، كتابه وسنة نبيه لأن الله سبحانه من البدهى أنه محايد ، فالكل عباده . والبشر أمامه فى عبوديتهم سواء ، فلا يتهم بالانحياز والمحاباة لطرف ، وهذا أقصى ما تنشده خصومة نزيهة ، وكذلك الرسول ، وأى رسول من الله ، هو فى الحقيقة ليس المشرع ، وانما هو مبلغ عن الله ، ومفصل لمجمل أحكام الله ، ومفسر لها ، فهو مستمد حياده من الله فلا يتهم بانحياز ، وفى القرآن الكريم :

(فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تاويلا) (٢) .

---

(١) ٨ سورة المائدة .

(٢) ٥٩ سورة النساء .

فالرجوع الى شريعة الله خير لأنها العدل المطلق ، وأحسن تأويلا لانها لا تخضع لتأويلات البشر فى تناقض آرائهم ، واختلاف اتجاهاتهم ·

٣ ــ الاسلام يرى الأصل فى الحياة بين الناس السلام ، فكل مسلك يدل على السلام يجب على المسلمين أن يتقبلوه على ظاهرة ، بأن يحملوه على حسن الظن ، ولا يجوز لهم ان ينقبوا عما وراء ذلك مما لا دليل عليه ولا خطورة منه ، وكل من يتعامل مع المسلمين بسلام فمن حقه عليهم أن يبادلوه السلام ، لأن القاعدة العامة فى الاسلام أن استخدام القوة والقتال استثناء اذا أوجبته الظروف وليس أصلا ، والقرآن حافل بما يؤكد هذه القاعدة ، ومن ذلك قوله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا ···) (٣) ·

بمعنى أن من أظهر المسالمة فلا يجوز أن تخضعنا مصالحنا أو أطماعنا أو أية أسباب لرفض مسالمته ·

ومن المعانى البالغة الدقة والأهمية فى الاسلام أن الاسلام لا يجعل الكفر لذاته ــ على تناقضه مع الاسلام ــ مصدرا للصراع ، أو مبيحا لاستخدام القوة فى الدعوة الى الاسلام ، فان الاسلام لا يبيح قتال الكفر لذاته ، وانما يبيح وأحيانا يوجب قتال القوة الممثلة للكفر فى حالتين ، احداهما أن يصدر عدوان من قوة الكفر ، والأخرى أن تكون قوة الكفر مصدر تهديد يخشاه المسلمون ، أو يحول بينهم وبين نشر دين الله بالحسنى ، أما الكافر المسالم ، فلا يجوز اطلاقا أن نتعرض له بسوء ، بل لا يجوز أن نكرهه على الدين بأية

---

(٣) ٩٤ النساء وسبب نزولها أن النبى أرسل سرية لقتال أهل فدك ولم يكن اسلم منهم الا رجل فقتله اسامة بن زيد بعد أن أعلن الرجل اسلامه ولكن خصوص السبب لا يؤثر فى عموم الحكم وقد غضب النبى من ذلك غضبا شديدا ·

صورة من صور الاكراه ، وهذا صريح فى القرآن كقـوله تعالى :

(لا اكراه فى الدين) (٤) ٠

وكذلك قوله تعالى :

(ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعـا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله) (٥) ٠

بل الأوضح من ذلك أنه حتى فى حالة الحرب متى جنح أعداء الاسلام الى السلم باخلاص ، دون أن يكون هذا الجنوح خطة عسكرية ، فان على المسلمين أن يكفوا عن القتال ، وان يحققوا السلم ، مهما كان لديهم من قوة ، ومهما أيقنوا من نصرهم على العدو أو اجهازهم عليه ، ومن هذا قوله تعالى :

(وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم ، وان يريدوا أن يخـدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) (٦)

والمعنى التالى للجنوح الى السلم يزيد فى المعنى ما هـو أبعد وذلك فى الحديث عن ارادة العدو الخديعة ، فمضمون المعنى انهم ماداموا قد لجأوا الى السلم باخلاص غير مشـوب بالتخطيط ومواصـلة القتـال فان عـلى المسـلمين مبادلتهم السلام ، ولا ينبغى أن يتخوفوا من الخـديعة التى لا دليـل عليها فان الله سيتكفل حينئذ بنصرهم ٠

٤ ــ ومن المبادىء الراسـخة فى الاسـلام وجوب دفاع المؤمن عن دينه ، وعن حقوق دينه بكل ما يملك ، فاذا حـدث عدوان على الدين ممثلا فى العقيدة وما يكفـل لها حـرية الحركة والمحافظة على الكيان ، أو عدوان عـلى حقوق الدين

---

(٤) ٢٥٦ سورة البقرة ٠

(٥) ٩٩ سورة يونس وما بعدها ٠

(٦) ٦١ وما بعدها سورة الأنفال ٠

ممثلة فى المحافظة على كيان أبناء هذا الدين وأرضـه وجب على كل من يعتنق هـذا الدين أن يهب للدفاع بكل ما يملك حتى يرد هذا العدوان، وسيكون حينئذ مدافعا وليس مهاجما، بمعنى أن اسـتمرار الدفاع مرتبط باسـتمرار الهجـوم ، وحينما يتوقف الهجوم يتوقف الدفاع ، ولـكن مسـتجدات الحياة تجعل من صور هذا الدفاع ما يلى :

(أ) اذا كان الهجوم على الاسلام فكريا وثقافيـا وجب على كل مسلم ذى فكر أن يدافع بفكره وثقافته كالموجة العاتية التى يشنها أعداء الاسلام اليوم سـواء من أعداء الاسـلام التقليديين من غير المسلمين ، أو من أخطر جبهة على الاسلام اليوم ، وهى جبهة حثـالة الاسـتعمار وذيله الذى تركه فى ربوع الأمة الاسلامية كلها من بين المسلمين أنفسهم ممثـلا فى دعاة العلمانية بكل صورها النفاقية ، التى تتخفى تحت ثوب الاصـلاح فى ظاهرها ، ولكنهـا تبطن تحت أنيـابها الالحاد ، والضغينة المرة للاسلام بالذات ، ومن أبرز حججهم أن الذين سبقونا بالحضارة الحديثة فى الغرب انما تقدموا حين حطموا الكيان الدينى وتخلصوا من نفوذه ، وأننـا لن نتقدم الا اذا فعلنـا مثلهم ، ولـكنهم ينسـون أو يتناسون أمرين جوهريين هما :

١ ـ لا وجه للموازنة بين الاســلام وغيره فيما يتعلق بالحضارة ، لأن الأديان الأخرى تتركز دعوتها أساسا عـلى المجال الروحى داعية الى الزهد فى الدنيا أو عدم الاهتمام بها ، أما الاسلام فان من صلبه الاهتمام بأمور الدنيـا وكل ما يحقق تقدما ومجدا دنيويا للمسلمين بالاضافة الى دعوته الروحية •

٢ ـ اذا كان التاريخ يثبت أن الغرب انما تقدم حينما تخلص من سلطان الدين ونفوذه ، فان التاريخ نفسه يثبت ويؤكد أن الأمر بالقيـاس الى المسـلمين كان بالعـكس ، فالمسـلمون لم يتقدموا ولم ترتفع راية مجـدهم الدنيـوى

الا حينما تمسكوا بسلطان دينهم ونفوذه ، ولم يهونوا ويذلوا الا حينما تراخت قبضتهم عن التمسك بسلطان الدين ونفوذه ، وكل مواقفهم فى التاريخ ثقافيا وسياسيا وعسكريا تؤكد ذلك ، وحتى وهم فى حضيض التفكك والهوان حينما تنتابهم نوبة يرفعون فيها راية الاسلام بصدق يجدون النصر والعزة ، والسبب الرئيسى يكمن فى أن الاسلام يقوم فى دعائمه الأصلية على الدعوة الى الدنيا كما يقوم على الدعوه الى مقتضيات الآخرة ، ومن هنا لا ينبغى أن يوازن بغيره من الاديان ، ولا ينبغى أن تلقى عليه تبعة تقصير أبنائه وسباتهم العميق ٠

وهذا العدوان الفكرى والثقافى على الاسلام ليس حديثا ، وانما هو قديم صاحب الاسلام منذ نشأته ، ولكن تفنن أعداء الاسلام فى تنظيم هذا العدوان وتشعيبه وتسخير كل الامكانات اللازمة له جعل منه حربا حقيقية موجهة الى الاسلام وأبنائه ، وهذه الحرب ولا شك أخطر على الاسلام من أية حرب عسكرية ، فان الحرب العسكرية مؤقتة ، وهى تثير حماس المسلمين للاسلام ، ولكن هذه الحرب دائمة من جهة ، ومن جهة أخرى فان نتيجتها اضعاف تمسك المسلمين بالاسلام ، وليس حماسهم له ، ومن هنا يبرز واجب الدفاع على كل مسلم ذى فكر وثقافة ، أن يرد على سلاح العدو بمثله ، ولا ينبغى أن يترك عبء الدفاع على علماء الدين ، فان واجب الدفاع فى الاسلام ليس وقفا على أحد دون أحد ، بل هو ملزم لكل قادر على أية صورة من صور الدفاع ، وقد يكون العالم فى مجال علمى أو تجريبى أقدر وأجدى فى الدفاع من عالم الدين ٠

وهذه الحرب الفكرية ضد الاسلام كما سبق ليست حديثة ، بل هى مصاحبة للاسلام منذ مولده ، والقرآن نفسه يسجل هذه الحرب فى عتوها وضراوتها ضد الاسلام ، وقادة هذه الحرب فى التاريخ الاسلامى كله هم اليهود ومن

يتخرجون على أيديهم او تتوافق أساليبهم وأهدافهم معهم من المنافقين وغيرهم ، ولازالوا وسيظلون هم حملة راية الحرب ضد الاسلام ، وها هى ذى أساليبهم اليوم فى شتى المجـالات كمحاولة تحريف القران ، وتجنيد الكتاب والمؤلفين فى شتى أنحاء العالم للطعن فى الاسلام وتشويه صورته ، وتجنيـد أعداد كبيرة من بين المسلمين المنافقين فى شتى أقطار الاسلام ليصوغوا كل ما أوتوه من فكر وثقافة وأسلوب فى محـاولة لتهوين الاسلام وتشويهه وصد أبنائه عنه ، ومما حفل به القرآن فى هذا المجال قوله تعالى :

(من الذين هادوا يحـرفون الـكلم عن مواضـعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين ٠٠) (٧) ٠

فهم يستغلون ان القرآن يؤيد التوراة التى أنزلها الله ويستشهد بها ، فيحرفون التوراة تحريفا مضـلا ، ليلزموا المسلمين الاعتراف بهذا الضلال واخضاع القرآن له ، وحيث لا يستطيع المسلمون أن يعترفوا بهـذا الضـلال ، ولا ان يغيروا فى القرآن فان اليهود يطعنون فى القرآن بأنه مخالف للتوراة التى يعترف القرآن نفسه بها ، ومن هـذا القبيـل قوله تعالى :

(وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) (٨) ٠

والقرآن يبرز خطورة هذه الحرب الفكرية المعنوية ضد الاسلام فى كثير من آياته ، ويبلغ من ابرازه لخطورتها أنها تصل الى وجوب القتل اذا صدرت من فرد ، ووجوب القتال اذا صدرت من جماعة أو شعب ، مشيرا الى أن خطورة هـذه

---

(٧) ٤٦ سورة النساء ٠

(٨) ٧٨ سورة آل عمران ٠

الحرب تتركز فى مصدرها بالذات ، فالمصدر هو الرأس المفكرة المخططة التي تفكر وتقدر ، ثم تجد الجنود لنشر هذه الأفكار ، فهذه الرءوس هى التى يجب اجتثاثها ولو اقتضى الأمر محاربة من وراءها ، ومن هذا قوله تعالى :

(وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر) (٩) ٠

فالطعن فى الدين هو الحرب الفكرية مهما كانت ألوانها وأساليبها ، وائمة الكفر هم قادة هذه الحرب ٠

(ب) أما اذا كان هجوم العدو عسكريا على أرض الاسلام أو حرماته فان الأمر فى الاسلام واضح ، وهو وجوب الدفاع بكل قوة ، وكل عنف ، حتى يزول العدوان وخطره ، والآيات التالية تتضمن أهم مبادىء الاسلام فى موقف المسلمين من قتال أعدائهم ، فى قوله تعالى :

(وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فان انتهوا فان الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين) (١٠) ٠

وأوضح هذه المبادىء :

(أ) أن القتال من جانب المسلمين انما هو دفاع ورد على بدء العدو القتال ، وليس هجوما من جانب المسلمين أو بدءا للقتال ، وحالة الدفاع تقتضى من المسلمين التقيد بوقف

---

(٩) ١٢ سورة التوبة ٠

(١٠) ١٩٠ وما بعدها سورة البقرة ٠

العـدوان والخطـر ، دون اتخـاذ دور الهجوم بعـد ذلك (ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) ولكن اذا أصر العدو على مواصلة الهجوم فيجب استعمال كل وسائل الشدة والعنف فى الحرب ، حتى يزول خطر الهجوم ٠

(ب) كل مواقف المسلمين يجب أن تكون مرتبطة بالدين، غيرة عليه ودفاعا عنه ، وتقيـدا بمبـادئه ، ولا ينبغى أن تقودهم أهواء أو مطامع أو احقاد شخصية أو عنصرية أو غير ذلك ، فالهدف هو رفع راية الاسلام، وحماية عزته (وقاتلوا فى سـبيل الله) ويجب أن يستمر القتـال حتى تكـون راية الاسلام فى مأمن من العدوان أو الهوان :

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله)

٥ ـ فى كل الأحوال يبرز الاسلام مبدءا ثابتا يدعو اليه من يريدون أن يسمو بأنفسهم وبايمانهم فوق مستوى عامة الناس وضعاف النفوس وضعاف الايمان منهم ، وهذا المبدأ هـو العفو عن الخصم واسـداء الاحسـان اليـه مهما تكن اساءته ، بل مهما تكن جريمته ، وذلك من خـلال صـورتين واضحتين فى كل تشريع الاسلام ، وهما :

(أ) المبدأ التشريعى العام هو أن من حق المعتدى عليه أن يقتص من المعتدى بمثل ما أصابه من عدوان ، وقد تكرر هذا فى القرآن بأساليب عديدة ، ومنها قوله تعالى :

(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (١١) ٠

ولا يعترف الاسـلام فى هـذا بأية فوارق اطلاقا بين المعتدى والمعتدى عليه ، فالمعتدى عليه مهما يبلغ من هـوان منزلته فمن حقه أن يقتص ممن اعتدى عليه مهما تبلغ منزلة

---

(١١) ١٩٤ سورة البقرة ٠

المعتدى من علو ، وقد ضرب النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه المثل فى حجة الوداع ، حيث كان مما قاله يخاطب جموع المسلمين : من كنت قد شتمت له عرضا فهذا عرضى فليشتمه، ومن كنت قد ضربت له ظهرا فهذا ظهرى فليضربه .

وفى هذا النطاق هناك فارق نفسى بالغ الأهمية بين التشريع الاسلامى، وسائر التشريعات الوضعية البشرية ، وهو ان التشريعات الوضعية تجعل العدوان على النفس كالقتل او على البدن كاصابات البدن أو العاهات حقا للمجتمع فى امنه، فيما يوصف بالحق الجنائى ، للتفرقة بينه وبين الحق المدنى الذى يدور فى مجال المعاملات ، فالحق المدنى حق لشخص المدعى اذا ثبت ، أما الحق الجنائى فهو حق المجتمع ، ويترتب على ذلك أن المعتدى يملك أن يعفو عن خصمه ويتنازل عن حقه فى الحق المدنى لأنه حقه ، أما الحق الجنائى فلا يملك العفو فيه ، وينتج عن هذا أن المعتدى عليه يكاد يشعر نفسيا بأن هذا ليس حقه هو وانما هو حق المجتمع أو حق السلطة ، وأن عقاب المعتدى لا يشفى شعوره بأنه معتدى عليه ، مما ترتب عليه على سبيل المثال فشل كل القوانين الوضعية فى علاج عادة الثأر ، حيث يشعر المعتدى عليهم بأن القانون لا يعترف بأن لهم حقا ، ولا يعاملهم على أنهم أصحاب حق ، ويبدو هذا فيما اذا أرادوا العفو عن القاتل ، فلا قيمة لعفوهم فى نظر القانون الوضعى ، فيكون هذا الشعور زيادة فى دفعهم الى التماس حقهم بأنفسهم ، وأخذ ثأرهم بأيديهم .

بينما التشريع الاسلامى يسد هذه الثغرة النفسية الخطيرة ، فيجعل القصاص بالذات دون غيره من جرائم الحدود حقا مدنيا يملكه المعتدى عليه ، فهو الذى يملك التصرف فى كل المراحل ويملك العفو ، وهذا الشعور لا شك أنه من عوامل الراحة لنفس المعتدى عليه وتهيئتها للعفو أو التفاوض فى الحلول (١٢) .

---

(١٢) انظر تفاصيل كثيرة فى فصل العقوبات فى كتاب جوهر الاسلام للمؤلف .

وكما أن التشريع الاسلامى يحفظ حق المعتدى عليه ، فكذلك يحفظ حق المعتدى نفسه ، وهو ألا تتجاوز العقوبه مقدار الجنـاية مهما كانت الظـروف ، ومهما كانت منزلة المعتدى عليه أو صفته ، فلو اعتدى شخص من عامة النـاس على شخص أعلى مكانة ، أو على شخص ذى منصب مهما يكن ، فان هذا لا يغير فى الحكم شيئا اطلاقا ، وهو أن العقوبة على قدر الجناية ، ومن هذا قوله تعالى :

(٠٠ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليـه سـلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا) (١٣) ٠

ومن طرائف هـذا المجـال ما روى من أن عليا كرم الله وجهه جيء اليه فى خلافته بسارق ثبتت عليه السرقة ، فسأله لماذا سرقت ؟ قال السارق : أراد الله ، فأمر به فأقيم عليـه حد السرقة ، ثم أمر بجلده أربعين جلدة ، فقال السـارق : فما هذه العلاوة أى الزيادة يا أبا الحسن ؟ قال : لكذبك على الله ، فالجلد لم يكن زيادة فى العقوبة ، وانما كان عقـوبة أخرى على ذنب آخر هو الكذب على الله ٠

(ب) هناك مرتبة أسمى من القصاص والعقاب يدعـو اليها الاسلام دائما ، وهى مرتبة العفو والتسامح ، فما من موضع يقرر فيه القرآن حق المعتدى عليـه في القصـاص والعقاب الا ويقرن ذلك بدعوة ملحة الى العفو ، مصـحوبة باغراء من الله ، وقد تكرر هذا فى القرآن كثيرا كقوله تعالى:

(وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) (١٤) ٠

وذلك لأن الدين يريد أن يرتفع بالمؤمن عن الوضـع العادى ، حتى تكون للايمان منزلة وطابع معين ، ومن ذلك قوله تعالى فيما يعرض من صـفات المـؤمنين وترفعهـم عن

---

(١٣) ٣٣ سورة الاسراء ٠

(١٤) ٤٠ سورة الشورى ٠

مجاراة السفهاء فى سفههم حتى لا يكونوا فى مستواهم :

(واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) (١٥) .

فالمراد بالجاهلين السفهاء ، ويقول السلام ان رد المؤمن على السفيه ينبغى أن يكون ردا داعيا الى المسالمة لا الى مبادلة الخصومة ، وهذه مرتبة الخاصة من الناس بل ان الاسلام يدعو الى مرتبة أسمى من العفو ، وهى أن يقدم المعتدى عليه الاحسان والمعروف الى المعتدى زيادة على العفو عنه ، وهى مرتبة عليا تتجاوز مرتبة الخاصة الى مرتبة الصفوة من الناس ، فانها تحتاج الى قوة ارادة فى مغالبة النفس وكسر شهوتها الى الانتقام وذلك بالعفو ، ثم الى قوة ارادة أخرى فى مغالبة مشاعر السخط والبغضاء نحو المعتدى ، فيقدم اليه الاحسان والمعروف وكأنه لم يصدر منه عدوان عليه ، والى هذا الخلق يشير القرآن فى قوله تعالى :

(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) (١٦) .

بمعنى أن المعتدى ارتكب سيئة بعدوانه عليك فكن أنت فى جانب الحسنة ، لأنك حينما تعاقبه تكونان مستويين ولو فى ظاهر الوضع ، هو اعتدى وأنت رددت له الاعتداء أو جزاء الاعتداء ، فاذا أردت أن ترفع نفسك عن مستواه الى مستوى الحسنة فعليك بالعفو ، بل اذا أردت مرتبة عليا فعليك بالاحسان ، وهو أن تقدم اليه الحسنة والمعروف زيادة عن العفو ، ويبين القرآن ميزة هذا الخلق ، وهى أنه يحول الأعداء الى أصدقاء ، أو ما يشبه أعز الأصدقاء ، ولكن

(١٥) ٦٣ الفرقان .

(١٦) ٣٤ سورة فصلت .

القرآن يوضح أن هذه الفضيلة لا يبلغها الا صفوة الناس ، ممن أوتوا ارادة قوية ، وهى المعبر عنهـا بالصبر ، ولذلك كان التعقيب على هذه الفضيلة فى الآية التالية للآية السابقة مباشرة :

(وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) (١٧) ٠

---

(١٧) ٣٥ سورة فصلت ٠

عدل الله بين رسوله والمشركين

وحتى يكون العدل فى الاسلام فى أبرز مكان وأنصع قمة فان القرآن يجعل من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالا يتكرر كثيرا فى القرآن ، حيث يجعله طرفا فى خصومة بينه وبين أعدائه أعداء الله ، ثم يطبق القرآن مبادئه على هـــذه الخصومة ، ومن أبرز هذه المبادىء كما سبق تساوى الخصمين فى كل الحقوق وفى كل شىء فى أثناء الخصومة حتى يتضح الحق فى جانب أحدهما والباطل فى الجانب الآخر وذلك بطريق الحجة والمنطق ، فان العدل يقتضى افتراض تجرد القاضى أو الحكم من الاتيان بأى شىء يدل على ميله أو ترجيحه لأحد الخصمين مهما كان الحق واضحا فى جانبه حتى يســتوفى اجــراءات الخصومة التى تقتضى فيما تقتضى اتاحة الفرصة لكل طرف أن يدلى بحجته فى كامل حريته ٠

وهذه المعانى لم تكن تستوقف المســلمين الأولين كثيرا حين تعرض فى القرآن على أساس أنها من بدهيات المبادىء فى الاسلام ، ولكننــا اليــوم فى حاجة الى أن نقف عند كل

كبيرة وصغيرة من فضائل الاسلام لابرازها فى وجه الحملات العاتية التى تتدفق على الاسلام سواء من خارجه أو من داخله لمحاولة طمس مزاياه وفضائله •

وحين تكــون الخصومة بين رســول الله والمشركين فان الحكم حينئذ سيكون هو الله سبحانه لأنه فوق الطرفين •

ومع أن محمدا صلى الله عليه وسلم رســول الحكم الذى يحكم فى القضية ، ومع وضوح الحق فى جانبه ، والبــاطل فى جانب خصومه ، الا أن العدل يقتضى عدم السبق بالحكم، ويقضى بأن يوضع هو وخصومه على قدم المساواة فى أثنــاء الخصومة ، وأن يتاح لكل منهما الادلاء بكل حججه وأدلتــه فى حرية كاملة حتى يتضح الحق من خلال الحجة والمنطق ، وحينئذ يحكم لكل طرف بما يســتحقه موقفــه من الحق أو الباطل •

وأول مظاهر الانصاف فى هذه القضية أن القرآن يجرد رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يتــوهمه بعض الناس من ترتب آثار غير بشرية على صفة النبــوة فيه ، حيث يتــوهم بعضهم أنه مادام على صلة خاصة بالله فينبغى أن تكــون له بعض خصائص الله كعلم الغيب أو القدرات الروحية أو غير المادية بصفة عامة ، خصوصا وان خصومه يعتقدون أن بعض الناس كالسحرة والكهان يملكــون شــيئا من ذلك فأولى فى نظرهم أن تكون هذه القدرات لمن يدعى أنه على صلة خاصة بالله وهو النبى •

ومن زاوية انصاف المشركين بوصفهم طرفا فى الخصومة فان القرآن يؤكد لهم أن رسول الله يتساوى معهم فى البشرية، وفى كل مكونات الطبيعة الآدمية عــلى الاطلاق ، ولا يتميز عنهم فى هذا الا بما ينزل عليه به الوحى من الله أولا بأول ، ولكنه لا يكتسب من ذلك فى طبيعته ، أو فى صفاته الدائمة شيئا يتميز به عنهم ، وذلك تأكيدا لوحدانية الله فى صفات الألوهية ، وعــدم مشــاركة أحــد اطلاقا اياه فى شىء من

خصائصها ، وهـذا ما عبر عنـه أبو بكر حين توفى النبى فأصاب المسلمين ما أصابهم من الدهشة والذهول حيث قال : (من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبـد الله فان الله حى لا يموت) ٠

فالرسول اذن يتساوى معهم فى طبيعته البشرية ، ويجب أن يعلموا ذلك حتى تطمئن نفوسهم الى انصافهم فى الخصومة بينهم وبينه ٠

وقد كان يمكن أن يكون الله سبحانه هـو الذى يخبرهم بهذه المساواة ، أو هو الذى يقررها ، ولكن اعجاز أسـلوب القرآن يجعل الرسول نفسه هو الذى يعلن اليهم هذه الحقيقة ، وليس الله سبحانه ، وقد يكون الفارق بين اخبار الله واخبار رسوله عند المؤمنين غير ذى شأن لأنهم يؤمنون أن النبى يتحدث عن الله صادقا ، أما خصوم الرسول فنظرتهم تختلف عن هذا، فحين يقول لهم الرسول وهو الخصم انه يتسـاوى معهم فى البشرية ، وانه لا يملك من خصائص الاله الذى أرسله شيئا فهذا اعتراف صريح من الخصـم ، لا يحتـاج الى تدعيـم ، ولا يبقى فى نفوس المعتدلين منهم أية مخـاوف من الجـور عليهم فى الخصومة ٠

فهذه الملحوظة وهى أن القرآن يجعل الرسول هـو الذى يخبرهم بهذه المساواة وليس الله سبحانه نجدها بارزة مكررة فى القرآن ، ومن ذلك تكرار تعبير

(قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى) (١) ٠

فقد كان يمكن نظريا صدور المعنى عن الله سبحانه كأن يقال ان الرسول بشر مثـلكم أو هـو كسائر البشر ولـكن صدوره من الرسول نفسه له قيمة موضوعية كبيرة من حيث أنه بالقياس الى الخصوم اعتراف من الرسـول وليس خبرا

---

(١) ١١٠ الكهف وأيضا ٦ سورة فصلت ٠

فحسب ، فقد يتهم الخصوم الخصم بالكذب فى الخبر ولكنهم لا يستطيعون اتهامه فى الاعتراف ، ومعنى ذلك أن لهـــذه الصياغة أثرا نفسيا يختلف عن أثر الصياغة الأخرى .

وكذلك حينما يتصور الخصوم أن الرسول مادام يدعى الصلة بالله فيجب أن تكون له صفة خاصة كاستطاعته ان يضر من يشاء وأن ينفع من يشاء ، فان القرآن يريد أن يجعـــل نفوسهم مطمئنة فى أثناء الخصومة فلا يراودها خـوف من شخص الرسول ولا تتطلع الى أمل فى نفع من وراء شخصه ، بل لهذا كله مصدر واحد ، هو الله ، والقرآن أيضـا يجعـل الرسول نفسه هو الذى يعترف لهم بأنه لا يملك نفعا ولا ضرا ليس لهم هم فحسب ، بل ولا لنفسه أيضا ، لأن مصـدر ذلك أيضا هو الله .

(قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله)(٢)

وكذلك فى الرد على كل ما يتصورونه أو يطلبونه من النبى ، يجعل القرآن الرسول نفسه هو الذى يعترف لهم بأنه لا يملك منه شيئا ، لأن الذى يملك كل شىء هو الله :

(قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ان أتبع الا مايوحى الى)(٣)

المساواة الافتراضية بين الرسول والمشركين :

واذا كان الانصـاف فيما سـبق يتعلق بالمسـاواة بين أشخاص طرفى الخصومة ، فان الانصاف هنـا فى المساواة بين العمل وليس بين الأشخاص فحسب ، بمعنى أن القـرآن يبلغ من انصاف الخصم أن يفترض أن ما يصدر من رسـول الله والمؤمنين من ايمان أو عمـل هـو على قدم المسـاواة مع

(٢) ٤٩ سورة يونس .
(٣) ٥٠ سورة الأنعام .

ما يصدر من الكافرين من كفر أو فساد في الأرض ، وتظل هذه المساواة حتى تنتهي الخصومة بحكم الله لأيهما أنه على الحق وعلى الآخر بأنه على الباطل ، واذا كان افتراض المساواة بين شخصي الخصمين في أثناء الخصومة مألوفة في بعض أعراف البشر ، فان افتراض المساواة بين الايمان والكفر ، أو بين الخير والشر أمر بعيد عن المألوف ، لأن أعراف الناس تكاد تتفق في الحكم على الأمور والأعمال من حيث الخير والشر ، بمعنى انهم يكادون يتفقون في الحكم على نوع الخلق أو العمل هل هو خير أو شر ، ولكنهم يختلفون في الحكم على اتصاف الأشخاص به ، فيختلفون على شخص معين هل هو من أهل الخير أو من أهل الشر ، أما الأخلاق والأعمال فالحكم عليها لذاتها ليس موضع اختلاف كبير ، ومع ذلك فان القرآن يتجاوز كل مألوف مبالغة في انصاف أعدائه ، فيفترض أن ما يأتي به رسول الله ومعه المؤمنون من ايمان أو عمل نابع من الايمان متساو مع ما يصدر من الكافرين من كفر أو باطل وفساد ، وتظل هذه المساواة حتى يحكم الله بينهما ، وأمثلة هذا في القرآن كثيرة متنوعة ، ويجعل القرآن هذا سنة تسري على كل الخصومات بين رسل الله وأقوامهم ، ومنها على سبيل المثال على لسان محمد صلى الله عليه وسلم :

(قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين) (٤) .

وعلى لسان هود عليه السلام :

(فانتظروا انى معكم من المنتظرين) (٥) .

بل ان خصوم الرسول حين يكذبونه فان لله أحيانا لا يقول له أعلن اليهم انك الصادق وهم الكاذبون ، وانما يأمره أن يقول لهم هو بنفسه انه واياهم خصمان متساويان

---

(٤) ١٠٢ سورة يونس .

(٥) ٧١ سورة الأعراف .

فى الخصومة أمام الله ومحتكمان اليه فى كل ما يصدر عن كل منهما ومنتظران حكمه ، ومن ذلك :

(وان كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) (٦)٠

ومن الأمثلة أيضا على لسان محمد صلى الله عليه وسلم :

(وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون ، وانتظروا انا منتظرون) (٧) ٠

وعلى لسان شعيب عليه السلام :

(٠٠٠ ويا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا انى معكم رقيب) (٨) ٠

فلم يقل أيهما على حق ، وأيهما الذى ينتظر العذاب وانما كلاهما فى هذه الخصومة على قدم سواء ٠

(وارتقبوا انى معكم رقيب) ٠

وان كان وضوح الحق مفهوما من السياق ٠

وعلى لسان محمد صلى الله عليه وسلم هذا المعنى السابق نفسه :

(قل يا قوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) (٩) ٠

فلم يقل أيهما سيصيبه العذاب المخزى وان كان مفهوما من السياق الا أنه لا ينفى اعلان المساواة بينهما ٠

على أن القرآن يصرح أحيانا باقتران هذه المساواة بالعدل ، بمعنى أنها من انصاف الخصم فى أثناء الخصومة ،

---

(٦) ٤١ سورة يونس ٠
(٧) ١٣١ سورة هود ٠
(٨) ٩٣ سورة هود ٠
(٩) ٣٩ سورة الزمر ٠

كقوله تعالى يأمر محمدا صلى الله عليه وسلم ليجعل هذا المعنى على لسانه زيادة فى طمأنينة نفوس الخصم الى الانصاف :

(.. وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير) (١٠) .

وكون الآية فى سياق الحديث عن أهل الكتاب لا يغير من الاتجاه العام للمعنى كثيرا الا فى تعبير :

(لا حجة بيننا وبينكم)

فان اعلان المساواة فى الخصومة بين الرسول وتابعيه وبين المشركين اعلان مؤقت ، والمساواة نفسها مؤقتة بانتهاء الخصومة بين الاسلام والشرك ، وكان انتهاء الخصومة بينهما بأحد أمرين وذلك :

١ ــ أن بعض الناس يؤمنون عن طريق العقل والمعرفة حيث يكفيهم الاقناع العقلى ، وقد آمن بعض الناس وان كانوا هم الأقل عن طريق الدعوة الى الله فانقضت خصومتهم بايمانهم .

٢ ــ بعض الناس لا يؤمنون الا عن الطريق المادى المحسوس كالمعجزات الحسية أو الانتصار العسكرى ، وكان المؤمنون عن هذا الطريق هم الأكثر ، وهو ما يشير اليه تعبير القرآن فى قوله تعالى :

(اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك ..) (١١)

فقرن دخول الناس فى الدين أفواجا بنصر الله والفتح

---

(١٠) ١٥ سورة الشورى .
(١١) سورة النصر .

وليس بظهور الحق عن طريق الدعوة والاقناع وانقضت أيضا خصومتهم بدخولهم الاسلام واذن فالخصومة بين الاسلام والشرك كانت مؤقتة ، لأنه لا بقاء للشرك فى أرض الاسلام، ولذلك فالمساواة بين الخصمين مؤقتة بهذا التوقيت ، فالحجة للاسلام والدعوة اليه مستمرة حتى ينتهى التوقيت بنتيجته الحتمية ، وهى ازالة الشرك من أرض الاسلام بأية وسيلة . أما أهل الكتاب فقد أقرهم الاسلام على ما هم عليه من دين بعد أن بين لهم باطله ، ومعنى ذلك أن الخصومة بينهم وبين الاسلام ليست لها نهاية اجبارية ، بل هى مستمرة الى ان يحكم الله فيها يوم القيامة ، وهذا معنى **(لا حجة بيننا وبينكم)** .

ومما لا لبس فيه أن ما يدعو اليه الأنبياء هو الحق الواضح ، وأن ما يتمسك به خصومهم هو الباطل الواضح ، ولكن الانصاف فى أثناء الخصومة بين الرسول والمشركين يقتضى أن يكونا على قدم المساواة فى الخصومة ، ومن ذلك افتراض أن يكون أحدهما على الاطلاق هو الذى على الحق ، والآخر أيا كان هو المتشبث بالباطل دون تحديد أحد منهما حتى تنجلى الخصومة بمنطقها وأدلتها وحججها عن وضوح الحق أو الباطل فى كلا الجانبين ، وهذا الانصاف يسوقه القرآن صريحا ، ويجعله أيضا منطوقا بلسان النبى صلى الله عليه وسلم نفسه ، وكأنه اعتراف منه لهم بوصفه طرفا فى الخصومة باحتمال أن يكون هو على باطل وهم على حق ، وكأنه يقول لهم فتعالوا نتحاور بالعقل والمنطق لنرى من منا على الحق ، ومن منا على الباطل ، فقد تكونون أنتم على حق ونحن على باطل وليس بعد ذلك انصاف لخصومه ، ففى القرآن :

(قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) (١٢)

---

(١٢) ٢٤ سورة سبأ .

بمعنى نحن وأنتم طرفان متساويان فى احتمال التمسك بالحق أو بالضلال المبين حتى يتضح الحق ، وكل سامع للقرآن يشعر بهذه الروح المنصفة فى القرآن ، بل تمتلىء نفسه بها انفعالا واكبارا ، والمفسرون يبرزون هذا المعنى ويلمحون اليه كثيرا ، ومن ذلك تعقيب الامام الزمخشرى على

(وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين)

حيث يقول (وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك) ثم يفيض الزمخشرى فى بسط الانصاف فى الآية مستشهدا ببعض الشعر (١٣) .

افتراض خطأ الأنبياء وصواب خصومهم :

بل يذهب القرآن فى انصاف خصومه الى ما هو أبعد من افتراض المساواة بين رسل الله وخصومهم فاذا هو يفترض عكس الحقيقة ، وهو افتراض أن الكافرين هم المتمسكون بالحق والصواب ، وأن رسل الله هم المتشبثون بالباطل والخطأ ، ورغم أن هذا الافتراض يتضمن نوعا من السخرية بخصوم الأنبياء ، الا أن الاحساس بهذه السخرية انما يكون لدى المؤمنين ولدى العقلاء المنصفين من غير المؤمنين ، أما من سواهم فقد يرون هذا الافتراض حقيقة ، لأنه من المعقول بداهة أن يكون بعض المعادين للأنبياء ، بل كثير منهم يتصورون فعلا أن الأنبياء هم المخطئون ، وأنهم هم على صواب ، وتكون فائدة الافتراض العكسى الذى يفترضه القرآن أنه افتراض يريح نفوس أعداء الله ، حيث كأنهم يتصورون ولو لأول وهلة أن القرآن بدأ يعترف لهم أنهم على حق وأن رسل الله على باطل ، ويتخيلون أن رسول الله حين يبلغهم هذا كما يأمره القرآن كأنه ثاب الى رشده فى تخيلهم واعترف بأنه

---

(١٣) تفسير الكشاف للزمخشرى فى الآية ٢٤ سورة سبأ .

كان مخطئا ، وأن أعداءه المشركين هم على حق ، وهذا الشعور الذى يريح نفوسهم ، ويطفىء جذوات الغضب والحقد فى نفوسهم يهيىء عقولهم ولو للحظات الى التفكير الموضوعى المحايد فيما يقوله الأنبياء ، وهذه اللحظات التى يفتحون فيها عقولهم ويسمحون فيها بدخول شعاع الايمان الى نفوسهم كافية لتقود كل من لديه استعداد للانصاف منهم أن يرى الحق واضحا ، وأن يعرف الطريق القويمة الى العقيدة الصحيحة .

ومن أمثلة الافتراض العكسى فى القرآن قوله تعالى :

(قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون) (١٤) .

بمعنى سنذهب الى أبعد من افتراض المساواة بيننا وبينكم فى الحق والباطل ، فنفترض أننا على باطل ، بل ما نقوله فى العقيدة ، وما نفعله من عمل فى العبادة كل ذلك جرائم نرتكبها نحن ، أما أنتم فكل ما يصدر منكم هو أمر عادى أى لا خطأ فيه ولا باطل ، ومعناه أنكم على حق ونحن فى أسوأ الباطل وهو الخطأ فى حق أنفسنا والاجرام فى حقكم حين ندعوكم الى فعل هذا الخطأ الذى نفعله نحن ، بمعنى أن ما نحن فيه من الدين خطأ فى حق أنفسنا وجريمة نرتكبها فى حقكم حين ندعوكم الى فعله .

ومن الواضح أن هذا طور أبعد فى الانصاف من طور افتراض المساواة فيما سبق ، وبالتالى فلابد أن يكون أثره فى نفوس الخصم أبلغ وأعمق ، فماذا يريد أى خصم فوق هذا ؟ وهو من روائع أسلوب الحكمة فى الدعوة الى الله ، فانه من قبيل منهج ابراهيم عليه السلام فى الدعوة ، كافتراضه للمشركين أن عبادتهم الكواكب هى الحق ، وأن ما كان يدعو اليه من توحيد الله هو الباطل ، وأنه رجع عن

---

(١٤) ٢٥ سورة سبأ .

باطله الى الحق الذى يعتنقونه ، فسيعبد معهم الكواكب لأن عبادتها هى الحق ، وعبد معهم الكواكب فعلا فى الظاهر ، ولكنه كان يتخذ من هذا الافتراض وسيلة لكسب مشاعرهم حتى يستطيع أن يتخذ من هذه الوسيلة مفتاحا لعقولهم ولو للحظات يدخل فيها شعاع الايمان الى نفوسهم ، وهو ما تدرج فيه معهم فى أثناء عبادته الافتراضية للكواكب معهم .

والامام الزمخشرى يعقب أيضا على جانب الانصاف الذى تتضمنه هذه الآية :

(قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون)

فيقول (هذا أدخل فى الانصاف وأبلغ فيه من الأول حيث أسند الاجرام الى المخاطبين ـ بكسر الطاء ـ والعمل الى المخاطبين ـ بفتح الطاء) (١٥) ويعنى بالأول فى قوله أبلغ من الأول الآية السابقة التى تتضمن افتراض المساواة بين الرسول والمؤمنين من جهة والمشركين من الجهة الأخرى ، بمعنى أن الآية الثانية أبلغ فى الانصاف الأولى وفى مثال آخر نجد نوحا عليه السلام يفترض أنه فى ايمانه وفى دعوته الى الله مجرم ، وأنهم فيما هم عليه مجرمون أيضا ، من باب قولهم المساواة فى الظلم عدل ، بمعنى أنهم يتهمونه بأنه يفترى على الله أنه أرسله اليهم ، والافتراء جريمة ، فهو يفترض أنهم على حق فى هذا وأنه افترى صلته بالله افتراء وكأنه يسألهم حينئذ فمن الذى سيعاقب على هذا الافتراء ؟ والاجابة واضحة وهى أن المسئول والمعاقب هو المفترى وهو نوح أما هم فلن يضرهم افتراؤه شيئا ، ولكنه يثير مع هذا الافتراض مسألة أخرى يوجهها اليهم ، وهى أن اتهامهم اياه بالافتراء على الله هو نفسه جريمة ، لأنه اتهام بغير دليل ، فمن المسئول عن جريمتهم هذه ؟ والاجابة أيضا واضحة ،

---

(١٥) تفسير الكشاف للزمخشرى للآية ٢٥ سورة سبأ .

وهى أنه هو غير مسئول عنها وغير معاقب عليها ، وهذا معنى **(وأنا برىء مما تجرمون)**

ومضمونه أنهم هم المسئولون والمعاقبون على جريمتهم .

ولكن النتيجة المهمة هى مجاراتهم فى ادعاء أن رسول الله مجرم ، وهو من باب الافتراض العكسى أى عكس الحقيقة ، لأن الحقيقة هى أنهم هم المجرمون ، ولكن مجاراتهم فى اتهام رسول الله بالاجرام مما يريح نفوسهم ويهيؤها للتقارب مع رسول الله والتفاهم معه ، حيث يستطيع من خلال استرخاء مشاعرهم نحوه أن يجعلهم يفتحون عقولهم لشماع الايمان ولو للحظات أيضا ، فان نظرة واحدة موضوعية محايدة كافية لاظهار حق الايمان وباطل الكفر ، وليس مهما بعد ذلك أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا لأن مهمة الرسل جميعا تنحصر ليس فى أن يجعلوا الناس مؤمنين ، وانما فى شىء واحد هو اظهار الحق للناس واضحا متميزا عن الباطل وغير ملتبس به ليكون هذا حجة لله عليهم عند الحساب ، حيث ظهر لهم الحق واضحا فى غير لبس فرفضوه .

افتراض المساواة بين الله والآلهة :

بل هناك ما هو أبعد من هذا كله فيما يمنحه القرآن من انصاف لخصومه ، حيث يصل الانصاف الى درجة التسوية بين الله سبحانه بوصفه معبودا للمؤمنين ، وبين الأصنام بوصفها معبودة للمشركين ، وذلك فى سياق أن القرآن ينهى المؤمنين عن أن يسبوا الأصنام أو الآلهة التى يعبدها المشركون بصفة عامة ، حتى لا يسب المشركون معبود المؤمنين وهو الله سبحانه ، وقد يبدو هذا فى سطح الأمر غريبا ، حيث يرى المؤمن أن من حقه أن يسب معبود المشركين لأنه باطل ، وليس من حق المشركين أن يسبوا الله لأنه الحق .

ولكن القرآن ينبه المؤمنين ضمنا الى أن نظرتهم هذه ليست انصافا لخصمهم ، أما الانصاف فهو أننا نتعامل مع

المشركين على انهم طرف فى خصومة معنا ، وما داموا طرفا فى الخصومة فمن حقهم أن يحظوا بكل ما نتمتع به نحن من الحقوق على قدم المساواة بيننا وبينهم حتى تنتهى الخصومه بظهور الحق ، والحكم لأحد الطرفين بانه على حق ، والحكم على الآخر بانه على باطل ، أما قبل ظهور الحق الذى يقتضى صدور الحكم فالطرفان متساويان فى احتمال أن يكون أى منهما على حق ، والآخر على باطل دون تحديد أو ترجيح لأحدهما ، ومقتضى هذا فى هذه القضية أنه اذا كان من حق المؤمنين أن يسبوا معبود المشركين فمن حق المشركين أن يسبوا معبود المؤمنين ، ولذلك ينهى القرآن المؤمنين عن سب معبود المشركين فى قوله تعالى :

(ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم٠٠)(١٦)

والذين يدعون من دون الله بمعنى الذين يعبدون من دون الله وهو على الاطلاق سواء أكانت أصناما أم غيرها ، ولفظ (عدوا) بمعنى عدوانا ، ونلحظ أن القرآن فى دقته البالغة فى التعبير ينبه المؤمنين فيما ينبههم هنا الى أمرين كليهما كأنه اعتذار عن المشركين حين يسبون الله :

١ – فأما أولهما فهو فى تعبير (بغير علم) من جملة :

(فيسبوا الله عدوا بغير علم) ٠

بمعنى أن المشركين حين يبادلونكم السب ويسبون الله سبحانه ، فانما يفعلون ذلك عن جهل وعدم معرفة بذات الله ، لأن الله لم يشرح صدورهم بعد لمعرفة الله والايمان به ، فالذين يسبون الله حينئذ من المشركين لا يسبونه على أنه الله الواحد ، وانما يسبونه عصبية دينية أى تعصبا لآلهتهم التى يعبدونها فما دام أعداؤهم وهم المؤمنون سبوا آلهتهم فيأخذون

---

(١٦) ١٠٨ سورة الأنعام ٠

ثأرهم بسب اله الأعداء مثلا بمثل ، فصـــدور السب لله منهم سيكون جهلا وعدم معرفة ، وليس اســاءة الى الله ، وهــذا اعتذار واضح عن المشركين بوصفهم خصما ، وبالتالى فهــو مما يتجاوز كل غايات انصـــاف الخصم ، أى أنه زيادة فى الانصاف ٠

٢ ــ وأما الثانى فهو فى تعبير **(زينا لكل أمة عملهم)** فان مضمونه أن الله حيث لم يرد لهم الايمان فقد زين لهــم الشرك حتى رأوه حقا أو شيئا حسنا ، ومعنى ذلك أنهم حين يدافعون عن الشرك فانما يدافعون فى زعمهم أو فى تخيلهم عن شيء حسن وليس عن شيء قبيح ، لأنهــم لو عــرفوا أنه قبيح ما أقدموا عليه، وهذا أيضا يتضمن اعتذارا عن المشركين حين يسبون الله سبحانه ، وهو بالتالى مما يتجاوز كل غايات انصاف الخصم ٠

وقد كان النبى يطبق هذا الانصـــاف بوصفه صلى الله عليه وسلم معلما للانصاف ولكل الفضائل فضـــلا عن عمق فهمه للقرآن وتخلقه به ، ومن أمثلة ذلك أنه فى أثناء صلح الحديبية ، حينما أرسلت قريش مندوبهـــا ليفـــاوض النبى على الهدنة والصلح فوافق النبى وبدأوا فى كتابة صيغة الصلح أملى النبى الكاتب فكتب هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فاعترض سهيل قائلا لو علمنا أنك رسول الله ما حاربناك فاكتب هذا ما عاهد عليه محمد بن عبد الله فأيده النبى وقال للــكاتب (امح رســول الله) ومحى تعبير رسول الله رغــم اعتراض بعض المســلمين ، لأن الانصـــاف يقتضى أن نعطى للخصم من الحقوق فى الخصومة ما نعطيه لأنفسنا ٠

وتترتب على هذا الانصاف أشياء كثيرة فى حياة المسلمين قد لا تكون واضحة لكثير منهم ، ومن ذلك مثلا أن الاســلام يبين ما فى دين اليهود والنصارى من كفر وباطل ، ولكنــه

يقرهم على ما هم ولا يبيح للمسلمين أن يكرهوهم على تركه مهما كان ذلك مستطاعا لهم وبالتالى لا ينبغى للمسلمين أن يضيقوا بمزاولة اليهود والنصارى شعائر دينهم مهما نفرت منها نفوسهم ، لأنهم ما داموا قد أقروهم على دينهم فمن حقهم مزاولة دينهم كما يشاءون ماداموا لا يتعمدون ايذاء أحد به ، ويكون هذا هو الانصاف لهم ٠

الاعتراف بمزايا الخصم

قد يكون الاعتراف بمزايا الصديق أو المحايد أمرا عاديا ، ولكن الاعتراف بمزايا العدو أمر غير عادى ، اما لأن روح العداء تأبى الاعتراف بفضيلة فى الخصم رغم معرفتها، واما لأن روح العداوة لا تتبين فى العدو الا مساوئه ، وأما مزاياه فلا تكاد تستبينها ، واذا رأتها فانها تراها فى صورة مشوهة أقرب الى السيئة منها الى الحسنة ، كما يقول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدى المساويا

وذلك لأن للعاطفة سلطانا قويا على الانسان ، بينما الانسان ليس له عليها سلطان قوى أو ضعيف ، ولذلك فان الله سبحانه لا يحاسب الانسان على العاطفة ذاتها فى الحب والكره ، وانما يحاسبه على سلوكه ازاءها ، فله أن يحب وأن يبغض ، أو بمعنى أدق لعاطفته أن تكون كما تشاء ، ولكن عليه أن يلتزم العدل فى حالتى الحب والبغض ، فلا يدعوه الحب الى جور يكون فيه ظلم لآخر ، ولا تدعوه البغضاء أيضا

الى جور فيه ظلم ولو لأعدى أعدائه ، ومن باب قوله تعالى :

(لا يكلف الله نفسا الا وسعها) (١) .

فانه حينما تصل العاطفة الى الوضع الذى لا يملكه المرء فانه يعذر فى درجة من درجات العـدل الذى لا يسـتطيعه ، وذلك انما يكون فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، ففى هـذا المجال يعذرالرجل فى عدم استطاعتهالعدل الكامل بين امرأتين كقوله تعالى :

(ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل) (٢) .

ومفهوم هذا أن بعض الميل والجور معفـو عنـه لعدم الاستطاعة ، ومن هذا القبيل طبيعة الغيرة فى المرأة عـلى الرجل ، فاندرجة من درجات سلوكها تحت وطأتهـا معفـو عنها لعدم استطاعتها ، كما حدث فى عدة مواقف من عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم وعذره اياها فى غيرتها عليه من أزواج أخريات ، كما ورد فى الأحاديث النبوية .

والخصم بطبيعة الحال مكروه ، ولكن عاطفة الكره نحوه مهما تبلغ فلن تصل الى الدرجة التى تخرج عن الاستطاعة ، ولن تصل الى الدرجة التى يقبل فيها عذر عن أية درجة من درجات الجور عن العدل ، ولكن طبيعة الهوى والنفس الأمارة بالسوء هى التى تدفع عامة الناس الى مجافاة العدل فى معاملة خصومهم ، وفى النظرة الى صفات الخصوم مما يسوقه الشاعر فيما سبق ، وقلة نادرة من الناس هى التى تستطيع انصاف الخصم بابراز شىء من مزاياه فى أثناء حديثها عنه ، ولذلك فان القصائد المعدودة التى ورد فيهـا انصـاف من الشـعراء لخصـومهم يضعها النقـاد تحت شـعار بارز متميز ، حيث

---

(١) آخر سورة البقرة .

(٢) ١٢٩ سورة النساء .

يصفونها بأنها (من المنصفات) أى من القصائد النادرة التى أنصف الشعراء فيها خصوم قومهم (٣) •

ولكن القرآن وهو الذى يعلم الناس فيما يعلمهم التزام العدل الكامل ، ومقاومة الهوى والميل عن الحق فى النفوس، يوضح هذا فى أمثلة عديدة نظرية ، وفى أمثلة عديدة تطبيقية، فمن الأمثلة النظرية قوله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون)(٤)

وتذييل الآية بتعبير :

(ان الله خبير بما تعملون) •

زيادة الزام فى طلب العدل بمعنى ان من يلجأ الى التحايل فى العدل ، أو محاولة المكر والباس الجور ثوب العدل فان الله خبير ومطلع على خبايا النفوس •

ومن الأمثلة التطبيقية فى القرآن الكريم موقف القرآن من النماذج التالية :

١ ـ ملكة سبأ :

يورد القرآن قصة طويلة مفصلة وكاملة عن ملكة سبأ ، التى يروى أن اسمها كان بلقيس ، وطوال القصة باستثناء نهايتها كانت ملكة سبأ مشركة بالله ، تعبد هى وقومها الشمس ، ومعنى ذلك أنها طوال القصة كانت من أعداء الله ، وأحداث القصة كلها كانت وهى مشركة بالله ، ولم يورد القرآن أى حدث عنها بعد اسلامها ، بل كان اسلامها لله هو نهاية القصة ، واذن فحديث القرآن كله عنها ـ باستثناء

(٣) انظر للمثال المفضليات للضبى والأصمعيات للأصمعى ، وديوان المحاسة لأبى تمام •

(٤) ٨ سورة المائدة •

اعلان اسلامها لله فى نهاية القصة ـ كان حديثا عن خصم من أبغض الخصوم الى الله ، وهم خصوم الشرك بالله ٠

ولو كانت هذه القصة حديث بشر لكان المتوقع أن تتسم بالتحامل على ملكة سبأ ، ومحاولة صبغ كل سلوكها ومواقفها قبل ايمانها بصبغة السوء والتنفير ، خصوصا مع مراعاة أمرين :

(أ) أحدهما أن هذه الملكة كانت فى أثناء القصة خصما لنبى من خيرة أنبياء الله هو سليمان عليه السلام ٠

(ب) القرآن الكريم نفسه يخاطب أساسا المشركين ، وهم شركاء هذه الملكة فى الشرك ، فكانالمتوقع ـ بالافتراض المذكور ـ أن تشتد حملة القرآن عليها فى أثناء شركها ، بابراز مساوىء لها فى كل مواقفها وليس ابراز مزايا ٠

ولكن القرآن وهو كلام الله العدل المطلق ، والداعى الى العدل ولو فى أشد حالات الشنآن والبغضاء يتحدث عن ملكة سبأ وهى مشركة بالله ، فيبرز لها ميزة من أعظم المزايا ، فى حكمة السياسة ، وحسن الادارة ، ولعل القرآن يريد من عرض سياستها أن يجعلها نموذجا يحتذى للساسة والحكام ، سواء من المؤمنين وغير المؤمنين ، مع أنها امرأة ، وهى مشركة ، وهى فى غابر الزمان ، ولكنها تطبق فى سياستها ما لم تستطع الغالبية العظمى من الساسة حتى اليوم أن تلتزمه ، رغم الشعارات الحديثة التى يرفعونها لسياستهم ٠

والقرآن يورد هذه القصة فى سورة النمل (٥) وهى فى ايجازها أن سليمان عليه السلام نبى مرسل من الله وكان قد دعا ربه أن يهبه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فميزه الله عن سائر الملوك بأن جعله يملك كل ما فى مملكته من انس وجن وطير فضلا عما فيها من خيرات ، وبناء على ذلك كان يتفاهم

---

(٥) سورة النمل من الآية ٢٠ الى الآية ٤٤ ٠

مع الجن والطير ويسخرهم ، ومر ذات يـوم يتفقد فصـائل الطير ، فوجد أمير فصيلة الهدهد غائبا ، ومعنى غيـابه أنه كان غائبا عن المملكة كلها ، لأن المملكة كلها منطقة عمل له ، ولو كان فى أحد أماكنها لاكتشفه سليمان بوسائل اتصـاله مع الطير ، فغضب سليمان غضبا شديدا من خروج الهدهد عن حدود المملكة اذن ، وأقسم ليعذبنه عذابا شـديدا بوسـيلة تعـذيب تناسب الطير ، كحبسه فى فصـيلة غير فصيلته ، أو ليذبحنه ، الا اذا جاء بعذر مقبول •

ولكن الهدهد ما لبث أن جاء بالعذر المقبول ، حيث جعل من نفسه سلاح استطلاع لمليكه ، فاخترق الجزيرة العربيـة كلها من أقصى الشمال فى الشام ، الى أقصى الجنوب فى اليمن، وهنـاك كانت مملكة سـبأ ، التى كانت فى أوج حضـارتها وازدهارها وقوتهـا ، وقد أراد الهـدهد أن يأتى الى الملك بتقرير مفصل كامل الدقة عن كل أوجه الحياة وجوانبها فى مملكة سبأ ، وقد أدلى الهدهد الى الملك بهـذا التقرير الذى يصوغه القرآن بايجازه المعروف الذى يتضمن أن حاكم الدولة كان امرأة هى الملكـة **(انى وجـدت امرأة تملكهـم)** الوضع الاقتصادى والحضـارى كان فى القمـة بحيث يظهر أثرهما فى كل مجال بصورة باهرة ، ويدل عليه تعبير :

(وأوتيت من كل شى) •

وسواء فى ذلك مجال الحضارة العمرانية والتصنيع الذى كان من أثره هذا العرش الذى لا مثيل لصناعته :

(ولها عرش عظيم) •

أو فى مجال القوة العسكرية التى يتحـدث عنهـا قادة الدولة بقولهم :

(نحن أولو قوة وأولو بأس شديد) •

وأما الجـانب الدينى فى الدولة فكان شركا بالله حيث يعبدون الشمس ، وهى ديانة كانت شائعة حينئذ ، وخصوصا

على جانبى البحر الأحمر ، فى مصر من الغرب ، وفى سبأ من الشرق ، وكانا يمثلان أقوى حضارة بشرية مزدهرة فى العالم حينئذ .

وقد ألقى الهدهد بهذا التقرير الاستطلاعى الخطير ليس لمجرد الخبر ، حيث لم تكن رحلته رحلة سياحة ، وانما كانت استطلاعا كان الملك حريصا على معلومات عنه ولكنها لم تتح له الا فى هذا التقرير ، كما يدل عليه تعبير الهدهد (**أحطت بما لم تحط به**) .

وأهمية هذا التقرير أنه يمثل لسليمان ما يوصف بفرصة العمر بالقياس اليه وذلك فى مجالين :

(أ) أحدهما أنه بوصفه نبيا مرسلا يهمه أن ينشر الدين الصحيح فى شعب مشرك بالله كشعب سبأ الذى يعبد الشمس من دون الله ، وهذا اذا تحقق فهو أعظم كسب ، حيث يهدى الى الله شعبا كاملا .

(ب) والآخر أنه بوصفه ملكا يهمه أن يضيف الى مملكته مملكة كاملة قد تفوق مملكته حضارة وثراء ، وهذا ولا شك كسب عظيم اذا تحقق .

ولكن سليمان لم يأخذ تقرير الهدهد حجة مسلمة ، بل افترض أن يكون حيلة يريد الهدهد أن ينجو بها من العقاب، فوضع الهدهد أمام اختبار عملى ، هو أن يحمل رسالة من الملك الى هذه الملكة التى يتحدث عنها تقريره ، وعليه أن يعود بردها ، وحمل الهدهد الرسالة وألقاها الى الملكة .

مزايا ملكة سبا :

وقبل الحديث عن مزايا ملكة سبأ ، لابد من الاشارة الى موقف القرآن من الوضع الدينى الذى أورده تقرير الهدهد، فان الدين هو الهدف الأول ، وقد كان تعقيب القرآن وحكمه على هذا الوضع واضحا ، وهو الاستنكار والتسفيه ، ثم

الارشاد الى الدين الصحيح وهو وحدانية الله ، الذى يعلم كل ما فى السر والعلن ، وهو رب العرش الأعظم الذى لا يدانيه عرش ٠

ولكن الذى يلفت النظر فى دقة تعبير القرآن عن موقف الملكة فى هذا الشرك ، أنه لم يحملها وحدها هذا الشرك ولو بوصفها ملكة ، وانما جعل مسئوليتها ضمن قومها ، بحكم أنها عبادة موروثة وعامة ، لم يكن لها دخل فى ايجادها وليست هى المسئولة عن اصلاحها ، وانما تحمل جريمتها ضمن قومها ، ولذلك كان التعبير :

(وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله)

وهذه الملحوظة قد تبدو فى ظاهرها شكلية ، ولكنها فى الواقع بالغة الأهمية فى السياق العام ، وذلك أن مسئوليتها عن الشرك مسئولية فردية بوصفها احدى أعضاء قومها ، بمعنى أن مسئوليتها عن هذا الجانب مهما يبلغ الجرم فيه لا يزيد عن مسئولية أى فرد مشرك آخر ، ولكنها بوصفها ملكة لم تكن حينئذ مسئولة عن تغيير الوضع الدينى ، لأن هذا لا يدخل فى نطاق مسئوليتها السياسية ، بل انه يتعارض مع هذه المسئولية فى نظر شعبها ٠

ولكن المهم أن اشتراكها مع قومها فى الخطأ الدينى لا يمس مسئوليتها بوصفها ملكة ، ولا ينقص من كفايتها فيها ، والقرآن بدقة أسلوبه يشير الى هذا ، ولذلك كان اللوم منصبا على القوم جميعا وهى منهم ، ولو كان خطأ فى السياسة لكان اللوم موجها اليها هى ، أو على الأقل موجها اليها أساسا ، ثم الى قومها تبعا ، بحكم أنهم يوافقونها فى هذا الخطأ دون نصح أو اعتراض ٠

أما المزايا التى يشهد القرآن بها للملكة سبأ رغم أنها كانت حينئذ من ألد الخصوم لله سبحانه ، بحكم أنها مشركة به ، تعبدالشمس من دونه ، فهى عدة مزايا ، وليست ميزة واحدة ، ومن أبرز هذه المزايا :

أ ـ أمانة العرض :

في عصور لم يكن فيها على الملوك في سلطتهم أى قيد ، وانما كان رأيهم بل مزاجهم هو الآمر الناهي والحاكم المطلق في السلطة ، في هذا المناخ كانت ملكة سبأ تستطيع أن تفعل ما تشاء ، وأن تأمر بما تشاء ، دون حاجة حتى الى مشورة ، خصوصا وأن كل الملابسات توحى بأنها كانت تتمتع بشخصية فذة نادرة في كل مقوماتها ، واذا عرضت على قومها أمرا فانها تملك أن تصوغه كيف تشاء ، وأن تلونه بما تريد ، وأن تظهر منه ما يوافق هواها ، وتخفى مالا يلائم رأيها وقد جاءتها رسالة من ملك يدعى القوة الفائقة ، ويطلب منها ومن قادة دولتها ليس أن يستسلموا له فقط ، وانما يطلب منهم أن يأتوه صاغرين ، ليسلموا أنفسهم ودولتهم اليه دون قيد أو شرط أو مقاومة ، وموقف مثل هذا من شأنه أن يهز نفوس من يوجه اليه هزا عنيفا يستخرج كل ما لديها من انفعال القوة ، أو انفعال الضعف ، فان كانت تحس في قرارتها ولو بشيء من القوة ، فانها ستثور ثورة عارمة في وجه هذا الاذلال متحدية له ، وان كانت لا تحس لديها الا بالضعف فانها ستخور وتستسلم ، وأقصى ما تملك حينئذ أن تفكر في كيفية الاستسلام ، وفيما يكون عليها حالها بعد الاستسلام .

ولكن ملكة سبأ تفوقت على الحالين معا ، بأنها لم تخضع للانفعال واهتزاز المشاعر ، وانما احتفظت بمشاعرها وارادتها كاملة ، لتصرف الأمر بعقلها وبصيرتها دون انفعالها ، وأول ما فعلته أن جمعت قادة شعبها وأولى الرأى ، ثم عرضت عليهم الموقف عرضا أمينا ، حيث نقلت اليهم الواقع الحادث كما هو ، كما نقلت اليهم انطباع هذا الواقع الطارىء في نفسها كما هو ، وذلك كما يلى :

١ ـ الواقع الطارىء هو رسالة من ملك عظيم لعل صيته كان قد بلغهم ، بدليل أنها لم تحتج الى تعريف به أو

سؤال عنه ، وانما تحدثت عنه وكأنه معــروف لهــم ، حيث تقول عن كتابه (انه من سليمان) على أساس أنه لا يحتــاج لديهم الى تعريف ٠

وأما عن مضمون الكتــاب فهو موجز الكلمــات كطابع أسلوب الأنبياء ، كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم (نحن معاشر الأنبياء بكاء) بكسر الباء أى قليلو الكلام ، والقرآن بطبيعة أسلوبه الموجز المركز يعرض كل أهداف الكتاب فى ايجاز ، وعناصر كتاب سليمان على ايجازه كانت ثلاثة :

(أ) أن سليمان عليه السلام ملك ، ولكنه لا يســتمد قوته من مملكته أو جيشه ، وانما يستمدها من مصدر واحد، هو الله ، وذلك فى تعبير **(انه من ســليمان وانه باســم الله الرحمن الرحيم)** أى أن هذا الكتاب من سليمان الملك ، ولكنه لا يخاطبكم بقوة من سلطان ملكه ، وانما بقوة يستمدها من الله ، فمن الواضح أن البسملة فى كتاب سليمان ليستللتبرك كما قد يوحى ظاهر الأمر ، ولكنها عنصر جوهرى من عناصر الكتاب ٠

(ب) أن سليمان عليه السلام يطلب منهم عدمالمقاومة ، بل بصفة مبدئية اعلان الاستسلام دون أية مقاومة ، وذلك فى تعبير **(ألا تعلوا على)** فان العلو والتعــالى هــو التكبر ، والذى يقاوم خصمه انما يقاومه على أمل أن ينتصر عليه ، فيكون هو الأعلى وخصمه الأسفل ، ولكن سليمان يطلب منهم الاستسلام دون اللجوء الى أية مقاومة أو تعلق بأمل فيها ٠

(جـ) أن سليمان عليه السلام لا يكتفى منهم بالاستسلام وهم فى أرضهم ينتظرون أن يأتى هــو أو جيشــه ليتســلم التسلط عليهم ، وانما يطلب منهم أن يأتوا هم ــ أى الملكة وقادة دولتها ــ اليه معلنين استسلامهم وخضوعهم ، وذلك فى تعبير **(وأتونى مسلمين)** تعبير فانالملابسات توحى بأنالاسلام

هنا ليس مرادا به الاسلام الدينى ، وانما المراد به الاستسلام السياسى ٠

ونص الكتاب كما فى القرآن :

(انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين) ٠

وهناك عنصر آخر أدلت به الملكة خلال عرضها أو فى التمهيد لعرضها الكتاب ، وهذا العنصر ليس من عناصر الكتاب ، وانما هو من عناصر الموقف الأساسية ، وهو رأيها أو الانطباع الذى تركه الكتاب فى نفسها ، فمن طبيعة الموقف أنه لابد أن يوجه اليها سؤال صريح أو متوقع عن رأيها فى الكتاب أو الانطباع الذى تركه الكتاب فى نفسها ٠

وقد كانت بالغة الأمانة فى الجانبين ، جانب عرض مضمون الكتاب ، حيث نقلته اليهم كما هو ، ولم تكن ملزمة بذلك ، بل كان يمكن أن تعرض عليهم مضمونه فتصوغه كيف تشاء ، وتزيد أو تنقص أو تغير فيه كما تريد ، وكذلك جانب رأيها فى الكتاب من حيث هو ، ومن حيث الطريقة والمنهج الذى صاغه به مرسله ، فقد كانت أيضا بالغة الأمانة فى نقل مشاعرها ازاء الكتاب ، رغم غرابة هذه المشاعر فى موقفها ، فقد كان ينتظر من ملكة (أوتيت من كل شىء) ولها جنود(**أولو قوة وأولو بأس شديد**)أن تمتلىء غضبا من أى ملك يخاطبها بمثل هذا الأسلوب مهما تكن قوته ، وحتى لو افترضنا جدلا أنها كانت حينئذ تفكر فى الاستسلام فقد كان هذا التفكير أدعى لغضبها على أى ملك يرغمها على التفكير فى التخلى عن مجدها وسلطانها وملكها ، ولكنها تصف هذا الكتاب بأنه (كتاب كريم) ، وكأنها تقول رغم كل شىء ورغم أية مشاعر أو انفعالات يثيرها هذا الكتاب ، الا أننى أشعر بأنه من شخص صادق المنزع والأهداف ٠ فالأمانة فى

خلقها كانت أقوى من مشاعرها ازاء شخصها ومصلحتها الذاتية ٠

وهذا مما يرضى عنه القرآن ويجعله نموذجا يحتذى ٠

٢ ـ السياسة الحكيمة :

وتتمثل حكمة ملكة سبأ السياسية فى التزامها الشورى من تلقاء نفسها ، دون أن يكون هناك أى قيد أو شىء يلزمها ذلك ، فقد كانت ملكة مطلقة السلطة ، وما كان أحد ليؤاخذها أو يعيب عليها أنها لم تنتهج هذا المنهج ، وقادة دولتها يعرفون ذلك ولا ينازعون فيه ، ولذلك كان من ردهم عليها (والأمر اليك) بمعنى أنك أنت صاحبة الأمر والسلطة وحدك ٠

ولكن حكمة هذه الملكة جعلتها تلتزم الشورى فى كل أمور دولتها التزاما ثابتا ، ولذلك حينما وصلها كتاب سليمان جمعت الملأ من قومها ، وهم السادة والقادة ، وقالت لهم :

(يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون) ٠

فالتعبير يوحى بوضوح أنها لم تلجأ الى مشورتهم فى هذا وحده والا لكان التعبير ما كنت قاطعة اليوم أمرا أو ما كنت قاطعة فى هذا الشأن أمرا أو نحو ذلك ، ولكنها تتحدث عن التزامها مشورتهم على الاطلاق فى كل أمر ، وهم يؤيدون ذلك ضمنا ولا ينكرونه ، بل هم يعلمون أن الملكة حينما تستشيرهم فهى غير ملزمة أن تسير على مشورتهم ، بمعنى أنهم لو اتفقوا جميعا على رأى ، فمن حق الملكة أن تضرب بهذا الرأى عرض الحائط ، دون أن يكون فى هذا غضاضة سياسية عليها أو عليهم ، وليس هذا فى هذه المملكة وحدها ، وانما هو نظام الملك والحكم فى كل مكان ، ولكن ملكة سبأ تلتزم الشورى التزاما حقيقيا صادقا وليس شكليا ٠

ومن هنـا تتجلى ميزة هـذه الملكة التى ألزمت نفسـها مالا يلزمها من الشورى ، لأنهـا رأت أن تلك هى السـياسة الحكيمة ٠

ومن هنا أيضا نلمح الاشارة الضمنية لرضا القرآن عن هذه السياسة ، ويكفى دليلا على الرضا أنه يورد هـذا دون انكار عليه ، لا فى خلال العرض ، ولا فى سياقه ، ومفهـوم ذلك اقراره لهذه السياسة ورضـاه عنهـا ، بل ان القرآن يصرح فى أكثر من موضع بأن الشورى هى السياسة المشروعة فى الاسلام ، حيث يجعلها من صفات المؤمنين فيما بينهم وبين الحاكمين فيهم ، كقوله تعالى :

(وأمرهم شورى بينهم) (٦) ٠

ومعنى ذلك أن الاخلال بالشورى اخـلال بالايمان أو بدرجة جوهرية من درجات الايمان فيما يتعلق بالسياسة ، بل ان الأمر يتجاوز ذلك وضوحا ، حيث ان القرآن يجعـل الشورى أمرا لازما ، حيث يوجه الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم الى ذلك بأسلوب الأمر ، فى قوله تعالى :

(وشاورهم فى الأمر) (٧) ٠

ومن الواضح أن الأمر ليس موجها الى شخص الرسـول لذاته ٠ وانما هو موجه الى الرسول بوصفه قائدا للمسلمين، فالأمر الموجه اليه ، هو تشريع للقادة فى الاسلام ، وتوجيه الأمر اليه صلى الله عليه وسلم فيه غاية الالزام لكل القادة ، من حيث انه اذا كان الله يلزم رسوله ذلك فمن باب أولى غيره ، ولعل وجود سورة فى القرآن تحمـل اسم الشـورى لم يكن مصادفة ، وانما هو ابراز لشعار ومنهج اسلامى ، حتى يكون هذا الشعار فى مكان بارز لا يخفى على أحد ٠

---

(٦) ٣٨ سورة الشورى ٠

(٧) ١٥٩ سورة آل عمران ٠

واذن فسلوك سبأ فى التزامها الشورى فى سياستها هو السلوك الذى دعا اليه القرآن ، وأمر به ، فلا شك أنه موضع الرضا رغم أن صاحبته مشركة بالله ، وهى بهذا من ألد أعداء الله ، لأن منهج القرآن هـو العـدل والانصاف حتى مع ألد الأعداء ، كقوله تعالى :

(ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) (٨) ٠

ومن هـذا المنطلق كان من الطبيعى أن يعترف القـرآن بمزايا خصم ، هى ملكة سبأ ، عدوة الله حينئذ ٠

٣ ـ رأى الملأ :

حينما استمعت الملكة الى رأى الملأ فلابد أنه قلب موازين تفكيرها رأسا عـلى عقب ، وذلك أنهـا حينما قرأت كتـاب سليمان وأحست بصدق الوعيد فيه مما جعلهـا تصفه بأنه (كتاب كريم) بالاضافة الى ما يعتقد أنهـا قد سمعته عن سليمان فلابد أن ذلك ألقى فى نفسها ميلا لا تردد فيـه الى الخضوع تفاديا لسوء العاقبة ، ولكنها حينما استمعت الى رأى الملأ من قومها وجدت اتجاها مخالفا لهذا كل المخالفة ، وذلك أن قادة قومها أدلوا بهـذا التقرير من واقع ما يملكـونه ، وكأنهم أحسوا من وصفها كتاب سليمان بالكرم أنها تميل الى الاستسلام ، و تشعر بالخوف ، فاذا هم يضعون أمامها هـذا التقرير عن قوة الدولة وامكاناتها **(نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين)** وهذا التقرير على ايجازه يتضمن العناصر الآتية :

١ ـ لدى الدولة امكانات القوة الضخمة فى كل مجالات القوة ، سواء الاقتصادية والصناعية والمعيشية وغير ذلك من كل صور القوة الحضـارية التى نعتمد عليهـا اذا دخلنا أية حرب (نحن أولو قوة) ٠

---

(٨) ٨ سورة المائدة ٠

٢ ـ لدينا جيش يتميز بالشجاعة والبأس الشديد ، ويستطيع ان يدخل اية حرب وهو مفعم بالثقة فى قوته وشجاعته ، فحديثهم عن القوة شىء ، وعن البأس الشديد شىء اخر ، وذلك بناء على ان مدلول القوة عام فى كل اوجه القوة التى يحتاج اليها الموقف ، فكل عناصر الحضارة والامكانات فى اية أمة هى نوع من القوة ، أما البأس فهو مدلول الشجاعة فى القتال ، فالقوة عامة ، والبأس خاص ، ومن هذا القبيل قوله تعالى :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ‥) (٩) .

بمعنى وأعدوا لهم كل أسباب القوة ، وخصوصا القوة المقاتلة ، وبهذا التعبير من المستشارين كأنهم يقولون لها نحن لا نرى الا الاستعداد للحرب ، وتحدى هذا التهديد الموجه الينا .

٣ ـ ولكن المستشارين لا يملكون الا الادلاء برأيهم ، فهم يقولون لها نحن أبدينا رأينا ولكن الأمر بيدك أنت تريدين وتأمرين بما تشائين (والأمر اليك) وهذا من حسن الطاعة وعدم تجاوزهم حدودهم .

٤ ـ هناك اشارة دقيقة من المستشارين ، وهى التلميح اليها بألا تتعجل فى القرار ، وألا تتسرع فى الحكم تحت وطأة أية مشاعر أو انفعالات ، وانما ينبغى أن تدرس وتفكر بعمق فى الموقف وفيما سمعته من تقريرهم ، وذلك فى تعبير (فانظرى) فالنظر فى الأمر هو تمحيصه بالتدبر والتفكر فيه بروية ، وتعبير (فانظرى ماذا تأمرين) فى جملته يعنى نحن نطلب منك ألا تتسرعى أو تنفعلى ، بل تدبرى الأمر تدبرا جيدا قبل أن تصدرى أمرك فيه ، وذلك أنهم أحسوا بميلها الى المسالمة ، وهم يخالفونها الرأى ، ولكنهم لا يملكون

---

(٩) ٦٠ سورة الأنفال .

عصيانها ولا يريدونه ، وكل ما يملكونه هو تقديم النصح والمشورة المخلصة ، وقد قدموها مشفوعة برجاء الملكة أن تتريث لتتدبر هذا النصح ، وتقدر الموقف حق قدره ، عسى أن تقتنع برأيهم وتعلن الحرب على سليمان ، والاستعداد لحربه اذا جاء بقوته اليهم ، والاحتمال الأخير هو النتيجة المنطقية التى يريد الملأ أن تنتهى اليه الملكة ، فلا يعقل ان تفكر الملكة فى الهجوم ، لأنها ليست لديها فكرة الحرب اصلا، وانما الواجب فى رأيهم الدفاع — وهنا أيضا نلمح انصاف القرآن لملأ سبأ بالاشارة الى الرضا عن موقفهم رغم شركهم بالله ، حيث لم يعقب القرآن بأية اشارة توحى بتخطيئهم أو انكار شيء من موقفهم ، بل العكس هو الصحيح ، وهو الاشارة الى حسن موقفهم ، فالواقع أن موقفهم كله كان متسما بكل ما يثير اكبارهم ، سواء من حيث غيرتهم على مملكتهم وكرامتهم ، ومن حيث بذلهم أقصى ما يملكون من نصح واخلاص من وجهة رأيهم ، ويكفى دليلا على صدق نصحهم ، أنهم آثروا صدق النصح على ارضاء الملكة ، فقد كان موقف الملكة منذ بدايته واضحا فى الجنوح الى المسالمة بصرف النظر عن الوسيلة التى تسالم بها ، أى ولو اقتضى الأمر الخضوع والاستسلام ، وكثير من الذين هم فى مكانهم فى كل العصور والأماكن يؤثرون رضا الحكام عنهم على كل شيء ولو كان هذا الشيء مصلحة الوطن ، بل ومصلحة الدين ، ولكن ملأ سبأ آثروا مخالفة الملكة فى رأيها حرصا على ما يرونه مصلحة وطنهم بما فيه دينهم من وجهة نظرهم ٠

ومن حسن موقفهم أن مخالفتهم لملكتهم لم تكن شقا لعصا الطاعة ، وانما ايثارا للصدق واخلاص النصح ، ولذلك يعلنون اليها تمسكهم بالطاعة والولاء حتى ولو نفذت الملكة رأيها ٠ وخالفت مشورتهم ، ثم تبلغ بهم براعة الجمع بين الطاعة والتمسك بالرأى المخالف أن يصوغوا ذلك فى هذا المعنى الرائع (والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين) كما

سبقت الاشارة الى مدلول هذا التعبير ، وقد أوجز القرآن كل عناصر موقفهم فى قوله تعالى :

(قالــوا نحن أولو قوة وأولو بأس شــديد والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين) •

٤ ـ سداد رأى الملكة :

وبعد ســماعها رأى المستشــارين أصبحت تحت ضغطين بالغى القسوة والعنف ، وأمام طريقين ليس فيهما الا الحيرة والذهول ، وهى وحدها التى تتحمــل عبء اصــدار الأمر الشديد الرهبة فى كلا الحــالين ، فأما أحــد الضغطين فهــو ما ألقاه كتاب سليمان فى نفسها من الميل الى الاستســلام ، وهى الملكة التى أوتيت من كل شىء ، وأما الضغط الآخــر فهو الاتجاه المضاد ، وهو الحاح قومها عليهــا بألا تتردد فى الاتجاه الى الحرب ، ولم يترك أحد الطــرفين لها قط منفذا وسطا ، ولا شبرا واحدا من اللين بين الموقفين المتصلبين كل الصلابة ، والواقع أنه موقف تنوء بحمله الجبال ، ويحتاج الى عبقرية لم يشهدها الناس للخــروج من هــذا المأزق المصمت الرهيب ، الذى لا يبرق فيه ثقب واحد للخروج •

ولكن ملكة ســبأ كانت هى العبقرية التى لم يشــهدها الناس ، ولذلك استطاعت أن توجد لنفسها ليس ثقبا للخروج فحسب ، وانما بابا واسعا كريما لا غبار فيه ، ولا مأخذ على سالكه •

وقد تمثل هذا الباب فى أنها اهتدت الى الحل الوسط ، الذى يحميها من تأثير أى من الاتجاهين المتناقضين ، ويجعــل قرارها بعــد ذلك نابعا من مقتضيات المــوقف ، وليس من التأثر بالضــغوط النفسية ، ســواء من جانب سليمان ، أو جانب قومها •

وقد كان الحل الوسط يعتمد على ألا تأخذ تهديد سليمان

وحديثه عن استمداد قوته من الله مأخذ الحجة المسلمة ، وانما تتثبت تثبت اليقين ، فهى تحتاج الى فسحة من الوقت لتحقيق هذا التثبت ، وايجاد الوسيلة التى تتثبت بها ، وفى الـوقت نفسه هى فى حاجة عاجلة الى اطفاء غضب قومها ، او تخفيف حدة جنوحهم الى الحرب ، فكان سـلوكها فى هـذا المـوقف الرهيب كما يلى :

١ـ أرادت اخماد غضب قومها أولا ، فذكرتهم أن هذا الكتـاب من ملك يدعى أنه يملك قوة خارقة ليست متـاحة لغيره ، ولو كان صادقا فانه فى حالة انذارنا اياه بالحـرب سيفد الينا بقوته غازيا مهاجما ، والقـوات الغازية دائما لابد أن تعمد الى أمرين :

(أ) أحدهما التخريب والتدمير بكل ما تستطيع من قوة وعنف ، حتى تكسر شوكة المغزوين ، ولا تترك لديهم قـوة يفكرون معها فى الدفاع ، أو تجميع قوتهم المبعثرة ٠

(ب) والآخر التنكيـل بالقـادة والسـادة واذلالهم أمام قومهم ، لأن هؤلاء هم الذين يخشى أن يسعوا الى تجميع القوة للدفاع ، فاذلالهم وخصوصا اذا كان الاذلال أمام قومهم يكسر عزة أنوفهم ، ويذهب هيبتهم أمام أتباعهم ، ويجعلهم ابعـد عن التفكير فى المقاومة والدفاع مرة أخرى ٠

واذا كانت الملحوظتان معا تعنيان ملأ سبأ ، فان الملحوظة الثانية التى تتعلق بالسـادة والقـادة تعنيهم بصفة أخص ، حيث أنهـم هم سادة القـوم وقادتهم ، ومعنى ذلك أن الملكة تختار العناصر الأشد تأثيرا فى نفوسهم ، لتكون طاعتهم عن اقتناع نفسى ، وليس مجرد خضوع للسلطة ، ومعنى ذلك أن الملكة كانت تملك مقدرة خطابية رائعة التأثير فى النفوس٠

وحتى لا يراود السامعين ريب فيما تقول الملكة ، فانها تلجأ الى التاريخ ، مؤكدة لهم أن ما تقوله عن افساد القوات الغازية وتخريبها ليس متوقعا من قوات سليمان وحدها اذا غزت ، وانما هى طبيعة الغـزو فى كل عصر ، وكل بيئة ،

بصورة ثابتة لازمة لا تتخلف ، ومعنى ذلك أنها أيضا تتحدث عن علم بالتاريخ، وليس عن مجرد اجتهاد عقلى، فتقول لهم :

(ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) (١٠) ٠

ومن هذا نفهم حكمة وصايا النبى صلى الله عليه وسلم لقواده أن يتحاشوا كل افساد وتخريب أو اذلال، لأنها جيوش الله ، وليست جيوش ملك ٠

ومن الطريف أن بعض المفسرين يرى أن تعبير (وكذلك يفعلون) هو تعقيب للقرآن على كلام الملكة ، وليس كلامها هى ، بمعنى أن القرآن يؤيدها فيما تقول من أن عادة الملوك الملتزمة فى غزوهم أن يعمدوا الى الافساد والتخريب والاذلال ، فهى حينئذ شهادة من القرآن لصدق الملكة وهذا تأييد لما يتجه اليه هذا الكتاب من ابراز انصاف القرآن لخصومه ٠

٢ ــ وحين انتقلت الملكة الى العنصر التالى فكأنها قالت لهم : أما ما تتساءلون عنه فيما بينكم وبين أنفسكم عما يكون عليه موقفى، فاعلموا أننى لن أخضع لكتاب سليمان وتهديده ، وانما أريد أن أتثبت من شىء واحد ، هو ادعاؤه أنه ليس ملكا عاديا ، وانما يستمد قوته من مدد الهى خارج عن نطاق البشر ، فان كان كذلك فلا طاقة لنا ولا لقوة فى الدنيا به ، لأننا حينئذ سنحارب القوة الالهية وليس سليمان ، وأما ان كان ملكا عاديا يستمد قوته من جنده وسلاحه فأنا أحرص منكم على كرامة دولتى وكرامتى ، وسنواجهه بما لا قبل له به من قوتنا وبأسنا الشديد ٠

٣ ــ أما ماذا سأفعل لأتثبت من صدق ادعائه أو كذبه ، فاننى أعرض عليكم ما أراه فى هذا الشأن ، لتشيروا على

---

(١٠) ٢٤ سورة النمل ٠

فيه ، وهو أن نرسل اليه هـدية ضخمة مما تعتز به مملكتنا وتنفرد به من نتـاج حضـارتها وصناعتها ، فان كان نبيـا مرسلا من الله فسيرفض هذه الهدية ، لأن هدفه الأول سيكون حينئـذ بسط عقيـدته الدينية فى أرضنا ، ولن يرضى بأى بديل لذلك ، وهذه الهدية هى البديل لذلك ، فسيرفضها ٠

وأما ان كان ملكا كسائر الملوك فسيفرح بهذه الهـدية التى تتضمن ألوانا وأنـواعا لم تقـع عينه عـلى مثلهـا ، فسيتلقفها سعيدا وسعيدا بأنها تتضمن نوعا من الارضاء أو الخضوع له ، وقد يطلب المزيد ، وقد يواصل الطمع فينا ، ولكن هذا كله لا يعنينا ، وانما يعنينا أن نكـون حينئذ قد عرفنا انه ملك وليس نبيا ، فنعد له قوتنا التى تعرفونها ٠

فتقول :

(وانى مرسـلة اليهم بهـدية فنـاظرة بم يرجع المرسلون) (١١) ٠

ولم يبد أحـد من المستشـارين اعتراضا أو تغييرا فى الاقتراح ، أو اضافة اليه ، ومعنى ذلك موافقتهم بالاجماع ، بل معناه موافقتهم عن اقتناع وليس رضوخا للسلطة ، لأنهم أثبتوا أنهم يستطيعون مخالفتهـا الرأى اذا كانت المخالفـة نصحا ، كما فعلوا فى بداية هذا الموقف ٠

٤ ــ تعبير القرآن فى دقتـه يوحى بأن هنـاك جانبـا احتفظت به الملكة لنفسها بوصـفه (من أسرار الدولة) أو بوصفه (من أسرار العمـل العسـكرى) فالـواقع أنه منذ وصول كتاب سليمان فان الدولة أصبحت بالضرورة فى حالة (طوارىء) حرب ، أو استعداد للحرب ، ومن العبث الخطير كشف كل أسرار الاستعداد للحرب ٠

وهذا السر الذى يوحى تعبير القرآن أنها احتفظت به دون افشاء ، هو الهـدف الحقيقى أو الأهم من ارسال الهـدية الى

---

(١١) ٣٥ سورة النمل ٠

سليمان ، فانها أعلنت هدفا ظاهرا ومقبولا لارسال الهدية ، وهو اختبار وضع سليمان من النبوة بالذات ، كما سبق عرضه ، ولكنها مع ذلك كانت تهدف الى هدف جوهرى ، هو استطلاع كل أحوال مملكة سليمان ، فضلا عن استطلاع أحواله هو ، ولا تعنينا كثيرا التفاصيل التى تسوقها الروايات عن الهدية وعن الوفد الذى يحملها ، من مثل أنهم كانوا خمسمائة رجل ، وخمسمائة فتاة ، وغير ذلك من تفاصيل كثيرة لم ترد في القرآن والسنة ، ولا توجد وثائق تاريخية تدل عليها ، ولكن الذى يعنينا من هذا كله أنها كانت هدية نادرة المحتوى ، ضخمة الكم ، وضخامتها تحتاج الى عدد كبير يحملونها ويقدمونها ، ومن المرجح أن هذا العدد الكبير لم يكن من العبيد أو الخدم ، أو الأشخاص العاديين، وانما كان من جنود الاستطلاع ، ذوى الخبرة المتعددة فى جمع المعلومات عن كل وجوه الحياة فى مملكة سليمان ، بحيث يستطيعون تقديم تقرير واف شامل عن كل جوانب الحياة ، وكل جوانب القوة والضعف فى مملكة سليمان ، فان استطلاع أحوال العدو من بدهيات الاستعداد للحرب فى كل العصور ، ومن الخطأ الفادح دخول أى أمة الحرب دون أن تكون لديها معرفة كاملة بكل أحوال العدو ، خيرها وشرها ، ومادامت الهدية للاختبار فلابد أن تكون كل الاحتمالات حينئذ قائمة ، ومنها احتمال أن يكون سليمان ملكا فحسب ، وليس نبيا ، واذا كان الأمر كذلك ، فلابد أن يستعدوا للحرب ، ولو أن المرسلين بالهدية اقتصرت مهمتهم على تقديم الهدية والاتيان بالرد عليها لاحتاجت الملكة مرة أخرى الى معرفة أحوال هذه المملكة التى ستحاربها ، ومن الصعب حينئذ جمع معلومات وافية عنها لبعدها وعدم وجود وسائل اتصال بها ، ولكن هذه الهدية فرصة نادرة لبث عيون كثيرة تتطلع وتنقب بدقة فى كل جانب وكل وجه من وجوه مملكة العدو ، دون أن يرتاب فيهم أحد ، لأن لهم مهمة رسمية ، هى كونهم رسلا ، وأقصى ما ينظر اليهم به أنهم يتطلعون الى ما هو جديد عليهم ،

ويتفحصون ما هم مبهورون به من قوة هذه المملكة وامكاناتها ونحو ذلك ، وقد يسعى أبناء هذه المملكة الى التطوع بمدهم بمعلومات مفيدة لهم ، وهم يحسبون أنهم يتعالون عليهم ، أو يبهرونهم بما لديهم ونحو ذلك ، ولكنهم فى كل الأحوال يجمعون معلومات ، فهم جنود استطلاع •

والذى يدعو الى هذا الاستنتاج دقة تعبير القرآن فى عبارة :

(بم يرجع المرسلون) •

من قول الملكة :

(وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) •

فلو أنها كانت تنتظر رد سليمان على هديتها فحسب ، لكان تعبيرها فمنتظرة بم يرد سليمان ، أو منتظرة موقفه من الهدية أو نحو ذلك ، ولكنها تقول انها منتظرة ما يرجع به رسلها أى من معلومات ، وتبدو هذه الملحوظة بجلاء حين ننظر الى الفرق فى التعبيرين ، بين رسالة سليمان اليها ، ورسالتها هى الى سليمان ، فان سليمان حينما أرسل الهدهد بكتابه لم يكن ينتظر معلومات يأتى بها الهدهد ، لأن الهدهد كان قد جاءه بكل المعلومات عن مملكة سبأ ، وانما كان ينتظر رد الملكة على رسالته فحسب ، ولذلك كان تعبيره :

(اذهب بكتابى هذا فالقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) •

أى ماذا يكون رد الملكة وقومها **(ماذا يرجعون)** أما ملكة سبأ فلم يجئها أحد بمعلومات عن مملكة سليمان ، فهى تريد هذه المعلومات بالاضافة الى رد سليمان ، ولذلك كان تعبيرها

(فناظرة بم يرجع المرسلون) •

فهى لا تنتظر ماذا يرجعه اليها المرسل اليهم كما انتظر سليمان ، وانما تنتظر ماذا يرجع به رسلها اليهم •

فالفرق واضح وكبير بين التعبيرين ، ويترتب عليه اختلاف فى الهدف بين الرسالتين ، وحيث كانت رسالة سليمان واضحة ومحددة فى انتظار رد الملكة وقومها ، فان هدف رسالة الملكة كان جانب منه ظاهرا وهو ما اعلنته لقومها من انتظارها رد سليمان على هديتهم ، ولكن جانبا آخر من هدفها احتفظت به الملكة لنفسها بوصفه سرا عسكريا يجب أن يظل مغلفا بغلاف كثيف لا تستشفه الا الملكة ومن تصطفيه للاطلاع عليه بصفة سرية أيضا ، ومما يوحى بهذا الاستنتاج نسبة التعبير عنه الى نفسها ، فى قولها (فناظرة) أى هى بنفسها التى ستباشر وتتولى هذه المهمة ، ولو كانت مباحة لغيرها ولم تكن سرا لكان المتوقع أن يكون التعبير : وننتظر ماذا يرجع المرسلون ، أو نحو ذلك مما يدل على الجمع ، وليس على المفرد ، فان الهدية ليست هدية شخصية من شخص الملكة الى شخص سليمان ، وانما هى هدية من مملكة سبأ بزعامة الملكة .

وهذا ما راعاه سليمان فى تعقيبه ورده على الشخص الذى ناب الوفد فى الحديث حيث يقول :

(أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) .

فكان المتوقع أن تقول الملكة اننا ننتظر ردهم على هديتنا ، ولكنها لا تشرك قومها فى هذا الجانب بالذات ، رغم أنها فى موقف تستشيرهم فيه ، ولا تنتظر ردهم على الهدية فحسب ، وانما تنتظر ما يرجع به رسلها من معلومات .

وبقية القصة فى القرآن معروفة ، وليس من هدف هذا الحديث سرد القصة لذاتها ولا الاستنتاج من كل أحداثها وجانبها ، وانما يعنيه هدف واحد هو ابراز انصاف القرآن لخصومه ليعلم الناس العدل فى كل شىء ومع كل أحد ولو كان هذا الأحد خصما .

وقد كانت ملكة سبأ خصما لله بشركها به ، ومع ذلك فان القرآن ينصفها بابراز حكمتها فى السياسة ، وسداد رأيها فى الادارة ٠

وقد كان الملأ من قومها خصما لله أيضا بشركهم ، ومع ذلك فان القرآن ينوه بعزة أنوفهم فى موقف كان ظاهره عدوانا وبغيا من عدوهم ، ومما يدعو اليه القرآن من خلق المؤمنين رفض الذل ومقاومة البغي ، كقوله تعالى عن صفات المؤمنين :

(والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون) (١٢)٠

ومخالفة الملكة اياهم لم تكن فى مقاومة البغى ، وانما فى التسرع فى الحكم قبل التثبت من حقيقة الموقف ، كما ينوه القرآن باخلاصهم فى النصح والمشورة ، وايثار ذلك على تملق السلطة وارضائها ، كما ينوه القرآن ببراعتهم فى الجمع بين حسن الطاعة وصدق المشورة ٠

وهذا مثال من أمثلة التطبيق العملى لمبدأ من مبادىء القرآن فى قوله تعالى :

(ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى) (١٣) ٠

٢ ــ فرعون يوسف :

ولفظ فرعون كان لقبا عاما لكل ملك فى مصر ، وليس اسما لملك معين ، فالممالك الكبرى القديمة التى اتصلت بتاريخ الأديان كانت ثلاثا ، مصر والروم والفرس ، وكل ملك لمصر كان يسمى فرعون ، وكل ملك للروم كان يسمى قيصر ، وكل ملك للفرس كان يسمى كسرى ، وفرعون الذى تكرر الحديث عنه كثيرا فى القرآن هو أحد فراعين مصر ،

---

(١٢) ٣٩ سورة الشورى ٠

(١٣) ٨ سورة المائدة ٠

وكان معاصرا لموسى عليه السلام ، ويميز عن غيره من الفراعنة بأنه فرعون موسى ·

أما الذى نتحدث عنه الآن فهو الفرعون المعاصر ليوسف عليه السلام ، ومن المعروف أن الديانة المصرية القديمة كانت عبادة الشمس ، كما تؤكد ذلك آثارهم الباقية ·

ولما كان الدين بالغريزة أعمق مشاعر الانسان وألصقه بروحه ، فان الملوك كانوا يمزجون سلطتهم بالدين ، فيدعون أنهم أبناء الشمس ، ليجمعوا لانفسهم بين خضوع الرعية لسلطانهم ، وخضوعها للاله ، فكان المصريون حينذاك مشركين ، وكان الملك أشد شركا ، ان كانت فى الشرك درجات ، وهذا ينطبق فيما ينطبق على فرعون يوسف ، أى ملك مصر المعاصر له ، والذى تحدث عنه القرآن فى صلة يوسف به ·

والقرآن يوضح الوضع الدينى فى مصر خلال قصة يوسف ، فى قوله تعالى على لسان يوسف :

(يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) (١٤) ·

فينبغى اذن أن يكون واضحا أن الملك المعاصر ليوسف عليه السلام كان مشركا ، أى أنه كان عدوا لله ، وخصما من ألد خصومه ، ومع ذلك فان القرآن يتحدث عنه فينصفه انصافا واضحا ، ومن تكرار الحديث أن يقال ان كل مايسوقه القرآن سواء فى قصصه أو غير قصصه ، وسواء أكان فى مناسبة معينة أم فى حديث مطلق ، انما يراد به فى النهاية أن يكون عبرة وتوجيها ، فكل ما يسوقه القرآن مساق الرضا

---

(١٤) ٣٩ وما بعدها سورة يوسف ·

فانما يجعله نموذجا ليهتدى به الناس ، وكل ما يسوقه مساق النهى والتنفير فانما يسوقه ليحـذر النـاس من تكراره ومن التآسى به ٠

ويتمثل الموقف الذى ينوه به القرآن انصـافا لفـرعون يوسف فى حسن اختياره لمعاونيـه فى الحـكم بحيث يجعـل الصلاحية للمنصب هى الهدف والمعيار دون التاثر بأية عوامل أخرى كما ينوه بحرصه على العدل واظهار الحق فى الموقف ٠

وذلك أنه بعد أن رأى الملك فى منامه البقرات الســبع العجاف يأكلن السبع السمان ، والسنبلات السبع اليابسات يلتففن حـول السبع الخضر فيحطمنهن ، وقد عرض هـذه الرؤيا على الكهان والعلماء فلم يوفقـوا الى فهـم مدلولها ، فأشار عليه رفيق يوسف فى السجن بأنه يعرف شخصا سجينا هو أعلم النـاس بتفسير الأحـلام ، وطلب أن يمـكنوه من الوصول اليه ، وعرض على يوسف الرؤيا ، فأخبره بحـديث العالم الواثق أن هذه الرؤيا بالغة الخطورة ، حيث تتضمن أنه ستأتى على مصر سنوات سبع حافلة بخير ما تنتجه الأرض، ثم تعقبها سنوات سبع شديدة الجدب والقحط ، وأن هـــذه السنوات الجدب ستبتلع ما تنتجه السنوات الخصيبة ، وذهل الملك من هذا فاستدعى على عجـل هـذا الذى فسر الرؤيا ، ولكن يوسف رفض أن يخرج من السجن الا اذا ثبتت براءته مما ألحقه النساء بسمعته وخلقـه من أذى بغير حق ، وذلك فى قوله تعالى :

(وقال الملك ائتونى به ، فلما جاءه الرسـول قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ان ربى بكيدهن عليم) (١٥) ٠

ومن أول ما يشـهد به القرآن لفرعون يوسـف أنه لم يغضب من تأبى يوسف عـلى اسـتدعاء الملك اياه ، فحقا ان استدعاء الملك اياه لم يكن أمرا ملكيا مما يجب تنفيذه دون

---

(١٥) ٥٠ سورة يوسف ٠

مراجعة ، وانما كان رغبــة فى الاحســان الى يوسف جزاء اهتدائه الى ما لم يهتد اليه أحد غيره ، وحقا ايضا أن رفض يوسف لم يكن عصيانا لأمر الملك ، وانما كان التماسا لاظهار الحق وهو براءته من كل ما نسب اليه ، ولكن مع كل ذلك فان نفس أى ملك عادى يثير حفيظتها عدم الانصــياع الفــورى لأمرها مهما تكن الدوافع والأسباب ، ولو أن ملكا عاديا قدم الى شخص جائزة أو مكافأة أو احسانا فرفض هــذا الشخص ما قدمه الملك لعــد الملك ذلك ليس عصيانا فحسب ، وانما اساءة أو استخفافا ، وفي مثل حالة يوسف فان أيسر ما كان ينتظر من سجين مثله ملقى في السجن كأى متاع لا يدرى به أحد أن يفرح بهذا التكريم الذى لم يكن يحلم بأيسر منه ، ثم قد يلتمس من الملك بعد مثوله بين يديه أن يعمل على رفع الظلم عنه باظهار براءته ، ولكن يوسف يرفض تكريم الملك واحسانه بالصورة التى أرادها الملك ، والتى لــم تكن فى أغلب الظن تتجاوز في تفكير الملك أن يعفو عنه فيحرره من السجن ، ثم يدفع اليه ما يعينه على أن يهيىء لنفسه معيشــة رخية ، ولكن نبيا كيوسف لابد أن يؤثر اظهار الحق على أى متاع دنيوى ، ومن اظهار الحق تبرئته وتطهيره مما ألصق به ٠

ولكن الشاهد ليس في موقف يوسف فانه أمر متوقع ، ولكن غير المتوقع هو موقف فرعون ، الملك ، بل الاله في زعمه وزعم شعبه ، حيث لم يغضب من تأبى يوســف ، بل استجاب لمطلب يوسف كما أراد يوسف ، واستدعى النسوة كمــا ذكر تفصيله القرآن ، فاذا يوسف برىء كل البراءة ، ومظلوم كل الظلم ، وقد كانت قمة هذا اعتراف امرأة العزيز :

(قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين) (١٦) ٠

وهنا يتجلى الانصاف الواضح من القرآن لفرعون يوسف رغم أنه عدو الله بوصفه مشركا به حيث انتقــل فرعون من

---

(١٦) ٥١ سورة يوسف ٠

مرحلة تقديم المكافأة ليوسف الى مرحلة كبرى ، هى الرغبة فى الاستعانة بيوسف ، واصطفائه على كل المقربين والأعوان، ففى المرة الأولى كان تعبير القرآن :

(وقال الملك ائتونى به) ·

أما بعد ظهور براءته فكان التعبير :

(وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى) ·

بمعنى أجعله خالصا لى ، لا ينشغل بغير استعانتى به وسيكون موضع سرى وثقتى ، مما يوحى بأنه سيكون الرجل الاول بين معاونى الملك والمصطفين لديه ·

وتعبير القرآن يشير الى أن الملك انتقل فى تقدير يوسف الى مرحلة ثالثة أعلى بعد أن اجتمع به وتحدث معه ، وذلك فى تعبير :

(فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين) ·

فقد استدعاه ليفرغه للاستعانة به فى شئون الملك ، ولكنه لم يكن يتوقع أن لديه ما لديه من حكمة وعلم ودقة فى تقدير الأمور واستكشاف وجه الصواب فيها ، وأغلب الظن أن ما بهر الملك من يوسف هو رؤيته للمستقبل ودقة آرائه وتوجيهاته ازاء هذا المستقبل الخطير، فقد كان مصدر اعجاب الملك بيوسف أولا هو احساسه بصواب تفسيره الرؤيا التى رآها ، ولكنه حين اجتمع به أخذ يوسف من باب صدق النصح يعرض عليه ما يراه من تنظيم شئون الزراعة والتوسع فيها الى أقصى حد ممكن فى السنوات السبع التالية بصب الجهد كله فى زراعة القمح ليمكن تخزينه ، دون غيره من الفواكه والخضروات التى تستهلك فى أوقاتها ، ثم كيفية تخزين القمح بعد حصاده ، ثم كيف تنظم الاستفادة من هذا فى السنوات العجاف التالية ، وهكذا مما لم يكن أحد قد فكر فيه على أهميته ، لأنه أمر طارىء ، بل هو محض توقع لأمر لم يزاولوه من قبل ، ولم يخطر لهم على بال ، فلابد أن يبهر

الملك بمن لديه آراء ومعلومات يعتمد عليها ملكه فى أخطر كارثة تواجهها مملكته ٠

ولكننا فى الجانب الآخر الذى استطاع الملك أن يتغلب عليه من العوامل النفسية والاجتماعية التى تحيط بموقفه ، والتى تبدو واضحة اشارة القرآن الى انصافه فيها ، والتنويه ضمنا بموقفه المحمود ازاءها ، نجد من أبرزها ما يلى :

١ ــ العدل : حيث طلب يوسف من الملك أن يعيد التحقيق فى قضيته مع النسوة ، والنسوة لم تكن عاديات ، أو من العامة ، وانما كن امرأة العزيز ، وهو الوزير أو الوالى الذى يلى الملك كما يشير الى ذلك لقبه ، وكذلك صواحبها اللاتى قطعن أيديهن ، فهن بحكم صلتهن بامرأة العزيز لابد أن يكن من مستواها الاجتماعى أو القريب منه ، ومعنى ذلك أن أزواجهن كانوا من علية القوم وقادتهم ، فالملك حين يعيد التحقيق فسيكون ذلك صدمة لملأ من علية القوم ورؤسائهم ، لا لأن نساءهم سيظهرن فى صورة مشينة مخزية فحسب ، وانما مجرد وضعهم ووضع نسائهم فى مستوى عبد رقيق سجين مهين ، لا كرامة له فى شخصه لأنه سجين مذنب فى نظر الناس أو هو متهم بذنب على الأقل فوق كونه عبدا، ولا كرامة له فى المجتمع ، حيث لا نسب له ولا شيعة ولا قرابة اطلاقا ، حيث انه عبد مشترى ومجلوب من شعب آخر ، مجرد وضعهم ووضع نسائهم فى مستوى شخص كهذا ليحقق مع نسائهم ومعهم ومع هذا الشخص على قدم المساواة أمر غير مقبول ولا مستساغ ليس فى ذلك المجتمع السحيق فحسب ، وانما فى كل المجتمعات مهما تفاوتت درجة النفور من هذا بين المجتمعات ٠

وقد كان موقف الملك ولا شك مواجها لهذه المصاعب ، ولم يكن غريبا فى منطق المجتمعات أن يستنكر من عبد سجين مهين أن يضع رأسه فى مستوى علية الأمة ، خصوصا وأنه يثير موقفا شديد الحساسية ، حيث يتعلق بالأعراض ، ليس

عرض امرأة واحدة ، وانما عرض جمع من النسوة أيضا لازالت آثار اتهامهن بادية فى جراح تمزيق أيديهن كما هو معروف فى القصة ٠

ولكن فرعون يوسف بلغ من الحزم فى عدله أن وضع كل هذه العوامل النفسية والاجتماعية وغيرها تحت قدمه ، ومضى فى تحقيق العدل ، والحرص على اظهار الحق مهما تكن الظروف ، وتعبير القرآن يوحى بأنه باشر التحقيق بنفسه ، اذ كان التعبير :

(قال ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه) ٠

بل ان صريح التعبير يوحى بما هو أبعد من ذلك ، يوحى بأن الملك وجه الى النسوة جميعا تهمة تحريض يوسف على الفساد ، مع أن التى فعلت ذلك واحدة فحسب ، وكأنه جعل من آثار الجراح فى أيديهن دليل اتهام ، فالواقع أن النسوة لم يراودن يوسف عن نفسه وليست تفاصيل الأحداث هنا هى المهمة ، وانما المهم هو هذا الموقف الرائع من فرعون يوسف فى حرصه على العدل واظهار الحق ، رغم أن كل الظروف المحيطة به كانت تدعوه الى المجاملة والتحيز ، والى اخفاء الحق ، وليس اظهاره ، وأقصى ما كان ينتظر من مثله حينئذ أن يحاول تعويض يوسف وارضاءه بما يرضيه من عطاء ٠

وقد نوه القرآن بهذا الموقف ، وشهد له ضمنا به ٠

٢ ــ واذا كان الموقف السابق من فرعون يوسف وهو الحرص على العدل واظهار الحق موقفا خلقيا يبعث على التقدير والاكبار فان له موقفا آخر اداريا لا يقل عن موقفه السابق اثارة للاعجاب والاكبار ، وهو موضوعيته فى اختيار الأعوان والمسئولين ٠

وذلك أنه بعد أن فرغ من تحقيق العدل واظهار الحق فى قضية يوسف ، تبين له أن يوسف شخص غير عادى ، انه

يحمل من العقل والعلم والرأى فوق ما يحمله من الأمانة والعفة والخلق ما يملأ النفوس اجلالا واكبارا ٠

ولكن نفوس ذوى السلطان وخصوصا الملوك لا يملؤها شيء واحد ، ولا أشياء معدودة ، وانما تتزاحم فيها عوامل عديدة ، كلها مشدود الى المحور وهو السلطة ومتأثر به ، ومهما يكن من رضاه عن يوسف أو اعجابه به ، فان ذلك لا يغير من واقع آخر ، هو أن يوسف عبد رقيق اشتروه من بائعيه **(بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين)**

وهو موقف يلاحق صاحبه فيما يلاحقه مدى الحياة ، ومن هذا الواقع الآخر أن يوسف قد لوثت سمعته ، وظل سجينا بضع سنوات ، ومهما ظهرت براءته ، فان بعض النفوس قد لا ينمحى منها الأثر السابق كل المحو ، خصوصا وأن يوسف لم يسجن فى حقيقة الأمر لذنب ، فقد ثبتت براءته بعد شهادة الشاهد الذى شهد ضد امرأة العزيز من أهلها ، وعرف زوجها ذلك ، وطلب منها أن تستغفر من ذنبها كما فى القرآن ، فلم تكن حينئذ جريمة تستوجب ادخاله السجن ، وهنا ينبغى ابراز ملحوظة لعل اتجاه المفسرين لم يجعلها واضحة ، فان اتجاههم يميل الى أن امرأة العزيز هى التى أوحت الى زوجها أن يدخل يوسف السجن رغم براءته ، مع أن تعبير القرآن لا يوحى بهذا ، فان تعبير القرآن :

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) ٠

فكأنه كان هناك اتفاق فى الآراء على أن المصلحة تقتضى وضع يوسف فى السجن ، ومتى كان هذا ؟ لو كان هذا عقب مراودة امرأة العزيز اياه لكان احتمال أنها هى التى طلبت ادخاله السجن هو الأقوى ، ولكن بعد ذلك حدثت قصة النسوة اللاتى أشعن أن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، ثم قصة كيد امرأة العزيز فى جمعها اياهن فى بيتها ، ثم مفاجأتهن بباهر جمال يوسف حتى مزقن أيديهن بالسكاكين

اللاتى كن يعمدن به فى أيديهن كما دبرت امرأة العزيز وهن مسحورات بجماله وفتنته ، ثم بعــد ذلك ، وليس قبــل ذلك اجتمع رأى الملأ والسادة من القوم على وضع يوسف فى السجن ولهذا كان العطف بلفظ (ثم) التى تفيد التراخى ، ولو كان وضعه فى السجن مترتبا على موقف امرأة العزيز لكان العطف بالفاء وليس بثم ، كأن يقال فبدا لهم ٠٠ وليس ثم بدا لهم ٠

وكأن قصة امرأة العزيز ، ثم قصة تمزيق أيدى النسوة المفتونات به جعل يوسف حديث المدينة ، وملا نفوس الرجال خوفا على نسائهم من الافتتان به ، فاصبح يوسف نفسه قضية اجتماعية ، وليس مجرد طرف فى قضيه مع امرأة او نسوة وكأنهم اجتمعوا لمناقشة هذه القضية ، قضيه خطورة يوسف على النساء ، وعــلى استقرار الأسر ، فانتهى رأيهــم الى أن المصلحة العامة رغم براءة يوســف تقتضى حجب فتنتــه عن النساء ، وذلك بوضعه فى السجن حتى تهدأ هذه الفتنة ٠

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) ٠

أى أنهم بعد تأكدهم من براءته رأوا أن المصلحة العامة تقتضى وضعه فى الســجن الى حين ، ومن الطريف انه تكرر شىء من هذا فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حيث كان بالمدينة شاب بلغ من الوسامة والحسن حدا تخشى معــه الفتنة على النساء ، وكأن شيئا من هذا بدأ يشيع فى المدينة ، فاستدعاه عمر ، وأخذ يتفحص جماله ، فخيل اليه أن جماله يتركز فى شعره ، فأمره فقص شعره فازداد شــكله حسنا ، فظن أن عمامتــه هى التى تزيد من حســنه ، فأمره فخلعها فازداد جمالا ، فأمر به فنفى عن المدينة ســنة ،حتى ينصرف الناس عن أمره ، ويخبو حديث فتنته ٠

والذى يعنينا من الملحوظة السابقة أن تعبير القرآن كما هو واضح يوحى بأن وضع يوسف فى السجن لم يكن بسبب

اتهام امرأة العزيز اياه ، وانما كان بسبب قضية اجتماعية عامة ، اتفقت آراء أولى الأمر فيها على ضرورة وضع يوسف فى السجن ، وكان يوسف يقول للملك عن طريق رسوله اذا كنت بريئا وسترى ذلك بنفسك فلماذا يضعوننى فى السجن ؟

ولكن الذى نريد أن نصل اليه أن الملك فى رضاه عن يوسف ، وفى تفكيره فى الاستعانة به كان يواجه ويتحدى مصاعب عديدة ، منها موقف الملأ والسادة الذين رأوا وضع يوسف فى السجن ، وفى مقدمتهم بطبيعة الحال أزواج النسوة اللاتى كن فى أحداث القصة ٠

واذن فالحقائق التى كان ينظر الى يوسف حينئذ من خلالها :

١ ـ انه عبد رقيق ، وعلى أحسن الفروض أنه عبد سابق اذا افترضنا أن سيده كان قد أعتقه ، ومهما تكن شخصية العبد ، فلا شك أن النظرة اليه تحمل مهانة اجتماعية كبيرة ٠

٢ ـ أنه خريج سجن قضى فيه أمدا غير قصير ، بل ان الملك حين فكر فى الاستعانة به كان لا يزال فى السجن ، والذى فى السجن أو الذى كان فى السجن مهما يكن بريئا ، ومهما يكن نبل موقفه فلا شك أن السجن يلقى عليه من النظرة الاجتماعية العامة اليه ظلالا من المهانة ولو من باب قول الشاعر :

قد قيل ما قيل ان صدقا وان كذبا
فما اعتذارك من قول اذا قيلا

٣ ـ كون يوسف غريبا لا يستند الى أى انتماء من قبيله أو قرابة ، فلا شك أن هذا يقلل من منزلته الاجتماعية مهما كانت شخصيته ٠

٤ ـ مخالفة يوسف لهم فى الدين ، حيث أعلن فى السجن براءته من الشرك الذى يدينون به ، ولابد أن هذا

كان معروفا عنه ، فان مثل يوسف لا يمكن أن يخفى دينـه وعقيدته ولكن الملك تحـدى كل هـذه العـوامل النفسـية والاجتماعية نحو يوسف حيث كان فى نفسه ولا شـك عامل أقوى منها جميعا ، وهو الرغبة فى اختيار المعاون الكفء ، وقد تأكد من كفاية يوسف لما يريد ان يسنده اليه من المناصب والمسئوليات ، والملك فى هذا الموقف كان يمثل قمـة الأمانة فى حمل المسئولية ، فان مثله كان ينتظر منه أن يبحث عن قريب يسند اليه المنصب ، أو عن شخص ذى جاه يدعم بجاهه أركان عرشه ، أو عن منـافق يرضى بنفاقه وتملقـه نزعة السلطان ، ولكن فرعون يوسف كان له هدف واحد ، هـو البحث عن الأكفأ للمنصب ، لذاته وشخصه ، دون اعتبار لأية عوامل أخرى لا تؤثر على كفاية الشخص فى أدائه لعمله ·

ومن الواضح أن القرآن حينما يبرز مثل هذا الموقف ، لا يسـوقه عـلى أنه حـدث فردى أو وقتى فحسب ، وانمـا على أنه نموذج يحتذى ، فقد كان هـذا المـوقف من فرعون يوسف مثالا لكل ذى سلطة فى اختياره معاونيه فى السلطة ، وفى جعله مصلحة رعيته فوق كل اعتبار ، من حيث البحث عن خير من يحقق لها هذه المصلحة ·

ومع أن فرعون موسى لم يكن حينئذ مؤمنا بالله ، بل كان مشركا به ، وبهذا فهـو من أبغض أعداء الله الى الله مع ذلك فان الله سبحانه يسوق عنه فى كتابه هذه الشهادة الضمنيـة فى التنويه بعدله ، وبحسن ادارته وحرصه على مصلحة رعيته فى اختيار أكفأ من يحقق لها مصلحتها ·

فهذا أيضا مثال من أمثلة انصاف الخصم فى القرآن ·

٣ ـ شاهد امرأة العزيز :

ومما نوه به القرآن من مواقف خصومه المحمودة ، موقف الحق الذى وقفه شـاهد امرأة عزيز مصر ، مؤثرا اظهـار الحق على كل اعتبارات القرابة والجاه والوطن وغير ذلك ،

وقد نوه القرآن بموقفه هذا الكريم ، رغم أنه كان من أعداء الله بوصفه مشركا بالله ممن يعبدون غير الله ، كما سجل القرآن هذا فى حديث يوسف عليه السلام الى صاحبيه فى السجن عن ديانة المصريين حينئذ فى قوله :

(يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) (١٧) ٠

وقصة يوسف معروفة فى القرآن ، ومن أحداثها هذا المشهد الكريم لهذا الشاهد ، ويمكن أن نتصور أهم تفاصيل هذا المشهد من خلال نص القرآن كما يلى :

يوسف كان قد حباه الله بجمال فاتن يصعب على اية امرأة ان تصمد أمامه وقد فتنت به المراة التى يعيش فى دارها ، وهى امراة الرجل الذى يحتل منصبا كبيرا ٠ يبدو أنه كان أكبر منصب بعد الملك ، ولم تمتن به وحدها ، وانما فتن به كل من رأينه ، حتى ان رؤيته سحرت الناظرات اليه فمزقن أيديهن بالسكاكين التى يعملن بها دون ان يشعرن ، ولكن امرأة العزيز لم تره مرة واحدة مثلهن ولا مرات فحسب ، وانما تراه مصبحة وممسية وفيما بين ذلك ، وأغلب الظن أنها قاومت فتنته أمدا طويلا ، وقاومتها مقاومة شديدة فلم تستطع ، وأغلب الظن أيضا أنها حينما بدات تضعف أمام فتنته لم تضعف مرة واحدة ، ولم تعمد الى مراودته فجأة ، وانما أخذت كأسلوب النساء فى الاغراء تبدى له المودة بالتدريج ، وتبدى الاهتمام بأمره ، ثم اظهار الاعجاب به ، ثم اظهار الاستسلام السلبى له بالتدريج أيضا ، حيث تظهر له بوضوح دون أن تفصح بلسانها أنها مستعدة لمبادلته العشق ، وهو استسلام سلبى بمعنى أنه رغم

---

(١٧) ٣٩ وما بعدها سورة يوسف ٠

أنها هى التى تدعوه اليها الا أنها تريد أن يكون هــو الذى يتقدم اليها وهو الذى يعلن صراحة عن تقدمه هذا ، لتبــدو وكأنها لم تدعه ولم تفعل شيئا ، وانما هو الذى تقدم اليها وهو الذى ينسب اليه دونها كل شىء ، بل انها تبدى حينئذ تمنعها وتأبيها مع أنها هى الداعية بلسان حالها ، والــواقع أن هذه ليست طبيعة المرأة وحدها ، وانما هى طبيعة الأنثى فى سائر الحيوان ، وهى طبيعة واضحة فيما تبديه كل اناث الحيوانات فى المعاشرة بين اناث الحيوان وذكورها ٠

ولكن الذى يعنينا من هذا أن ملابســات القصــة توحى بوضوح ان امرأة العزيز لم تكن بغيا تريد اشباع شهوتها ، ولم تدن تبحث عن أى رجل يحقق لها ذلك، وانما وقعت تحت تأثير عشق لفتنة طاغية تحتاج مقاومتها الى طاقة هائله من الصلابة والصمود ولم تكن لديها هذه الطاقة ، وأهم مأخـذ يؤخذ عليها أنها كانت تســتطيع ابعاد يوســف عنهــا وعن عينيها ، ولم يكن ذلك ميسورا كل اليسر لعاشــقة مفتونة ، ولكنها كانت تستطيعه لو صدقت عزيمتها فى المحافظة عــلى شرفها وعفتها والأمانة لزوجهــا ، ومن هنــا تبــدو حــكمة الاسلام فى تحريم الخلوة بين الرجل والمرأة ، وفى الحديث الشريف :

(ما خلا رجل وامرأة الا وكان الشيطان ثالثهما) ٠

ولكن امرأة العزيز استسلمت لعواطفهــا وغريزتهــا ، وحين وجدت يوسف معرضا عن كل ما ألمحت به اليــه عمدت الى التصريح الفاجر ، فاذا هى تتهيأ بأبهى ما تتهيأ به المرأة لزينة النوم ، ثم تدعو يوسف الى غرفة النوم ، وتغلق وراءه الباب ، ثم تدعوه ليشاركها الفراش ، ولا شك أن يوســف قد أحس بهذا الاغراء ، وشعر بما هيأته له شعورا واضحا ، ومن البدهى أن يتخيل برجولته حــدوث ما يدعــو اليه هذا الاغراء ، ولكنه ما ان تخيل حدوث هذا حتى ثارت فى نفسه كل عوامل النفور من هدم كل ما يعتز به من قيم راسخة فى

نفسه ، ورثها وتربى عليها ، ولم يطل تردده أو استماعه ، وانما مضى شامخا نحو الباب منصرفا وفى نفسه ما فيها .

وامرأة العزيز لم تكن فى اغلب الظن تتوقع ان يصمد يوسف أمام اغرائها ، خصوصا وأنها سيدته ، ولذلك فوجئت بهذا النفور والتعالى منه ، فامتلأت نفسها غضبا وثورة لأنوثتها وكرامتها الجريح ، ولا شىء يهين المرأة ويثيرها كهذا الموقف ، ولعلها لجأت حينئذ الى آخر خيط فى أملها ، وآخر قطرة فى ماء وجهها فاندفعت وراء يوسف المنطلق نحو الباب ، وقبضت على ثوبه بكل ما لديها من قوة ، وهى موقنة بأن يوسف بكل ما لديه من شباب وفتوة لابد ان يبادلها الرغبة الجارفة فى هذا الموقف مهما أظهر من تمنع وتعفف ، ولكنها لم تجد من يوسف الا مواصلة اندفاعه نحو الباب بكل ما لديه من قوة ، ولم يتحمل ثوبه مقاومة قوتين ، احداهما الى أمام والأخرى الى خلف فتمزق فى قبضتها ، بينما كان يوسف قد فتح الباب واندفع خارجا وهى لا تزال ممسكة بثوبه من خلفه ، ولكنهما يفاجآن بما لم يكن لهما فى حسبان، يفاجآن بزوجها قادما وليس بينهما وبينه الا خطوة أو خطوات وهو يراهما أمامه بهذه الصورة ، ولم يكن أقل منهما مفاجأة وذهولا .

وقبل أن يفيق الزوج من ذهوله وقبل أن يسأل كانت زوجه قد أعدت الجواب ، واذا هى تصرخ مستغيثة به لينقذها من هذا الذى يتهجم عليها يريد العدوان على عرضها، طالبة منه أن يوقع به أشد العقاب ، وينظر الزوج بطبيعة الحال الى عبده نظرة استنكار لجحوده الاحسان ، وخيانته الأمانة ، ولم يطق يوسف هذه النظرة التى تتجاوز الاهانة الى تحطيم كل القيم التى يحملها والتى يرى نفسه لا يساوى شيئا بدونها ، فلم يجد مفرا من أن يدافع عن نفسه باعلان الحقيقة ، وهى أن امرأته هى التى راودته عن نفسه فلم يجبها الى ما طلبت فحدث هذا المشهد الذى يراه ، ولم يستطع الزوج أن ينزع من نفسه ثقته فى زوجه بهذه السهولة ، ولم

يتصور أن شابا فتيا فى مثل وضع يوسف يتأبى على الاستجابة لدعوة امرأة اياه الى نفسها فكذب يوسف ، واخذ ينحى عليه باللوم والوعيد ٠

وهنا يدخل أحد أقارب المرأة ، ويبدو انه صديق لزوجها ، أو ممن يربطهما عمل مشترك ، مما يدعوه الى دوام الصلة به ، وازدادت المرأة شعورا بالطمأنينة ، وبثبات موقفها ، حيث لا تشك فى أنها وجدت عضدا من أقاربها يعينها على تدعيم موقفها وتكذيب يوسف فى دعواه أو دفاعه ، والثلاثة غارقون فى ذهولهم، الزوج والمرأة ويوسف، كل منهم دهمه الموقف الذى هو فيه ، وملأه انفعالا من رأسه الى أخمص قدميه ، وكل ما يصدر عنه انما يصدر من هذا الانفعال ٠

واتجهت أنظار الثلاثة الى الصهر القادم ، وكل منهم يعلق أملا عليه فى أن يكون عونا له فى مأزقه ، ولا شك ان المرأة كانت أكثرهم اعتمادا عليه ، بحكم أنه قريبها ، ويهمه الحرص على سمعتها فيما يتعلق بعرضها، لأن المساس بعرضها مساس ضمنى به أيضا ، ولا شك أيضا أن يوسف كان أقلهم أملا فى هذا الصهر القادم بسبب هذه الملابسة نفسها ٠

ومهما يكن من شىء فقد أصبح الصهر القادم حكما تتعلق به أبصار الجميع ، سواء الذى يرجو منه الانحياز اليه أو الذى يخشى منه التحامل عليه ولكنه خيب ظن الجميع ، فلا هو انحاز ، ولا هو تحامل، وانما استخدم عقله وبصيرته ، وكأنه استخدم أحدث ما تلجأ اليه الوسائل الحديثة اليوم فى التحقيق الجنائى ، بكل ما يتطلبه تحقيق آثار الجريمة كالمعاينة والطب الشرعى ٠

ولكن أعظم ما فى موقف الصهر القادم فى حقيقة الأمر لم يكن عقله أو مسلكه ، وانما كان قصده الى اظهار الحق ، وتبرئة المظلوم ، فقريبته تدعى أن يوسف تهجم على عرضها يريد هتكه ، وأن أثر مقاومتها اياه بادية فى تمزق ثوبه ، ويوسف يدعى أنها هى التى راودته عن نفسه فامتنع، فالمرأة

لها حجة ظاهرة ، هى تمزق ثـوب يوسف ، بينما كل حجة يوسف هى الصـدق البادى فى لهجته ، والزوج يميـل الى تصديق امرأته ، وكان المتوقع ألا يقـل الصهر القادم عنـه ميلا الى تصديق قريبته ، والتماس كل ما يؤيد دعواها دون مناقشة ولكن هذا الصهر كان أعظم من كل توقع ، فقد وضع نشدان الحق بين عينيه ، ومن يلتمس الحق مخلصا لابد أن يصل اليه •

وقد هداه التماسه الحق الى ألا يأخذ الأحداث والألفاظ على علاتها ، بل يبحث عن الحق لذاته دون الانخداع بظاهر الملابسات ، وقد وجد أن الخيط الذى يمـكن أن يوصله الى الحقيقة هو تمزق ثوب يوسف ، فهو دليل مادى أمامه ، وهنا تبدو عقليته الفذة ، فلم يخدعه ادعاء قريبته أن التمزق كان نتيجة دفاعها عن نفسها ، بل فكر فى تمثيـل الجريمة عـلى الطبيعة للطابق الوضع الطبعى للجريمة على الواقع المشاهد، والذى تدعيه قريبته ، وهذا التمثيل هو ما يزاول اليوم فى تحقيق الجرائم وحين تمثل الوضع الطبعى لهذه الجريمـة فى نفسه وجد أن المرأة حين تدافع عن نفسها فتمزق ثيـاب مهاجمها لابد أن يكون تمزق الثوب من الأمام لا من الخلف ، وبمعاينته ثوب يوسـف تبين أن التمزق موجـود فى الخلف فقط ، ولا يوجد من الأمام أى تمزق أو أثر للمقاومة • واذن فالمرأة كاذبة فى دعواها ، ويوسف هو الصـادق فى دفاعه ، وهذا هو الحق الذى وضـح فى نفس الصهر القادم ، فهـل يتردد فى اظهاره خوفا على سمعة قريبته ، وخوفا أيضا على مشاعر صهره أو صديقه الزوج ؟ ولكن حرصه عـلى اظهار الحق وتبرئة المظلوم كان أقوى من أى عامل آخر ، فلم يتردد فى اعلان الحق الساطع الذى لا يترك مجالا للمماحكة ، وهو أن يوسف برىء ، وأن قريبته هى الآثمة الظالمة •

ومع أن صهر العزيز كان فى موقفه هذا البالغ النزاهة والتجرد للحق يمثل الحكم والقاضى الا أن القرآن ساقه عـلى

أنه شاهد ، باعتبار أن أهم ما فى موقفه لم يكن الحكم ، فقد كان غيره يمكن ن يصدر حكما سـواء أكان حقـا أم باطلا ، وانما كان أهم ما فى موقفه هـو كشف وجه الحق فى جـلاء حتى كأنه شاهد وقوع الجريمـة بعينيه ، وحتى جعـل كل حاضر يشعر هذا الشعور ، وهـذه صـفة الشاهد ، وليست صفة القاضى ، على أنه لم يصدر حكما محـددا على شـخص بعينه ، فلم يقل أى الطرفين على حق ، وأيهما على باطل ، وانما جعل آثار الجريمة هى التى تنطق بالحق، حيث يقول :

(ان كان قميصه قد من قبل فصـدقت وهـو من الكاذبين ، وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) (١٨) .

فكان موقفه موقف صدق وحق ، يشهد له به ، ويستحق أن ينوه به فيه .

ومع أنه كان عدوا وخصما لله بعقيدته المشركة ، الا أن القرآن كان أعظم المنوهين بموقفه هذا الكريم .

وهذا أيضا مثال من أمثلة انصاف الخصم فى القرآن .

٤ ـ مفكر قريش :

ومفكر قريش هو شخص لم يحدد القرآن اسمه ولا صفته المكنى بها كأبى لهب عم الرسول صلى الله عليه وسلم مثـلا ، ولكن كل الملابسات تؤكد أنه من سادة قريش ، فالآيات التى نزلت فى شأنه نزلت بمكة فى فجر الاسلام ، فلم يكن الاسلام قد اتسع نطاقه بعد ، وبالتالى لم يكن الذين تصدوا لحـربه والصراع معه قد تجاوزوا نطاق مكة ، وكل الملابسات فيما ساقته الآيات عن وضعه الاجتماعى فى مكانته وماله وبنيـه تشير الى أنه الوليد ابن المغيرة ، فمن وضعه هـذا فى الآيات الكريمة :

---

(١٨) ٢٦ وما بعدها سورة يوسف .

(ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد) (١٩) ·

فهذه الملابسات كانت تنطبق على الوليد بن المغيرة ، ويرجح هذا أشارة أخرى فى القرآن على انفراده · فى مكة بمنزلة فريدة فى قوله تعالى :

(وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (٢٠) ·

وكانوا لا يشكون فى أن المقصود بالعظيمين ، الوليد بن المغيرة عظيم مكة ، عروة بن مسعود الثقفى عظيم ثقيف ، لأنهما اللذان كان المشركون يتحدثون بأن أحدهما كان هو الأولى من محمد بأن يختاره الله رسولا ينزل عليه قرآنه لو كان هذا القرآن من عند الله ، ولذلك لم يشكوا فى أن المراد بآيات سورة المدثر هو الوليد ·

ومهما يكن من شىء فان الأشخاص لذاتهم ليست لهم أهمية كبيرة فى حديث القرآن عنهم ، وانما الأهمية تتركز فى أنهم نماذج وأمثلة يضربها القرآن ، كما يضرب الأمثال للناس فى كل مجال ·

ولكن المهم أنه عدو من أبرز أعداء الله ، وأشدهم عنادا له ، وبالتالى فهو من أبغضهم الى الله ، ومع ذلك فحين يتحدث عنه القرآن لا يطمس مزاياه ، بل يبرزها ابرازا واضحا ، وكأنها شهادة له بتفوقه على سائر مجتمعه فى هذه الميزة ·

وقد كانت الميزة التى أبرزها القرآن عنه هو عمق تفكيره ، وبراعة تدبيره ، وكأنه يصفه بالعبقرية ، رغم

---

(١٩) ١١ وما بعدها سورة المدثر ·

(٢٠) ٣١ سورة الزخرف ·

أنها عبقرية موجهة ضد الله ورسوله وقرآنه ، وقد تركزت في محاربة القران بالذات ·

وذلك أن القرآن كما أنه لسان الاسلام وحصنه فى جانب المسلمين ، فانه كان العدو الأكبر ، والخطر الأعظم بالقياس الى أعدائه ، حتى مع وجود شخص النبى صلى الله عليه وسلم ، فان تأثير شخص النبى على عظيم أثره كان محصورا ومحدودا فى محيط من يلقونه ، ومن ينقلون عنه ، ولكن النقل عنه فى القبائل كان مصحوبا بابدعايات وأكاذيب مضادة نشرها عنه أعداؤه ، من نحو أنه شاعر أو كاهن أو مجنون ، والذين لا يعرفونه لا يجدون مفرا من تصديق ما يقال عنه من سوء ، و يبعثهم على الشك فيه على الأقل ، أما القرآن فهو كلام متميز عن كل ما يسمعون من جيد الكلام شعره ونثره ، فحين ينزل شيء منه يتناقله الناس بصرف النظر عن ايمانهم أو كفرهم ، وانما يتناقلونه لجودته كما يتناقلون كل كلام جيد من شعر أو نثر ، ولكن آذانهم تبهر بسماع هذا القرآن كما لا يبهرها كلام آخر ، واذا هم يزدادون حرصا على سماعه وتناقله حتى وان لم يؤمنوا ، ولكن سماعهم اياه يدعوهم بالضرورة الى التساؤل عن مصدره ، وعن هدفه، وعن مدى صدقه ، وغير ذلك مما يجعله يزداد انتشارا ، وستنتشر معه بالضرورة أيضا مبادئه التى يدعو اليها ، وسواء آمنوا بها أو لم يؤمنوا فانهم يكونون قد فكروا فيها ، ووازنوا بينها وبين ما هم عليه ولو دون أن يقصدوا ، وكلما فكروا فى هذه المبادىء ازدادوا قربا منها ، وازدادت نفوسهم تهيؤا لها ، وفى كل هذا يزداد القرآن انتشارا ، ويزداد نطاقه اتساعا ، لأنه لا يحتاج الى راوية يخصص لروايته كرواة الشعراء ، ولا يحتاج الى زاد يزود به راكب لينشره بين الناس ، ولا يستطيع عدو أن يحاصره فى مكان لا يخرج منه ، كما حاصروا النبى والمؤمنين به فى مكة خوفا من أن ينشروا دينهم خارجها ، ولو وجدوا وسيلة لحصار القرآن لكانوا أحرص على حصاره من

حصارهم الرسـول ، ولـكن كيف يحـاصرون ألسنة النـاس وآذانهم وعقولهم ومشاعرهم ؟

ومخطىء من يظن أن أعداء الاسلام الأولين كانوا سذجا أو حمقى أو محدودى التفكير ، فانهم كانوا ولا شك أسـبق الناس الى معرفة صدق محمد ودينه من جهـة ، والى توقعهم انتشاره وانتصاره من جهة أخرى ، والا لما عنـوا أنفسـهم بمحاربته ومجاهدته ، وأوضح مثال لذلك محاولتهم الجاهدة لمنع النبى وتابعيه من الهجرة خارج مكة ، فقـد كان عامة الناس يرون فى بعد محمد عن مكة راحة لها وابعادا لخطره عنهـا ، ولـكن سـادتها وفى مقـدمتهم الوليـد بن المغيرة وابن أخيـه عمرو بن هشـام أبـو جهـل وغيرهما كانـوا أبعد نظرا وأفهم لحقيقة دعوة محمد ، حيث توقعوا أن تنتشر وأن تعلو وتنتصر ، فبذلوا كل جهدهم لحصارها داخل مكة ، ومنعها من الانتشار خارجها ، وقد اسـتخدموا فى حـربهم هذه الدعوة كل وسائل الحرب النفسية كالدعايات العـديدة المتنوعة ضده ، والحرب الاقتصادية كالمقاطعة الشاملة القاتلة التى فرضـوها عـلى النبى وذويه ، والحـرب العسـكرية المعروفة ، ولم تأت هذه الحروب عفوية ، وانما أداروها عن دراسة وتفكير وتدبير فى دار الندوة المشهورة ٠

ولكن الذى حيرهم ، ولم يجدوا وسيلة لحربه أو خنقـه هو القرآن ، وهو مع ذلك أشد ما فى الاسلام خطورة عليهم ، ولا شك أنهم فكروا فى هذا كثيرا ، وتدارسـوه وتناقلوه ، وظنوا أخيرا أنهم اهتدوا الى وسيلة لحربه ، فأخذوا ينشرون بين الحجيج ليعودوا به الى قبائلهم ، وبين المسافرين وأفراد القوافل وغيرهم أن قرآن محمد ليس الا شـعرا أو نوعا من الكهانة كالسجع الذى يعرفونه عن الكهان ، وانتشرت هذه الدعايات بين القبائل ، فاذا الناس يستمعون اليها ساخرين منها، لأنه لا يوجد شبه بين القرآن وما تصفه به هذه الدعايات بين القبائل ، فلم يفلح شىء من هـذه الحرب النفسـية أو

الفكرية فى أن يصل من نفوس العرب حتى الى مجرد التفكير فيه فضلا عن التأثر به • وازدادت قريش وخصوصا سادتها شعورا بخطر القرآن ، وشعورا بعجزها عن مقــاومته هــو بالذات •

ولكن شــخصا معينا من قريش امتــلأت نفســه ضــيقا بالشعور بالعجز وهو الذى لم يخدله عقله ، ولم تخنه حجتــه فى أية خصومة ، فكيف يستسلم لهذا القرآن الذى اوشك ان يخلب ألباب الناس ويستحوذ على مشاعرهم، والذى يندفع فى كل وجه من وجــوه الأرض كأنه سيل جارف لا يثبت امامه شىء ، وانه ليكاد يزلزل أركان ســيادتهم وبالتــالى أركان زعامته هو ، فلابد اذن من مقاومته ، ومن ايجاد وسيلة لوقف تياره الجارف •

وأغلب الظن ، بل ان تعبير القرآن يوحى بأن هــــذه الفكرة ، فكرة ضرورة ايجــاد وسيله لوقف تيــار القــرآن الجارف سيطرت عليه فى ليله ونهــاره حتى شــغلته عن كل شىء ، وراح يقلب وجوه الرأى فى عقله ، وينقب فى ارجاء فكره عن هده الوسيلة ، ولا شك انه قضى فى هده الدوامة العقلية أمدا غير قصير ، ولا شــك أنه اســتعرض فى عقله العديد من وسائل الحرب والمقاومة لهذا القرآن ، ولكنه حين يتفحصها ، ويقلب وجوه القــوة والضعف فيها يجــد انهــا لا تستطيع أن تصمد فى وجه القرآن ، ولا تنطلى على ذكاء العرب وخبرتهم بفنون الكلام •

وأخيرا ، وبعد أمد غير قصير ، وبعد جهد عقلى غير يسير اهتدى الى السلاح الذى يستطيع حقا أن يحارب به القرآن ، والذى لا تستطيع عقول العرب أن ترفضه أو تجد فيه مطعنا، وكل الملابسات توحى بأنه استفاد فى خطته بأسباب فشــــل الخطط السابقة ، وأهم أسباب فشل الخطط السابقة أنهــا تتهم القرآن بأوصاف يعرف العرب أنها كاذبة ، فاذا وصفوه

بأنه شعر فالعرب اعرف الناس بالشعر ، ومن ثم لا يجوز فى عقل أحدهم وذوقه أن هذا القرآن شعر ، واذا وصموه بانه كهانة ، فان سجع الكهان معروف يتندر الناس به ويتناقلون أسلوبه ، فلا يرتابون فى أن القرآن ليس كهانة .

واذن فلابد من وجود شىء يشترك مع القرآن فى بعض صفاته او تأثيره ليصدق الناس وصف القرآن بهذا الشىء ، وقد وجد زعيم قريش هـذا الشىء وهو السـحر ، فهم ككل المجتمعات يعرفون السحر بفنونه وأنواعه ، ومن أشـهرها تأثيره فى عواطف الناس ، وفى تفكيرهم ، بل وفى أبصارهم، ويتناقلون أمثلة عديدة من هذا ، فبعض السحرة يستطيع ان يحول عاطفة حب لدى شخص نحو شخص آخر فيحول هـذا الحب الى بغض أو العكس ، كما يفعل بعض السحرة أحيانا للتفريق بين زوجين ، وبعض السحرة يستطيع أن يؤثر على تفكير شخص نحو شىء معين فى حبه أو بغضه أو النفور منه ، وبعضهم يؤثر فى رؤية الرائى لشىء أمامه ، كما فعل سحرة فرعون فى جعلهم المشاهدين يرون العصى والحبال حيات .

وهنا وجه الشبه المغلوط بين القرآن والسحر، فهم يرون المشرك البالغ العـداوة لمحمـد يذهب اليـه مفعما بالنقمة والرغبة فى العدوان عليه ، ولكنه ما ان يستمع منه الى هذا القرآن حتى ينقلب فكره ، وتنقلب عواطفه ومشاعره رأسا على عقب ، فاذا هو تابع لمحمد وليس عدوا له ، أو هو على الأقل مسالم له غير ناقم عليه رغم عدم ايمانه به ، وهم يرون العبد شديد الولاء والحب لسيده ، فما ان يستمع الى قرآن محمد حتى ينقلب فكره ، وتنقلب عواطفه رأسا على عقب ، وهم يرون الابن بارا كل البر بأبويه ، ودودا كل المودة لهما، ولـكن بعضهم ما ان يسـتمع الى هـذا القرآن حتى يلتصق بمحمد ودينه معلنا كل العقوق لوالديه والنفور منهما، وكذلك الأخ مع أخيه والصديق مع صديقه وهكذا من كل مايشاهدونه من تأثير القرآن فى سامعيه مما لا يجدون له شـبيها الا فى أعمال السحر .

واذن فليقولوا ان القرآن نوع من السحر الذى يجيده محمد ويبعثه فى الناس فيسلب ممن يصغون اليـه عقـولهم ومشاعرهم ، وهذا ما يجوز فى عقول العرب ولا ينكرونه ، لأنهم يعـرفون أعمال السـحرة ويتنـاقلون أخبـارهم من مقدرتهم على التفريق بين ألصق اللاصقين ، ومن مقـدرتهم على التأثير فى العقول وفى الأبصار ، وحين تنشر قريش هذه الدعاية فلن تحتاج الى أكثر من أن تنشر معها أخبار الذين فرق بينهم محمـد ، وكيف اسـتطاع أن يستلب الزوج من زوجه والأخ من أخيه والابن من والده والصديق من صديقه حين يفرق بينهما بهذا الكلام الذى ينفثه فى أحدهما فيصنع به ما يصنع ، ثم يزعم أن هذا الذى ينفثه كلام الله يوحيه اليه، وحينئذ فقط ستجد قريش آذانا صـاغية لما تقـوله ضـد القرآن ٠

وكانت هـذه فكرة زعيم قريش ، الذى ظل يصـارع عقله ، ويقدح كل زناد فى فكره ، ويقلب كل وجه فى رأيه، حتى وصل الى هذه الفكرة التى لا تحتاج فى كمال نجاحهـا فى حرب القرآن الا أن تكون مصحوبة بنصيحة الى السامعين لها أن يحذروا كل الحذر الاستماع الى هـذا القرآن ، وأن يتحاشوا كل التحاشى من يتلوه فى أى مكان ، والا فهم جناة على أنفسهم حين يقعون فى حبالة سحر محمد ، وقد يضيفون الى ذلك ما يشاءون من النصيحة للناس بأن يتجنبوا مجالسة من يحمل شيئا من هـذا السـحر أو مخالطته أو المرور فى الطريق التى تدنيهم منه ، حتى لا ينفذ اليهم شىء من هـذا السحر الذى يحمله ، ومما ينقله القرآن عنهم فى هذا :

(وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) (٢١) ٠

وختم الآية بتعبير (**لعلكم تغلبـون**) اشـارة الى أنهم يقولون هـذا من منطلق أنهم فى حـرب مع القـرآن ، وان

---

(٢١) ٢٦ سورة فصلت ٠

ما يقولونه انما هو سلاح يؤملون أن ينتصروا به فى هـذه الحرب النفسية ، فهذه دعاية ضـد القرآن ، ومن المعـروف حتى اليوم أن الدعايات والاشـاعات أخطر أسلحة الحـرب النفسية .

واذن فقد استطاع مفكر قريش أن (يخترع) أخطـر سلاح ناجح ضد القرآن حتى أصبح أملهم فى الانتصار عليه قريبا (**لعلكم تغلبون**) .

ورغم أن هذا السلاح موجه ضـد كلام الله فان القرآن يشهد ضمنا بأن الذى اخترع هذا السلاح انما توصل اليه من خلال عقلية فذة ، وتفكير واسع عميق ، وتعبير القرآن عن عمق فكره ، وعن اثارة الاعجاب بدقة تقديره وبعد تفكيره أبلغ عن أى وصف أو تصوير ، حيث يقول تعالى عنه :

(انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتـل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر، فقال ان هـذا الا سـحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر) (٢٢) .

ومضـمون الآيات فى جملتهـا تأكيـد أن ما توصـل اليه هذا الزعيم انما جاء من فكر فى عقله وأيضا فيه تدبر فى بحثه وتصوره ، وأن ذلك يثير الاعجاب أو التعجب الشديد منه ، وانه حين استخدم عقله بهذه الصورة فى التفـكير فى القرآن اتضح له صدقه وأوشك أن يؤمن به ولكنه ارتد الى موقف العداء له .

ومع أن كل كلمـة فى الآيات تتضـمن دقة معينـة فى مدلولها الا أننا نقتطع الألفاظ التالية لتوضـيح الاجمـال السابق ، وهى :

١ ــ لفظ ان من كلمة (انه فكر وقدر) يفيد التأكيد ، أى تأكيد أن توصله الى هذه النتيجة لم يجىء عفـو الخاطر

---

(٢٢) ١٨ وما بعدها سورة المدثر .

لديه ، وانما جاء بعد جهد عقلى مقصود ، وكأنه فرغ نفسه للتفكير فى هذا الأمر حتى وصل فيه الى هـذه النتيجة التى أدارها فى نفسه مقلبا فيها وجـوه النجـاح والفشـل حتى اطمأن الى نجاحها ٠

٢ ـ تعبير **(فقتل كيف قدر)** مهما تكن دلالة ألفـاظه مفردة فان جملتـه تفيـد التعجب ، أى اثارة الاعجـاب أو التعجب من عمق تفكيره ودقة تقـديره الصـائبين الناجحين لمصلحته ومصلحة قومه ، بمعنى أنها شهادة من القرآن لخصمه بنجاحه فى التوصل الى سلاح ناجح فعال ، كما يشـهد قائد فى الحرب للقائد الخصم بصواب خطته ونجاحهـا ، ولـكن القرآن لا يكتفى بابراز هـذا الاعجـاب أو التعجب وانما يؤكده مكررا اياه فى تعبير :

(فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر) ٠

وعلماء اللغة والتفسير يبسطون القول فى هذا ، ومن ذلك قول الزمخشرى وهو من أئمة اللغة والتفسير معقبا على تعبير **(فقتل كيف قدر)** تعجيب (أى اثارة للاعجـاب) من تقديره واصابته فيه المحز ورميه (أى أصابته) الغرض الذى كانت تنتحيه (أى تقصده) قريش ، ويضيف الزمخشرى الى ذلك احتمال أن يكون هذا التعبير حكاية عن اعجـاب قومه بنجاحه فيما توصل اليه قائلا (بأنه قد بلغ المبلغ الذى هـو حقيق بأن يحسد) ولكن حين يحـكى القرآن كلامهـم دون تعقيب أو انكار فكأنه اقرار وتصديق لهم فى أن خطة زعيمهم تستحق كل هذا الاعجاب ، ثم يشرح الزمخشرى تعبير القرآن عن أسلوب زعيم قريش فى هذا التفكير فيقول معقبا عـلى تكرار كلمة (ثم) دون غيرها كالفاء (فان قلت ما معنى ثم الداخلة فى تكرير الدعاء قلت للدلالة على أن الـكرة(٢٣) الثانية أبلغ من الأولى) أى أنه كلما أوغل فى تفكيره كان

---

(٢٣) الكرة الجولة ، أى جولة هذا الزعيم فى مواصلة تفكيره ٠

أعمق ، ثم يقول أيضا عن تكرار لفظ ثم (للدلالة علـى أنه قد تأنى فى التأمل وتمهل) ولـكنه حينما انتهى من تقليب وجه الرأى والتأمل فى فكرته ، واستيقن من نجاحها لم يتمهل ولم يتردد فى اعلانها ، ولذلك كان تعبير القرآن حينئذ بالفاء التى تفيد الفورية ، وليس بثم التى تفيد التراخى فقال :

(ان هذا الا سحر يؤثر) •

٣ – فى تعبير **(أدبر واستكبر)** الادبار هو الرجوع الى الخلف ، ومعنى ذلك أن زعيم قريش كان ماضيا الى أمام أى مضيا محمودا وذلك فى أثناء تفكيره واستخدام عقله ، فان التفكير لذاته هدف جوهرى يدعو اليه القرآن كثيرا جدا لأن أدنى سبل التفكير فى الاسـلام يوصـل الى الحق ولا شك أن زعيم قريش حين استخدم تفكيره فى القرآن اتضح له الحق جليا ، وهـو أن القرآن ليس من كلام البشر ، وكان ينبغى عليه حينئذ لو كان منصفا أن يعلن هـذا الحق مؤمنـا به ، ولكنه حين وجد نفسه أمام الحقيقة وجها لوجه لم يسـتمر فى مضيه الى أمام موغـلا فى الحقيقة ، وانما (أدبـر) الى وراء منتكسا بنفسه ، وكان السبب الوحيـد الذى دفعه الى هذا الادبار أنه وجد اعتناقه الحق سيحوله الى مجرد تابع ، بعد أن كان سيد قريش وبالتالى سيد العرب ، وليته فيما قدر سيكون تابعا لزعيم أو سيد ، وانما سيكون تابعا لرجل فقير متواضع هو محمد بن عبـد الله ، فامتـلأت نفسـه نفـورا واستنكارا لنزوله من علياء مجده الى ما يتصوره حضيضا بين العبيد وسفلة القوم الذين اتبعوا محمدا ، وهـذا المعنى هو ما يوضحه القرآن فى لفظ (اسـتكبر) من تعبير (ثم ادبر واستكبر) بمعنى أن استكباره عن اتباع النبى هـو سـبب ادباره عن المضى فى الحق ، فالمعنى أدبر بسبب استكباره •

ولكن من أبرز عناصر الموقف ، وأشدها وضوحا هـو تركيز القرآن فى التنويه بعمق تفـكير عـدوه اللدود زعيم قريش ، ودقة تقديره فى اصابة الهدف بسلاحه الخطير الذى اهتدى اليه فى حربه مع القرآن •

وهذا أيضا مثال من أمثلة انصاف الخصم فى القرآن ٠

عاد وثمود :

ومن المعروف أن عادا وثمــود كانا من أشــد الكافرين كفرا ، وكانوا من أطغى الطغاة طغيانا وجبروتا ، ولم يكن كفرهم كفر مسالمة واستكانة الى سوء العقيدة فحسب ، فما أكثر الكافرين من هذا القبيل ، ولو كانوا كذلك ما كان الله فى أغلب الظن ليهلكهم ، بل يمهلهم الى يوم الحســاب كمـا يمهل غيرهم من الكافرين ، ولكنهم طغوا وتجبروا واستكبروا فى الأرض ، وتحدوا الله ورسله تحديا واضحا عنيدا فأهلكهم الله بالصورة التى تكرر ذكرها فى القرآن لكل منهما :

والذى يعنى هــذا الحديث من ذلك أن عادا وثمود مع عداوتهما البالغة لله ، ومع غضب الله الشديد عليهم الا أن القرآن يبرز مزاياهم التى تفوقوا فيهـا عـلى غيرهم ، أو انفردوا بها عمن سواهم ٠ ومن ذلك على سبيل المثال :

عــاد :

يعدد القرآن مزايا لعاد فى حياتهم لم يحظ بهـا أحد ، ولم تتوافر فى شعب سواهم ، ففى بعض ما يسوقه القرآن عن عاد يعــرض القرآن عــديدا من المزايا التى يمــكن أن يشاركهم فيها بعض الناس ، وعديدا من المزايا التى انفردوا بها دون سواهم من كل المعاصرين لهم ، بل بعضها لا يعرف مجتمع قط شاركهم فيها :

(أ) فأما المزايا التى يمــكن أن يشــاركهم فيها بعض المجتمعات فهى توافر كل النعم المعيشية التى تهيىء لهم رخاء سابغا ، ومعيشة تحفها كل عوامل الرخاء ، حيث أتيح لهــم كل ما يتنافس الناس فى الحصول عليه من متع مادية ومعيشية ونفسية ، تتمثل فى الماشــية التى تعتمد عليهـا حياتهم فى اللحوم والألبان وصنع الكساء من أصــوافها ، وتتمثل فى البنين الذين يحققون متعة غريزة حب البقاء بأن يشعر الأب

أن له امتدادا فى الحياة من ابنه ، فضــلا عن عــون الأبنــاء أباءهم فى معيشتهم ، ومع أن عادا كانوا فى اقليم صحراء ، الا أن الله يسر لهم فيها سكنى أودية ذات مياه تحول الأرض جنات ، حيث يقول لهم الله سبحانه على لسان رسوله :

(واتقوا الذى أمدكم بما تعلمــون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون) (٢٤) ٠

(ب) وأما المزايا التى انفردوا بها، فمنها أنهم جعلوا واديهم متميزا عن سائر الأودية بمعالم معينة متميزة ، بحيث يبنون فوق كل مرتفع بناء يستفيدون به فى غرض من الأغراض ، ولكنه يميز الوادى عما سواه ، فيكون علامة يعرفها كل قادم أو مسافر ، وفضلا عن ذلك يمنح الــوادى جمــالا وتنسيقا يميزه عن كل واد ، ومنها مهارتهم فى الصناعة لكل ما تحتاجه حياتهم ، من لوازم المعيشة والســكنى ، فبعض المجتمعــات تحتاج الى جلب عمال الصناعة لما تحتاجه ضرورات حيــاتهم وهى كثيرة ، فالسكن مثلا يحتاج الى عدة صناعات حتى يتاح لصاحبه الاستقرار فيه ، يحتاج الى بناءين ، والى نجارين ، والى حدادين ، والى نساجين لصناعة بسط وفرش وغير ذلك من الصناعات ، فكان من مزايا عاد تميزهم عن أبناء الأودية الصحراوية المحيطة بهم أنهــم يجيــدون كل الصناءات التى تلزم حياتهم ، ومن هذه المزايا التى انفردوا بها قوة أبدانهم، حيث تميز تكوينهم الجثمانى بقوة خارقة للمألوف فى تكوين الأجساد البشرية المعــروفة ، وهــذه المزايا تجتمع فى قوله تعالى :

(أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين)(٢٥)

والريع بكسر الراء المرتفع ، والآية العلامة ، والمصانع

---

(٢٤) ١٣٢ وما بعدها سورة الشعراء وعاد وثمود كانوا يسكنون الحجر فيما بين المدينة والشام ٠

(٢٥) ١٢٩ سورة الشعراء ٠

كل ما هو نابع من صناعة ، ولفظ (تعبثون) اشارة الى أن الآيات التى يبنونها بكل ريع ليست من ضرورات حياتهم ، وانما هى ترف زائد عن حاجتهم ، كما أن لفظ (تخلدون) من تعبير :

(وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) .

اشارة الى أن صناعاتهم كانت مما هو موصوف بالقوة والصلابة التى تقاوم الزمن ، حتى كأن المراد بها الخلود فى الدنيا ، ومما يدل على تمتعهم بقوة غير عادية فى الناس قوله تعالى :

(فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة) ؟ (٢٦) .

وأما كون هذه الأمور مزايا لعاد فمما يدل عليه أن القرآن يسوقها على أنها نعم من الله عليهم ، فى قوله تعالى خلال هذه المزايا :

(واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون) .

وحيث كانت نعما من الله فهى حسنات وميزات أحسن الله بها اليهم لتكون ميزة تستوجب منهم مزيدا من الشكر لله ، ولكنهم بدل الشكر جحدوا وكفروا وتحدوا الله ورسوله ، وظلوا فى تحد متزايد حتى أهلكهم الله .

ثمود :

كذلك ثمود يذكرهم الله بنعم ومزايا من كل لون ، بعضها مما قد يشاركهم فيه غيرهم مما يتنافس الناس فى الحصول عليه ، وبعضها مما انفردوا به عن سائر المجتمعات، حيث لا يستطيع أحد أن ينافسهم فيه .

(أ) ومما قد يشترك معهم غيرهم فيه ولكن المشتركين يكونون مستمتعين فيه بخير ما فى الحياة ، ويكونون مغبوطين أو محسودين عليه من غيرهم هذا الرخاء المعيشى الذى يصفه القرآن فى قوله تعالى :

---

(٢٦) ١٥ سورة فصلت .

(أتتركون فيما ها هنا آمنين ، فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم) (٢٧) .

فوجود الماء فى عيون دائمة ، ثم المزارع والأشجار التى توصف بأنها جنات يعيشون فيها كل هذا نعيم سابغ ، ولكن القرآن يشير الى أن نخيلهم يتميز عن غيره فى الجودة من سائر النخيل ، بوصف **(ونخل طلعها هضيم)** فأيا كان المراد بالهضيم فانه يدل على أن نخيلهم ذو ميزة عن غيره ، والقرآن يشير الى نعمة نفسية من مزاياهم ، وهى الأمن :

(أتتركون فيما ها هنا آمنين) .

فان القرآن كما هو الواقع جعل الأمن حاجة ضرورية للانسان مقرونة بحاجته الى الطعام ، فى قوله تعالى عن نعمه على قريش :

(أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) .

فحيث كان الطعام حاجة مادية ضرورية للانسان ، فكذلك الأمن حاجة نفسية معنوية ضرورية له ، وثمود كانوا متمتعين بهذه النعمة .

(ب) وأما الميزة التى انفردوا بها فهى مقدرتهم غير العادية على أن ينحتوا مساكنهم داخل الجبال ، ولازالت هذه المساكن آثارا ماثلة شاهدة على مقدرتهم الغريبة فى ذلك الزمان السحيق الذى يستغرب فيه وجود آلات تتيح لهم هذا النحت الكثير الكبير الذى يشبه مدنا كاملة فى الجبال ، ولكنهم لم يكونوا يعتمدون على الآلات قدر اعتمادهم على قوتهم الجثمانية ، ففى القرآن :

(وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) (٢٨) .

---

(٢٧) ١٤٦ وما بعدها سورة الشعراء .

(٢٨) ١٤٩ سورة الشعراء .

والفراهة القوة والنشاط ، بمعنى أنكم تملكون من القوة الجسدية ما يمكنكم من النحت فى الجبال دون نصب أو اعياء .

على أن القرآن يبرز لهم فى هذا السياق ميزة أوضح ، وهى سيطرتهم على بيئتهم ، وتذليلهم اياها سواء أكانت سهلا أم جبلا ، فاما السهول فيبنون فيها القصور ، وأما الجبال فلا تمنعهم صلابتها وشموخها من أن ينحتوا فيها مساكن لهم ، فى قوله تعالى عن ثمود :

(واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله) (٢٩) .

وقد يقال فان كل هذه المزايا أمور دنيوية لا قيمة لها اذا انعدم الايمان ، وعاد وثمود لم يكونوا مؤمنين ، فلا قيمة لكل مزاياهم ، فكيف تساق هذه الأمور على انها فضائل أو مزايا ؟ والجواب أن هذا بالقياس الى الآخرة صحيح ، ولكنه بالقياس الى الدنيا غير صحيح ، فان الله فضل بعض الناس على بعض فى الرزق وفى وجوه الحياة الدنيا كلها ، فلا ينكر حينئذ فضل ذى فضل على غيره ، والدليل على ذلك أن الله يسوق هذه المزايا على أنها نعم منه عليهم ، وأن هذه النعم كانت تستحق الشكر منهم لله كما يقول تعالى مخاطبا اياهم **(فاذكروا آلاء الله) .**

والآلاء هى النعم ، وذلك بعد قوله أيضا يمن عليهم :

(واذكروا اذا جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض) .

وما دامت نعما من الله فهى اذن حسنات لذاتها ، وكونهم

---

(٢٩) ٧٤ سورة الأعراف .

حولوها سيئات فهذا لا يغير طبيعة أصلها ، وكذلك الأمر فى عاد حيث يسوق القرآن مزاياهم على أنها نعم من الله •

فرعون موسى :

وغنى عن البيان أن فرعون كان أشد من تحدث عنهم القرآن من أعداء الله مغاضبة لله ، وعنادا فى كفره ، وتحديا صريحا مباشرا لله سبحانه ، حتى ادعى لنفسه الألوهية ، بل تجاوز ذلك الى ادعاء الوحدانية فى الألوهية ، منكرا أن يكون لأى اله غيره نصيبا معه ، ففى القرآن :

(وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى) (٣٠) •

فكان فى عقيدته أشد الناس كفرا ، وكذلك فى سلوكه كان أشد الطغاة ظلما وجبروتا وتعاليا ، وخصوصا على المستضعفين وهم اليهود ، فهو فى مجموعه سواء من حيث العقيدة أو السلوك كان أبرز مثال للكفر والبغى ، حيث كان بسلطانه قائدا للكفر وللبغى ، ومن ثم فقد كان واضحا فى القرآن أنه أبغض من تحدث عنهم القرآن من أعداء الله الى الله ، ومن طريف تصوير القرآن أنه كما كان فرعون قائدا للكفر والبغى فى الدنيا فسيكون أيضا قائدا لأتباعه يوم القيامة الى النار ، ففى القرآن الكريم :

(يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) (٣١) •

وحديث القرآن حافل بأحداث فرعون وبكفره ، وبغضب الله عليه ، ولكن ما يعنى هذا الحديث من ذلك أنه مع كون فرعون أشد أعداء الله مغاضبة لله ، ومع كونه نال من الله أشد الغضب والوعيد الا أننا نلمس فى حديث القرآن عنه ابراز أية ميزة له ، كشأن القرآن فى انصاف خصمه •

---

(٣٠) ٣٨ سورة القصص •
(٣١) ٩٨ سورة هود •

وليس الهدف فى ابراز هذه المزايا الحديث عما كان يتمتع به عهد فرعون من مجد حضارى أو سياسى أو اقتصادى أو نحو ذلك ، فتلك مزايا كانت وليدة شعب وليست وليدة شخص فرعون ، وان كان قد استفاد بها وسخرها لسلطانه وطغيانه ٠

وانما الهدف ابراز مواقف فرعون التى يمكن أن تعد ميزة شخصية له، لأنها من عمله أو من نتاج شخصه، ونكتفى فى هذا السياق بمثالين ، أحدهما عن أسلوبه فى الخصومة ، والآخر عن أسلوبه فى السياسة :

أسلوبه فى الخصومة :

أسلوب فرعون فى خصومته مع موسى عليه السلام يدعو الى التأمل ، فمما لا نزاع فيه أن فرعون كان صاحب سلطة مطلقة بوصفه ملكا لا تعقيب ولا مراجعة لسلطانه ، بل كان الها معترفا بألوهيته من شعبه ، حيث كانوا يعتقدون أن الملك هو ابن الشمس ، وهى الاله ، فابنها يرث الألوهية عنها ، ومعنى ذلك أنه لم يكن أحد ليستطيع أن يقف منه موقف الخصم ، ولو حاول أحد ذلك فان الملك يستطيع أن يفعل به ما يشاء دون توجس من أية عاقبة ، ولكن موسى عليه السلام وقف منه موقف الخصم ، وموسى فى هوان وضعه الاجتماعى لم يكن يبلغ أن يكون شخصا عاديا ، بل كان أقل من عادى ، فالشخص العادى حينئذ هو المواطن المصرى ، أما موسى فكان من اليهود الذين كانوا فى موضع السخرة والاذلال والاستعباد حينذاك كما هو معروف ، وموسى لم يكن له حينئذ وضع اجتماعى يميزه عن سائر اليهود خصوصا حينما وقف من فرعون موقف الخصم ، فانه حينئذ قد محا كل ما تميز به عن بنى طائفته ، وهو أنه قد تربى فى بيت فرعون وفى حجره ، بل حوله الى مزيد من العداء ، حيث يشعر فرعون بأن موسى جاحد لفضله ، عاق لتربيته ، وهذا مما يزيده نقمة عليه ، ولكن المهم أنه لا يجد حائلا يحول دون انزال أى عقاب بموسى ، أو الحاق أى ضرر به ٠

وموسى مع ذلك كله يقف من فرعــون موقف الخصــم الصامد القوى ، بل يطعنه فى أخطر مقتــل ســياسى ، حيث ينفى عن فرعون صفة الألوهية ناسبا اياها لله وحده ، ولــم يصدر هذا من موسى عليه السلام فى موقف واحد ، أو وقت معين ، وانما أصبحت هذه دعوة يدعو اليهــا فى كل حين ، وبكل أسلوب ، لأنها رسالته التى يحملها من الله ، وكل تكرار لهذه الدعوة هو طعنة توجه الى فرعون صــاحب الســلطان المطلق ، والقوة التى تزلزل الأرض ، فلماذا لم يأمر فرعون بقتل موسى مع قدرته على ذلك ؟ واذا لم يرد قتله فلماذا لم يأمر بسجنه ؟ واذا كانت لفرعون مصلحة فى بقاء اليهود فى مصر لتسخيرهم والاستفادة بهم فلمــاذا لم يأمر بنفى موسى وحده وابعاد دعــوته عن ملكه ؟ فقــد كان شىء من ذلك او نحوه هو المتوقع من مثل فرعون ، ولو بالقيــاس على موقف الأمم السابقة من رســلهم ، حيث قتــل كثير من الــكافرين أنبياءهم ، وكثير حاولوا قتلهم ، كما فعل قوم ابراهيم عليه السلام :

(قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم) (٣٢) ٠

وألقوه فى النار فعلا لولا أن الله جعلهــا بردا وســلاما عليه ، وكثير من الأقوام حاولوا اخراج رسلهم ونفيهم عن أرضهم ، كما قال قوم شعيب :

(لنخرجنك يا شــعيب والذين آمنــوا معـك من قريتنا) (٣٣) ٠

وكما قال قوم لوط :

(أخرجوا آل لوط من قريتكم) (٣٤) ٠

بل ينقل القرآن أن هذا كان وضعا عاما أن يحاول كل

---

(٣٢) ٦٨ سورة الأنبياء ٠
(٣٣) ٨٨ سورة الأعراف ٠
(٣٤) ٥٦ سورة النمل ٠

قوم اخراج رسولهم ونفيه عن أرضهم ، كما يقول تعالى :

(وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا) (٣٥) ٠

بل يصرون على محاولة اخراج الرسل حتى مع اعترافهم بأن الرسل وأتباعهم هم الطهارة الوحيدة بينهم ، كما قال قوم لوط :

(أخرجوا آل لوط من قريتكم أنهم أناس يتطهرون)

فالتطهر كان فى نظرهم جريمة ، وهو الجريمة الوحيدة التى يريدون اخراجهم من اجلها ، وكل ما فعله السابقون ضد أنبيائهم أو حاولوه من قتل أو سجن أو نفى حاولته قريش ضد محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث ينقل القرآن عنهم :

(واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) (٣٥م) ٠

ولكن فرعون كان يستطيع بسلطانه ، وبضعف شيعة موسى أن يأمر ضد موسى بما يشاء دون تحسب لأية عاقبة ، ولكنه كما يتضح من خلال القرآن لم يأمر ضد موسى بشىء ، وهنا موضع الشاهد والعبرة ٠

فالواقع كما يتضح من عرض القرآن فى مواضع عدة أن فرعون سلك الطريق الصحيح فى الخصومة ، فلم يسلك طريق القوة أو البطش أو رفض دعوى الخصم بادىء ذى بدء ، وانما سلك الأسلوب القويم فى الخصومة على مرحلتين :

(أ) مرحلة الحوار :

فلم يرفض فرعون دعوى موسى فى وحدانية الله فى الألوهية بداهة ، ولم يصم أذنيه عنها رافضا سماعها أو

---

(٣٥) ١٣ سورة ابراهيم ٠

(٣٥م) ٣٠ سورة الأنفال ٠

الخوض فى حديثها ، وانما استمع اليها ووعاها ، ثم لجأ الى الحوار العقلى مع موسى حول طبيعة الله وصفاته وخصائصه ، ومن ذلك فى القرآن :

(قال فمن ربكما يا موسى ، قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) (٣٦) ٠

أى أعطى كل نوع من المخلوقات طبيعته وتكوينه وخصائصه المناسبة لما خلق من أجله ، ثم هداه بفطرته الى وسائل حياته ، وهذا التعبير كما يلحظ العلماء من أبلغ أساليب الايجاز حيث يتضمن بحثا كاملا وافيا لا نهاية ولا حدود له عن اختلاف أجناس المخلوقات بما لا يحصى من أنواعها ، مع تهيىء كل الخصائص المناسبة لحياة كل نوع وطبيعته ووظيفته فى الحياة ٠

ومعنى ذلك أن حوار فرعون مع موسى حول عقيدة الألوهية لم يكن قصيرا أو عابرا كما يوحى ايجاز الفاظه فى القرآن ، وانما كان حوارا عقليا واسعا مستفيضا ، ولكن القرآن بأسلوب الاعجاز يصوغه فى مثل هذا الايجاز المعجز ٠

ولم يكن على فرعون بأس فى أن يتساءل فى هذا الحوار عن الله كيف شاء ، ولا أن يشك كيف شاء ، بل ولا أن ينكر كيف يريد ، طالما كان يسلك سبيل الحوار العقلى ، فهذا ابراهيم عليه السلام يطلب من الله أن يقنعه ببعث الموتى واعادة الحياة مرة أخرى :

(واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) (٣٧)

فمن حق كل طرف فى الخصومة وهى الحوار أن يبدى ما يشاء ، وأن ينكر ما يشاء بأسلوب المنطق والحجة ، فلا يكون

---

(٣٦) وما بعدها سورة طه ٠

(٣٧) ٢٦٠ سورة البقرة ٠

عليه في شيء من ذلك بأس ، وانما البأس والحساب يبدأ عند ظهور الحق ، فحينما يتضح الحق فعلى الطـرفين أن يرضخا له ، وجريمـة فرعون ليس في الحـوار ، ولا في انكار الله لذات الانكار ، وانما في أنه لم يرضخ للحق حينما أظهـره موسى بحجته وبمعجزاته معا ولكن الذي يعنى هذا الحـديث من ذلك أن فرعون كان في مرحلة من مراحله خيرا من غيره من الكافرين أسلوبا وان تساوو في الكفر ، حيث لجأ الى أسلوب الحوار ، ولم يلجأ الى أسلوب القوة والبطش كما فعل كثيرون غيره ، مع أنه كان أقدر منهم جميعا عـلى اسـتخدام القـوة والبطش •

(ب) مرحلة التجربة والاختبار :

وقد سلك فرعون أسلوبا آخر كان لذاته أسلوبا صحيحا محمودا هو أسلوب التجربة والتطبيق العملي ، فخصمه موسى يدعي أنه رسول من الله ذي الصفات العـديدة الفريدة التي منها أنه يعلم غيب السموات والأرض ، وغيب ما مضى وغيب ما سيأتي ، وغيب كل شيء ، ويدعي أن الله الذي أرسله أرسل معه معجزات تؤكد للناس صدق دعواه ، ومن هذه المعجزات هذه العصا التي يلقيها عـلى الأرض فتتحـول ثعبـانا حيـا يتحرك •

وقد كان يمكن لفرعون أن يرفض هذا كله ، وأن يصم أذنيه ، ويغلق عقله كما فعل كثير من الكافرين ، ولكنه تدرج مع موسى عليه السلام الى مرحلة الاختبـار العملي بصـورة منطقية ، حيث ان موسى مدع ، وكل دعوى تقبـل الصـدق والكذب في وضعها الافتراضي ، فأراد فرعون أن يضع موسى في الموضع الذي يستبين منه الحكم على دعواه ، ومما سـلكه فرعون في محاولة التجربة العملية ما يلي :

١ ـ يضع من دعوى موسى علم الله غيب كل شيء اختبارا لموسى ، وكأنه يسأله اذا كان الله الذي تتحدث عنـه يعلم كل

غيب فأخبرني أو فاطلب منه أن يخبرنا عن أخبار الأجيال السابقة ، ملوكها ، وأحداثها ، وأسرارها ، وكنوزها وغير ذلك ، وهذا يطابق ما هو معروف تاريخيا من اهتمام الفراعنة بالخلود مع الزمن تحسبا للبعث بعد الموت ، فكل ملك كان يبذل كل جهده لحفظ جثمانه وكنوزه وأسراره فى مكان أو أماكن خفية لا تصل اليها الأيدى ولا يعرف مكانها حتى أقرب المقربين اليه ، لأنه يحتفظ بها للبعث وليس للمقربين ، وفرعون موسى يريد أن يعرف شيئا عن هذه الأماكن وهذه الأسرار ، سواء عن أعداء يريد أن ينكل بآثارهم ، أو عن أقرباء يريد أن يهتدى الى آثارهم ، واذا هو يسأل موسى :

(فما بال القرون الأولى) ؟ (٣٨) .

ولكن موسى لم يبعث منقبا عن الآثار والتاريخ ، فلذلك يرد على فرعون ردا يزيده حيرة وحبا للاستطلاع ، وهو أن ما يطلبه موجود ، ولكنه ليس عند موسى ، وانما عند عالم الغيب :

(قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) (٣٩) .

فعلم الغيب عند الله ، وعلم الغيب من الخصائص التى لا يستخلف الله فيها أحدا ، وانما هى خاصة به سبحانه .

٢ – حيث يدعى موسى أن عصاه قد جعل الله له فيها معجزة ، هى تحولها ثعبانا حقيقيا حيا فان هذه الدعوى من الناحية النظرية كأية دعوى تحتمل الصدق ، وتحتمل أن تكون سحرا خادعا وليس كما يدعى موسى ، وفى الاحتمال الأخير نصر لفرعون لم يرد فرعون أن يضيعه ، حيث ان لديه من السحرة من يأتون بالعجائب .

فأراد فرعون أن يضع موسى في موضع تجربة واختبار

(٣٨) ٥١ سورة طه .
(٣٩) ٥٢ سورة طه .

عملى ، فجمع له مهرة السحرة من كل أنحاء مصر كما هو معروف فى القصة ٠

فلجوء فرعون الى التجربة العملية لتمحيص الدعوى بدل رفضها بادىء ذى بدء هو لذاته أسلوب قويم فى الخصومة ، وابراز القرآن هذا هو نوع من انصاف الخصم بالاعتراف بمزاياه ، حيث لا تثريب على أى خصم فى أن يناقش أو يعترض أو ينكر أو يدعى فى أثناء الخصومة كيفما شاء ، طالما كان موقفه مستندا الى الحجة والمنطق ، ومن الحجة والمنطق أن يطلب أحد الخصمين اثبات صحة دعوى خصمه وصدقها ، كما فعل فرعون ، فموقف فرعون موقف منطقى سليم حتى وقت ظهور الحق ، وهو أن ثعبان موسى ثعبان حقيقى حى ، وثعابين السحرة أوهام خادعة ، حينئذ كان يجب على فرعون أن يرضخ للحق كما رضخ له السحرة ، أما ما قبل ذلك من هذا الموقف فلم يكن عليه فيه مأخذ ، بل كان موقفه فيه سليما صحيحا متميزا عن موقف كثير من أغبياء الكافرين ٠

٣ ــ ومما لجأ اليه فرعون من وسائل التجربة العملية أن حاول بناء صرح شامخ شاهق فى الفضاء ، ليتبين مدى صدق موسى فى ادعائه وجود اله غير فرعون ، أو غير الشمس التى يعتقد الفراعنة أنها الاله ، واذا هو يأمر وزيره أن يبنى له صرحا عاليا متينا ، من مادة صلبة هى الآجر الأحمر ، وهو المصنوع من الطين المحروق ، وفى القرآن :

(وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لأظنه من الكاذبين) (٤٠)

وأيضا لا عيب على فرعون فى أن يسلك فى الخصومة أسلوب التثبيت والتحقق ، فقد كان ولابد يتصور أن الاله

---

(٤٠) ٣٨ سورة القصص ٠

الذى يتحدث عنه موسى مكانه فى السماء ، ولدى فرعون من امكانات العمارة والبناء ما يبنى به المبـانى التى تنـاطح السماء وتتوغل فيها كما تدل على ذلك آثار الفراعنة ، فهذه المحاولة منه لذاتها منطقية سليمة لا يؤاخذ عليهـا ، وانما يؤاخذ بعد أن يقنعه موسى ــ ولابد أن يكون قد فعل ــ بأن الله ليس له مكان محدد ، والحديث الدينى عن السماء انما هو رمز للعلو المعنوى ، وليس لأنها مكان اقامة الله سبحانه ، ولعل هذا كان من أسباب انصراف فرعون عن تنفيـذ بنـاء الصرح .

وهذه المحاولات من فرعون تنبىء أنه كان يعتقد حقـا أن موسى كاذب ، ولو كان يعتمد فى قرارة نفسه صدق موسى ما كان يعقل أن يحشد له السحرة من كل مكان ، بل المفروض أنه كان يخشى من انتصار موسى أمام الناس ، خصوصا وأنه وافق على اقتراح موسى أن تكون المباراة بينه وبين السحرة يوم العيد الأكبر الذى يحتشد له الناس من كل فج ، ومن كل طبقة ، ولو كان يعتقد صدق موسى ما أمر وزيره أمام الملأ أن يبنى له صرحا يبلغ السماء ، وما نقله القرآن عنه من قوله :

(وانى لأظنه من الكاذبين) .

تأكيد لذلك ، حيث يتضمن أنه لا يعتقد صدق موسى ، وانما يتابع الافتراض النظـرى فى احتمـال أية دعوى أن تكون صـادقة أو كاذبة ، وحينئذ سـيكون هـذا الافتراض بالضرورة ظنا وليس يقينا .

أسلوبه فى السياسة :

وأيضـا مما يبرزه القرآن من مزايا خصمه عـدو الله فرعون أن فرعون رغم طغيانه لم يكن مستبدا كل الاستبداد، بل كان يعتمد فى اصدار أحـكامه على الشـورى ، وبصرف النظر عن صواب مستشاريه أو خطئهم ، فان حديث القرآن

عن فرعون نفسه يشير الى أنه كان يعتمد على الشورى فى أحكامه ، رغم أنه لا نزاع فى أنه كان يملك سلطة كاملة مطلقة تتيح له أن يحكم كيف شاء ، وان يقرر ما يشاء دون تحسب لاى نقد أو مراجعة ، ودون خوف من أية عاقبة ، ثم ان له من قوة الشخصية ، ومن عنف الشكيمة ، مع بصره بالسياسة وأمور الملك ما يجعله مهيمنا نافذ الكلمه مطاع الرأى فى أقصى ما يحلم به صاحب سلطة ٠

وقد بلغ فرعون من النقمة على موسى عليه السلام ما بلغ ، وبلغ منه العداء لموسى أعمق المبلغ ، بل بلغ به الحذر من دعوة موسى والتوجس منها على سلطانه ما ينتظر معه أن يركز كل همه وكل عزمه فى البطش بموسى والتخلص منه ، ولم يكن هناك قط ما يحول بينه وبين اصدار أمره بقتل موسى ، فلماذا لم يفعل ؟

ونصوص القرآن الكريم نفسه تشير الى الاجابة ، وهى أن فرعون كان يريد قتل موسى ، ولكن المستشارين هم الذين كانوا يقنعونه بالعدول عن هذه الرغبة أو بتأجيل تنفيذها ، ونجد فى القرآن أكثر من دليل على ذلك ، ومن هذه الأدلة على سبيل المثال :

١ ـ أن فرعون يطلب من مستشاريه أن يوافقوه على قتل موسى ، ويعرض عليهم أكثر من مسوغ لهذه الموافقة ، منها أنه يخشى أن يفسد موسى عليهم عقيدتهم الدينية ، والمساس بالعقيدة الدينية عندهم أخطر ما يتصورونه ، حيث من المعروف أن كل مظاهر الحضارة الفرعونية ، بل كل أنشطتهم الحيوية فى معيشتهم نابعة من عقيدتهم الدينية ، ففرعون يقول لهم انه يخشى من موسى ليس مجرد المساس بعقيدتهم ، وانما يخشى أن يمحو عقيدتهم محوا وهذا وحده كاف للاسراع بالتخلص من موسى ، ولكنه يعرض عليهم سببا آخر بالغ الخطورة ، وهو أنه يخشى من موسى أن يفسد عليهم دولتهم وسلطانهم ومعيشتهم ، ومعنى ذلك أنه يخشى من

موسى أن يفسد عليهم دنياهم وآخرتهم معا ، ولابد أنه قدم الأدلة على ذلك من وجهة نظره ، ففى القرآن :

(وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) (٤١) ٠

بل ان تعبير القرآن يوحى بما هو أبعد من طلب فرعون الموافقة من مستشاريه ، وهو تعبير (ذرونى) حيث انه صريح فى أن المستشارين هم الذين يحولون بين فرعون وقتل موسى ، حيث يرفضون موافقته على قتله ، وهو ابلغ فى الدلالة على اعتماد فرعون على الشورى، اذ معناه أنه لم يطلب موافقتهم فحسب ، وانما طلب موافقتهم فرفضوا ، وكأنهم يمنعونه من ذلك ، وهذا يعنى أن لجوء فرعون الى الاستشارة كان لجوءا مخلصا جادا وليس لجوءا صوريا كالذى يفعله بعض المستبدين من ذوى السلطان ، حين يصورون للناس أنهم يستشيرون ، بينما المستشارون يعلمون أنها رغبات تملى عليهم املاء ، فلا يملكون ازاءها الا الموافقة ، ولكن مستشارى فرعون يملكون مخالفة رغبته ، وهو يطلب منهم التخلى عن مخالفته فى قتل موسى **(ذرونى أقتل موسى)** وواضح أنهم أصروا على مخالفته حيث لم يصدر أمر بقتل موسى على أن تعبير القرآن يوحى بأن طغيان فرعون على بنى اسرائيل واذلاله اياهم ، وبطشه بهم ، كل ذلك لم يكن من تلقاء ذاته هو وحده ، وانما كان بمشورة مستشاريه ، حيث يقول تعالى :

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ٠) (٤٢) ٠

---

(٤١) ٢٦ سورة غافر ٠
(٤٢) ٢٥ سورة غافر ٠

فليس فرعون وحده هو الآمر ونسبة هذا كله الى فرعون على أساس أنه بسلطانه هو المسئول الأول والاكبر في نطاق سلطته عن أى خطأ يعلمه ، لأنه يستطيع ان يمنعه ، هـــذا فضلا عن أن هذا كله كان استجابة لرغبتـــه ، وتلاقيا مع ارادته ، ولـــكن نص الاية صريح في انه كان لفرعـــون مستشارون ، وكانت استشارته اياهم حقيقية جادة وليست تمثيلا وخداعا .

٢ ــ ومما هو أوضـــح فى الدلالة عـــلى أن فرعون كان يعتمد فى حكمه على الشورى ، او على الاقل كانت الشورى عنصرا اصليا في سلطته ، موقفهم من موسى عليه السلام حين ارتكب جريمة قتل ، حيث قتل مصريا وهو يدافع عن احـــد أبناء طائفته من اليهود ، حين استغاث اليهودى بموسى لينقذه من قسوة المصرى عليه ، فلكم موسى المصرى لكلمة قويه قضت عليه ، ولم يكن بطبيعة الموقف يقصد قتله ، ولذلك ندم موسى ندما شديدا ، وعد هذا من عمل الشيطان مستغفرا ربه من هذه الجريمة التى ارتكبها فى ازهاق روح انســـان ، فكان عمله مما يوصف فى الفقه الاســـلامى بشبه العمد ، أى أنه ليس قتل عمد ، ولكنه يشبه العمد ، ويوصـــف فى التشريع الوضعى بأنه ضرب أفضى الى موت ، وهـــو وان لم يكن فى الجهتين مما يستوجب القصاص الا أنه فى الوصـــف العـــام جريمة قتل ، وقد لا يكـــون مســـتنكرا فى بعض التشريعات الوضعية أن تكون عقوبتها القصاص بقتل القاتل ، فكيف اذا كان التشريع تشريع طاغية هو فرعون ؟

واذا كان فرعون يلح فى طلب موافقته على قتل موسى قبل هذا الحادث حيث يقول لهم (ذرونى أقتل موسى) فهـــل أنتهز فرصة أن موسى أصبح مدينا لهـــم بقتـــل مصرى منهم ليسارع بالأمر بقتله ؟ خصوصا وأن الاحساس يجرم موسى كان ماثلا لدى الجميع حتى لدى موسى نفسه ، وقد كان موسى

يتوقع أن يجازوه بقتله مقابل قتل المصرى ، كما ينقل القرآن عنه :

(قال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) (٤٣) •

ولكن موسى لم يكتف بجرمه أو بمشاركته فى الجرم الأول ، وانما أوشك أن يقتل مصريا آخر أيضا دفاعا عن يهودى ، فكان هذا أدعى لأن يجد فرعون اكثر من دليل يؤيد عزمه على قتل موسى ، فهل أمر مع ذلك كله بقتله ؟

والاجابة على ذلك من خلال ما يستشف من القرآن الكريم نفسه بوضوح ان فرعون صمم على قتل موسى ، ولكنه لم يصدر أمره بذلك ، وانما أحال القضية أو أحال رأيه الى مجمع الشورى ليبحثه ويرى فيه رأيه ، ونص القرآن صريح فى الدلالة على أن مجمع الشورى حينئذ لم يكن هو حاشية فرعون أو بطانته التى تأتمر بأمره ، وتنفذ كل ما يريد ، وانما كان يتكون من (الملأ) وهم سادة القوم وذوو الرأى والقيادة فيهم •

وكل هذا واضح فى قصة موسى عليه السلام التى وردت فى سورة القصص ، ومنها :

(ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين ، قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ، فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فاذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى انك لغوى مبين ، فلما أن

---

(٤٣) ٣٢ سورة القصص •

أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ان تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين) (٤٤) •

وواضح أن هذا الناصح كان من قوم فرعون ، وكان من الملأ المؤتمرين ، أى كان أحد أعضاء مجمع الشورى ، ولكنه حين وجد رأى الملأ متجها الى الحكم بقتل موسى انسل من المؤتمر قبل صدور الحكم ، وقبل أن تنال أيديهم موسى لينقذه ، وقد أنقذه •

ولكن ما يعنى هذا الحديث من ذلك أن فرعون كان حريصا على قتل موسى ، كما يتضح من نص القرآن ، ولم يكن على سلطانه قيد قط يمنعه من تنفيذ ما يريد ، ولكن المستشارين هم الذين كانوا لا يوافقونه على قتله ، أو على التعجل فى قتله ، وكان من تقدير فرعون لمبدأ الشورى أنه يطلب من المستشارين موافقته ، وكأنه يلتمس منهم ذلك التماسا ، فى تعبير :

(ذرونى أقتل موسى) •

فكأنهم قيد حقيقى يقيد أوامر فرعون ويوجهها ، وليس من الصواب أن يقال ان المستشارين كانوا هم كهنة الدين ، باعتبار ما يتردد لدى المؤرخين عن سلطان الكهنة فى حكومات الفراعنة ، فان حديث القرآن عن مستشارى فرعون يوحى بأنهم يمثلون ذوى الرأى والقيادات ، وهو المدلول اللغوى للفظ (الملأ) حيث أنه أصلا يعنى الجماعة ، ولكن الجماعة التى تبحث أمور أمة ، أو تتحدث نيابة عن أمة لابد أن تكون هى وجوه هذه الأمة وذوى الرأى والنفوذ فيها •

---

(٤٤) ١٥ وما بعدها سورة القصص •

ونخرج من هذا بنتيجة معينة هى أن فرعون كان يعتمد فى حكمه على الشورى ، وأن اعتماده عليها لم يكن عن عجز أو ضعف ، وانما كان عن معرفة بأصول السياسة وضلاعة فيها ، وايراد القرآن هذه الحقائق ليس تكريما لفرعون ، وانما هو من باب انصاف الخصم ، الذى هو من صلب العدل .

على أنه من السذاجة البالغة أن يظن أن سخط القرآن على فرعون يعنى تفاهة شخصه ، أو تجرده من المزايا والفضائل ، أو انه شر خالص ، فهذا يعد من السذاجة البالغة لسببين :

١ ــ أحدهما أن اهتمام القرآن بشخص ، ولو كان اهتماما عدائيا انما يتضمن بداهة أن هذا الشخص له شأن ، وله نفوذ وتأثير ، يترتب عليه أن يصبح فى حالة عدائه الدين عقبة أمام رسل الله فى نشر دينه ، وعقبة أمام الذين يريدون أن يتجهوا الى الدين فيخشون نفوذ هذا الشخص ، ويحذرون بطشه أو غضبه ، والذى يكون بهذه المنزلة بين الناس لا يكون تافها ولا مغمورا ولا عديم المزايا ، بل لابد أن يكون على عكس ذلك ، قوى النفوذ ، بارز الشخصية ، متعدد المزايا حتى يكون له شأن فى المجتمع ، ولكن هذا الشأن لا يبلغ درجة أن يتحدث عنه القرآن أو يهتم به الا اذا كان شأنا قويا مدويا ، وهذا هو واقع أعداء الله الذين اهتم القرآن بالحديث عنهم ، ومن هذا القبيل ، وصف ما يقال لأحد هؤلاء وهو يعذب فى جهنم :

(ذق انك أنت العزيز الكريم) (٤٥) .

فالمعنى المعقول للتعبير أنه بمعنى لقد كنت فى الدنيا منفردا بالعزة وكرم المنبت والصفات ، فهل ينفعك اليوم كل ما كنت تتمتع به فى الدنيا ؟

ومن تقريب هذا المعنى شخص أبى جهل وموقفه من

---

(٤٥) ٤٩ سورة الدخان .

الاسلام، حيث يوصف عمرو بن هشام بن المغيرة بأنه أبو جهل، وأنه فرعون الاسلام ، لأنه أشد أعداءالاسلام عداوة ، وأخطر عقبة كانت فى طريق الدين ، كما كان فرعون بالقياس الى دعوة موسى ، وقد يفهم بعض الناس أن وصف عمرو بن هشام بأبوة الجهل يعنى انه كان غبيا أو أحمق او جاهلا جهالة مطلقة ، ولكن الواقع أن هذا ايضا من السذاجة فى الفهم ، والدليل على ذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا الله أن يعز الاسلام به أو بعمر بن الخطاب ، فى الحديث المعروف :

(اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين) ٠

وذلك لأنهما كانا على مستوى واحد فى شخصيهما ، وفى مزاياهما العقلية والشخصية والاجتماعية ، ولو ان الله قدر لعمرو بن هشام أن يؤمن لبرزت عبقريته فى الاسلام كما برزت عبقرية عمر ، ولكن الله جلت حكمته قدر الايمان لعمر ولم يقدره لعمرو ٠

وكذلك الشأن فى فرعون لا شك أنه كان يحمل عبقرية فذة ، فى مزاياه العقلية والشخصية والسياسية ، ولولا ذلك ما كان هذا الاهتمام الكبير من القرآن بعداوته وبموقفه من الدعوة السماوية ٠

٢ ــ والسبب الثانى هو ان القرآن لا ينفى وجود مزايا أو فضائل أو عبقريات فى أعدائه ، ولكنه ينفى بتأكيد أن يكون لهذا كله ، أو لشىء من هذا كله قيمة عند الله اذا لم يصاحبه الايمان بالله ، فللكافر أو المشرك أن يفعل ما يفعل من أعمال الخير أو من المكارم ، وله أن يحمل فى الدنيا ما يحمل من صفات الفضيلة أو العبقرية ، وله أحيانا أن يستفيد بهذا فى الدنيا منزلة أو نفوذا أو غنى أو سلطانا أو غير ذلك ، ولكنه عند الله لا يساوى شيئا ، وفضائله الدنيوية أيضا لا تساوى فى الآخرة شيئا ، وذلك نابع من مبادىء الدين الثابتة ، وهى أن أى عمل خير لا يقبل عند الله الا اذا

كان مصحوبا بالايمان بالله ، فاذا انعدم الايمان بالله انعدمت عند الله كل قيمة للعمل أو للصفات ، وذلك لسبب منطقى ، هو أن الكافر لا يعترف بالله أصلا ، فلا يعقــل أن يتقرب الى الله بعمل وهو لا يعترف بالله أساسا ، وله أن يطلب جــزاءه من الجهة التى اتجه اليهــا بعمله أو فضله بعيــدا عن الله ، والأحاديث النبوية والقدسية تفيض فى توضيح هذا المعنى، والقرآن نفسه يؤكد هذا المبدأ بأكثر من أسلوب ، منه قوله تعالى :

(والذين كفــروا أعمالهم كسراب بقيعة يحســبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا) (٤٦) ٠

وقوله تعالى :

(مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقــدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد) (٤٧) ٠

وفرعــون كانت له مزايا وفضــائل وعبقرية يعترف القرآن بها ضمنا ، ولكن الكفر جعل كل ذلك كسراب بقيعة، أو كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ٠

٥ ــ مشركو قريش :

والشرك أبغض الأوضاع الدينية الخاطئة على الاطلاق الى الله ، وهذا مما لا يحتاج الى بســطة فى القول ، ونتيجة هذا أن يكون المشركون فى قمة البغض من الله ، وخصوصا مشركى مكة الذين لم يكتفــوا بشركهم ، وانما ناصبوا الله ورسوله والمؤمنين أشد العــداء ، وقد بادلهم القرآن هــذا العداء ، وصب عليهم حملة كاسحة شــعواء ٠ ومع ذلك فان القرآن فى ابان هذه الحرب ، بل ومن خلالها يشهد لخصومة المشركين بمزاياهم فى هذه الخصومة ٠ وذلك أن مدة اقامة النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة ٠

---

(٤٦) ٣٩ سورة النور ٠

(٤٧) ١٨ سورة ابراهيم ٠

بعد البعثة وهى نحو ثلاث عشرة سنة كانت كلها حربا نفسية بين الطرفين ، ولم تبدأ الحرب العسكرية بين الطرفين الا بعد انتقال النبى وأصحابه الى المدينة ، أما فى مكة فان الحرب النفسية كانت على أشدها بين الطرفين ، وسلاح النبى الوحيد حينئذ هو القرآن الذى يوحى اليــه ، ولــكن خطورة هــذا الســلاح وسرعة نفاذه الى القلــوب والعقــول أثارت ثائرة قريش ، وجعلتها تحشد كل أسـلحتها النفسية ضـد هـذا القرآن والداعين به ٠

ولكن القرآن كشأنه فى تطبيق ما يدعو اليه ، ومنــه انصاف الخصوم مهما تبلغ عداوتهم ، يشــهد لهم بمزاياهم فى هذه الخصومة التى هى ضده ، وذلك فى أكثر من موضع من القرآن ، ومن ذلك :

(أ) قوله تعالى عن مشركى قريش :

(بل هم قوم خصمون) (٤٨) ٠

أى أنهم يتميزون بقوة الخصومة ٠ فلفظ (خصمون) من المعروف فى اللغة أنه صيغة مبالغة للجمع ، بمعنى أنهــم ليسوا خصوما عاديين ، وخصومتهم ليست سهلة أو لينة ، بل تتميز بالعناد كما وصف الله زعيم قريش فى الحديث السابق بقوله تعالى :

(انه كان لآياتنا عنيدا) (٤٩) ٠

وكما وصفهم الله فى موضع آخر باللدد فى الخصومة ، حيث يقول تعالى عن القرآن :

(فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا) (٥٠) ٠

واللدد فى الخصومة هو الشدة فيها والتشبث بها ٠

---

(٤٨) ٥٨ سورة الزخرف ٠
(٤٩) ١٦ سورة المدثر ٠
(٥٠) ٩٧ سورة مريم ٠

وبصرف النظر عن الحق والباطل فى الخصــومة ، فان القوة فى الخصومة ، والمقدرة على مقاومة الخصم ، وسرعة البديهة فى مقارعته الحجة ، وعدم الانخــداع بمنطقة ، أو التراجع امام هجومه ، ونحو ذلك ، كل هذا فضيلة لذاته ، وكل قوة لذاتها فضيلة ، وانما يكون الحكم عليها من توجيهها نحو الحق أو الباطل ٠

والذى يشهد به القرآن هنا ليس بطلان موقفهم ، وانما قوتهم وصلابتهم فى الخصومة ، وهــذه لذاتها فضيلة فيهم ينبغى أن تحمد لهم ، وأن يشهد لهم بها رغم أنهم الخصوم ، ومما يدل على أن قوتهم فى الخصومة يسوقها القرآن مساق الحمد لها أن القرآن نفسه يسوق المقابل لذلك مساق العيب والنقص والمقابل لذلك هو الضعف فى الخصومة ، وقد ساقه القرآن مساق العيب والنقص فى حديثه عن النساء ، حيث جعل من أخص صفاتهن ضعف الخصومة حيث يقــول تعــالى عنهن :

(أو من ينشأ فى الحلية وهــو فى الخصــام غــير مبين) (٥١) ٠

أى لا يستطعن الصمود والمقاومة فى خصومة المواجهــة وانما يكون ســلاحهن فى أغلب الأحــوال حينئذ الدموع ، ولكنهن فى غير المواجهــة ، وحين يدرن الخصــومة من وراء الظهور بأسلوب الكيد والمكر فانهن حينئذ يفقن الرجال ، بل يفقن كل خلق الله حتى الشياطين ، وهــذا ما يقرره القرآن نفسه ، حيث يقول الله عن كيدهن :

(ان كيدكن عظيم) (٥٢) ٠

بينما يقول عن كيد الشيطان :

(ان كيد الشيطان كان ضعيفا) (٥٣) ٠

ولكنهن فى أية خصومة تحتاج الى قوة ، سواء أكانت قوة

---

(٥١) ١٨ سورة الزخرف ٠
(٥٢) ٢٨ سورة يوسف ٠
(٥٣) ٧٦ سورة النساء ٠

بدنية ، أم قوة جدلية هن ضعيفات كسيرات ، وهذا نقص في طبيعتهن .

واذا كان الرجال يتميزون عن النساء بالقوة والصلابة في الخصومة ، فان القرآن يشهد ضمنا لمشركي قريش بأنهم يتميزون عن المستوى العام للرجال بقدرتهم على الخصومة ، وتمكنهم من ادارتها ، وهو مضمون **(بل هم قوم خصمون)** وأيضا (وتنذر به قوما لدا) فلو كانوا في الخصومة كغيرهم لما كانت هناك فائدة لتمييزهم بالمبالغة في الخصومة واللدد فيها .

وليس معنى ذلك أن شهادة القرآن لهم في قوة الخصومة قاصرة على خصومة المواجهة والصراع العلني ، بل انه ايضا يشهد ضمنا بمهارتهم في الحرب النفسية بما تتطلبه من كيد ومكر ، وما أكثر ما تحدث القرآن عن كيدهم ومكرهم ، ويكفي مثالا لذلك هذا التصوير لخطورة مكرهم في قوله تعالى عنهم :

(وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) (٥٤) .

فليس هناك تصوير لخطورة مكر أبعد من أن هذا المكر يزيل الجبال ازالة وليس زحزحة فقط ، وابراز القوة في هذا المكر يوحي بأنه يتم من خلال حرب صريحة بين الطرفين رغم أنها حرب نفسية ، أي أن كلا الطرفين يعلم أن الطرف الآخر يكيد له ويتوقع منه ذلك ، ولعل هذا ما يميز مثل هذا المكر عن الكيد الخادع من مثل كيد النساء ، على أن بعض القراءات تزيد خطورة مكرهم ابرازا ، ومنها قراءة (وان كاد مكرهم ...) أي أن مكرهم أوشك أن يزيل الجبال .

(ب) ومما ينصفهم فيه القرآن ويشهد لهم به أن شركهم مصحوب بالذكاء وليس الغباء ، ومع أن نتيجة كل ألوان الشرك والكفر بالله واحدة ، وهي الضلال في الدنيا والعذاب

---

(٥٤) ٤٦ سورة ابراهيم .

فى الآخرة الا أن طرقه متعددة ومسالكه لا تكاد تحصى ، ومن هذه المسالك الغباء فى الكفر ، فبعض الكافرين لا يخجل من أن يكون ملغيا عقله فى كفره كل الالغاء ، بحيث لا يجد لنفسه ولا لخصمه حجة ولو واهية يعلل بها كفره ، بل ان بعضهم لا يخجل من ان يعلن هذا الغباء اعلانا ، بل يحاول ان يجعله حجة له ، كما فعل قوم شعيب حين قالوا :

(قالوا يا شعيب مانفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك) (٥٥) .

فهذا المنطق هو مسلك الحيوان الأعجم الذى يعتمد فى خصومته على قوته البدنية وحدها ، اما ميزة الادمى فانه فى كل احوال خصومته يجب أن يجعل ركيزته الاولى هى منطقه وعقله ، فاذا اضطر الى استخدام قوته المادية فيجب ان يكون ذلك نابعا من أن العقل يوجب عليه ذلك كالدفاع عن حقه بعد ظهوره ، ولكن قوم شعيب يجعلون القوة المادية هى مقودهم دون عقل أو منطق بأسلوب الحيوان الأعجم ، ولكن الذى منعهم من استخدامها وجود قوة مادية أخرى يخشونها كما يخشى الحيوان الأعجم أيضا قوة أخرى فيهرب منها ، ومن هنا يبدو الفارق بين من يخاصم مرتكزا على المنطق السليم وهو الحق ، ومن يخاصم مرتكزا على مجرد القوة المادية ، فان المرتكز على الحق يرى أن الحق أقوى من أية قوة مادية فلا يخاف من شىء ، وكمال الارتكاز على الحق أن يرى صاحب الحق أن النصر أو الهزيمة ليس فى الصورة المادية ، وانما فى مدى التشبث بالحق واعلائه ، ولئن هزم ماديا أو تعرض للموت حينئذ فانه مع ذلك يرى نفسه هو المنتصر ، وهذا حق ، لأن الفيصل هو مدى التشبث بالحق أو التفريط فيه ، وهذه وجهة الذين يضحون ويستشهدون فى سبيل عقيدتهم .

ولذلك فان الأذكياء من ذوى الباطل يحاولون أن يجعلوا لأنفسهم ركيزة من العقل والمنطق ليوهموا خصومهم بأنهم

---

(٥٥) ٩١ سورة هود .

على شيء من الحق ، وقد شــهد القرآن فى أكثر من موضـع لمشركى العرب بأنهم لم يكونوا أغبياء كقوم شعيب مثـلا ، وانما كانوا أذكياء بحيث يحاولون الا يلغــوا عقــولهم كل الالغــاء ، ولا يكونوا فى وضــع من الغبــاء يزرى بهــم فى خصومتهم ، ولا يكونوا ايضا فى وضــع من الســفاهة التى تزرى بحقهم وسلوكهم كما فعل قوم لوط فى مخــاصمتهم لــوط حول ضيوفه ملائكة الله حيث ارادوا بضيوفه الفاحشة ، فأسر لهم لوط الى بناته فقالوا :

(لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق) (٥٦) .

فهذا المنطوق من حجتهم حق ، وهــو انهم ليس لهم فى بناته حق ، ولكن المفهوم هو ان لهم فى ضيوفه حقا ، وهــذا هو السفه الشديد فى الخصومة الجدلية ، اما مشركوا العرب فلم يكونوا فى خصومتهم كهذا الغباء أو هذه السفاهة ، ومن ذلك انهم فى خصومات الجدل والمحاورة مع المؤمنين حــول العقيدة لم ينــكروا وجود الله ، ولم يقبلوا ان يكــونوا من الغباء بحيث يقــولون ان أصنامهم هى التى خلقت الــكون ودبرت شئونه ، أو أن أحــدا من البشر فعــل ذلك ، أو أن الكون وجد بدون موجد ، وشئونه تدبر بدون مدبر كمـــا قال غيرهم ، وانما اعترفوا بأن الله هو الخالق المدبر ، وقد تكررت شهادة القرآن لهم بمثل :

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسـخر الشمس والقمر ليقولن الله) (٥٧) .

بل لا بأس لديهم بأن يضيفوا الى ذلك ثنــاء عــلى الله ، كقوله تعالى عنهم :

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) (٥٨) .

---

(٥٦) ٧٩ سورة هود .
(٥٧) ٦١ سورة العنكبوت .
(٥٨) ٩ سورة الزخرف .

بل يشـهد القرآن لهـم بمرحلة أخـرى من الذكاء فى الخصومة ، وهى أنهم حين يحاصرون من خصمهم فى المجادلة بأنهم اذا كانوا يعترفون بالله ، وبأنه الخالق والمـدبر لـكل شىء ، فلماذا لا يعبدونه ويتركون عبادةالأصنام؟ فلا يقمحون حينئذ ولا يبهتون ، وانما يجيبـون بأن كل عبـادتهم لهذه الأصنام تنحصر فى أنهم يريدون أن تكون أصنامهم وسيلةلهم الى الله وتقريبا اليه ، فكان منطقهم :

(ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) (٥٩) .

ومع أن هذا أو نحوه لا يفيدهم فى النتيجة شيئا الا أنه يبعد عنهم وصف الغباء ، ويشهد لهم كما شهد القرآن بقوتهم فى الخصومة ، وجلدهم فى خـوض غمارها واللدد فيها ، وليس المجال الدينى وحده هو الذى تبرز فيه مقدرتهم هذه ، بل لعل المجال الدينى هو أقل المجالات ابرازا لمقدرتهم عـلى الخصام ، وانما هى صفة دائمة فيهم ، تلازمهم وتبرز فى كل موقف يتصـدون فيه للخصـام ، ولذلك كان تعبير القرآن موحيا بهذا ، حيث انه لم يقصر مبالغتهم فى الخصومة عـلى النطاق الدينى ، وانما جعله عاما ملازما لهم فى كل أحوال الخصومة :

(بل هم قوم خصمون) .

وهى شهادة ليست يسيرة ، فان القرآن حين يأتى بمثـل هذه الشهادة فى مثل هذا التعبير فان هذا يعنى أنهم يتمتعون بمقدرة هائلة على التمكن من الخصـام وادارة دفته ، بحيث لا يصمد فيه أمامهم الا من يتمتع بمثل مقدرتهم ، ولا يتفوق عليهم فيه الا من يملك فوق ذلك أنه على الحق الناصع الذى لا تخفيه براعة الخصم المنازل .

ونجد فى القرآن فى أكثر من موضع موازنة ضمنية بينهم وبين آخرين لم يملكوا هذه المقدرة على التمكن من الخصـام وادارة دفته ، كما ساق القرآن عن قوم شعيب الذين بلغوا

---

(٥٩) ٣ سورة الزمر .

من الغباء والعى أن جعلوا من عدم فهمهم كلام شعيب حجة لهم ، وكما ساق عن آخرين كهذا الملك الجبار المغرور ، الذى لم يكتف بالملك ، وانما تصاعد الى ادعاء الألوهيـة ، وكان يفترض فى مثله وهو قمة القوم أن تكون لديه مقدرة عقلية لا تصل من الضعف الى حد العجز الكامل أمام أى خصم ، وان تكون لديه حين يدعى شيئا مقدرة ولو خادعة أو مضللة على مجـاراة الخصـم ومراوغتـه كمـا فعـل فرعون حين ادعى الآلوهية ، ولكن هذا الملك الجبار الذى ادعى الألوهيـة أمام ابراهيم عليه السلام جادل ابراهيم فى الألوهية بمنطق القوة المادية كما فعل قوم شعيب الذين أرادوا أن ينتصروا عـلى شعيب فى الحوار بأن يرجمـوه **(ولولا رهطك لرجمناك)** والذى سبقت الاشارة فيه الى انه منطق الحيوان الأعجم الذى كل سلاحه قوته المادية البدنيـة وأن السـلاح الحقيقى الذى يتميز به الآدمى عن سائر الحيوان هـو المنطق العقلى الذى يستطيع أن يميز به بين الحق والباطل . ولكن الملك الجبار لجأ الى سلاح القوة المادية مباشرة ليرد عـلى دعـوى خصـمه ابراهيم عليه السلام فى أن الله هو الذى يملك الحياة والموت فهو الذى يستحق الألوهية ، فاذا الملك الجبار يقتل انسـانا ليثبت أنه يميت ، وينقذ محكوما عليه بالموت ليثبت انه يملك الاحياء ، وحينما واصل ابراهيم سلاح المنطق العقلى ليقول له فان الله هو الذى يملك ادارة الكون بكل ما فيه ، وضرب له مثلا بالشمس التى يخرجها الله كل يوم من المشرق ، وأن عليه ان كان الها حقا أن يثبت ألوهتيه بأن يخرجها من المغرب بدل المشرق ، فلم يحر جوابا ولو بمراوغة أو تضليل ، وانما كان كما وصف القرآن :

(ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذى كفر .)(٦٠)

---

(٦٠) ٢٥٨ سورة البقرة .

وانما بهت وأفحم بهـذه الصـورة لأنه وان كان أمام عبقرية ابراهيم فى الحوار ، وأمام الحق السـاطع ، الا أنه كان يستطيع أن يراوغ أو يضلل ، ولكنه لا يملك المقـدرة على مجاراة الخصم ، ولا يملك أصلا قوة التخاصم التى يملكها العرب ٠

أما العرب فانهم تميزوا بمقدرتهم وتفوقهم فى مجـال التخاصم ، لأن حياتهم تميزت بأنها تقوم على الصراع الدائم بين القبائل على المصالح ووسائل العيش ، وبين الافراد عـلى المكانة والمنزلة ، فان الواحد منهم يولد ، واول ما يدركه من الحياة أنه طرف فى خصومة ، بل فى خصومات متعددة ، بين القبائل والأحيـاء والزعماء والافراد ، وليس له مكان فى الحياة أو فى الطمأنينة الا أن يشـحذ كل اسـلحته المادية استعدادا لحروب متعددة متشعبة ، وكل أسـلحته اللسـانية استعدادا لمنافرات ومحاورات متواصلة ، ولذلك كانوا كمـا وصفهم القرآن قوما خصمين ، وكانوا كمـا وصـفهم أيضا لددا فى الخصومة ، وتاريخ العرب حافل بما يثير الاعجاب والروعة فى مقدرتهم الجدلية فى منافراتهم وخصوماتهم وهو تأييد للقرآن وقريش بطبيعة الحال فى قمة هـذه المقدرة ، لأنها قمة العرب ٠

والعرب عامة ، وقريش خاصة ، هم المخاطبون والمعنيون بهذه الصفة فى الخصـومة ، لأنهـم الذين كانوا يصـارعون القرآن حينئذ وينازلونه بأسلحتهم اللسانية ، ومع أنهم هم الطرف الآخـر الذى يواجه القرآن فى الخصـومة ، الا أن القرآن ، كشأنه فى انصاف الخصم ــ يشهد لهم بهذه المقدرة فى الخصومة ٠

وهذا أيضا مثال من أمثلة انصاف الخصم فى القرآن ٠

٦ ــ النصارى :

من الواضح أن النصارى من خصوم الاسلام ، بحكم أنهم أصحاب دين سماوى يحرصون على اعلائه ومحاولة اثبات أنه

الدين الحق دون كل الأديان ، والاســلام يعترف بأصــل المسيحية بوصفها دينا سماويا أنزله الله عــلى المسيح عليــه السلام ، ويجعل الاسلام المسيح فى مرتبة صفوة الرسل الذين منهم نبى الاسلام محمد وهم خمســة نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد الذين وصفهم الله بأنهم أولو العزم من الرسل، ومعنى ذلك أن الاسلام يضع المسيح فى مرتبــة محمد ، وهى أعــلى مرتبــة فى الاســلام ، لا تعلوها الا ذات الله سبحانه ، وكذلك يضع موسى نبى اليهود ، ولــكن الاســلام ينكر عــلى اليهود والنصارى أنهم حرفوا عقيدة التوحيد التى أنزلها الله اليهم عن طريق أنبيائهم ، ومن ثم فهو يحكم عليهم بالكفر ، لأن العقيدة بالذات ليس فيها حلول وسط ، فاما ايمان واما كفر ، بخلاف المعاصى فى السلوك ، فمهما كثرت الذنوب ، ومهما عظمت المعصية فانها لا تخل بالعقيدة ، من باب قوله تعالى :

(ان الله لا يغفــر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (٦١) ٠

والذى يعنينا هنــا أنه رغم كل شىء فمن الواضــح أن النصارى خصوم للاسلام ، وقد عرض القرآن خصومتهم فى مواضع عديدة منه ، وأنحى عليهم باللائمة على كفرهم حيث جعلوا لله ولدا بادعائهم أن المسيح ابن الله ، والقرآن يصــف بشاعة هذه الدعوى بالقياس الى الله فى مثل قوله تعالى :

(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا ادا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخــر الجبــال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، ان كل من فى السموات ، والأرض الا آتى الرحمن عبدا) (٦٢) ٠

---

(٦١) ١١٦ سورة النساء ٠

(٦٢) ٨٨ وما بعدها سورة مريم ٠

ومع ذلك فان القرآن ينصف النصارى بالتنويه بمزايا لهم لم يذكرها القرآن لطائفة أو أبناء دين سواهم ، ويشهد لهم فى أكثر من موضع بذلك رغم تأكيده أنهم من خصومه ، فمن ذلك أنه فى سياق حديثه عن عيسى عليه السلام يبرز فيما يبرز لأتباعه صفتين من أنبل الصفات الانسانية التى تنبىء عن سماحة النفس ، ولين الخلق ، وروح المودة ، حيث يقول تعالى :

(.. وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الانجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة.)(٦٣)

ومن المستبعد أن يكرر القرآن لفظين مختلفين لأداء معنى واحد ، فالرأفة غير الرحمة ، وان كانا ينبعان من معين واحد، فالرأفة فيها معنى الشفقة والعطف والرحمة فيها معنى الحنان ورقة العاطفة ، واجتماع الصفتين الرأفة والرحمة فيه كمال صفاء النفس وطهرها من القسوة والغل ، ومما هو ملحوظ أن القرآن مع أنه اعلام الاسلام الا أنه لم يصف المسلمين من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم الا بواحدة من هاتين الصفتين اللتين مدح بهما أتباع المسيح عليه السلام حيث يقول تعالى عن أتباع محمد :

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) (٦٤) .

مع مراعاة فارق بالغ الدقة فى التعبيرين لصالح أتباع المسيح ، وهو أن القرآن عبر عن أن الرأفة والرحمة فى قلوب أتباع المسيح لذاتهم بمعنى أنهما صفتان ثابتان فيهم فيما بين أنفسهم وفيما بينهم وبين غيرهم .

ولكن تعبير القرآن عن صفة الرحمة فى أتباع محمد كان محصورا فى البينية بتعبير (رحماء بينهم) ، أى أن التراحم

---

(٦٣) ٢٧ سورة الحديد .

(٦٤) ٢٩ سورة الفتح .

فيما بينهم هم فقط ولم يجمع القرآن صفتى الرأفة والرحمة لغير أتباع المسيح الا لشخص محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى عنه :

(بالمؤمنين رءوف رحيم) (٦٥) ٠

مع مراعاة فارق الدقة فى التعبيرين أيضـــا حيث كان التعبير ازاء النصارى اثبات أصـــل الصفة وهى الرأفة ثم الرحمة ، أما بالقيـــاس الى شـــخص النبى فقـــد كان بصيغة المبالغة **(رءوف رحيم)** مما يعنى أن الصفة فيه كانت بالغة التمكن ، وأداؤه اياها لم يكن عاديا وانما كان قويا لا يعبر عنه الا بالمبالغة فى الوصف ٠

ولكن فى الجملة يكفى النصارى جميعا من أتباع المسيح بحق أن القرآن مدحهم فى خلقهم بما لم يمـــدح به الا نبى الاسلام ٠

وتزداد النظرة الى قيمة هذا الثناء من القرآن ايضاحا اذا نظرنا الى ما وصف به القرآن قلوب قوم آخـــرين قريبى عهد ودين بهم وهم اليهـــود ، فبينما يصـــف القرآن ينـــابيع الرأفة والرحمة واللين والرقة فى قلوب النصارى اذا هـــو يصف قلوب اليهـــود بما لا يوصف به بشر من القسوة فانه يصف قلوبهم بأنها أشد قســـوة من الحجـــارة ، وحتى لا يظن السامع أن هذا تشبيه كسائر التشبيهات التى تعتمد عـــلى المبالغة فى وصف المشبه ليكون قريبا من المشبه به أو مكتسبا بعض صفته فان القرآن يؤكد أن وصف قلوبهم بأنها أشـــد قسوة من الحجارة حقيقة وليس تشبيها ، ويقيم الدليل عـــلى ذلك من الواقع وهو أن بعض الحجارة يتفجر أحيانا بأنهار الماء الرقيق ، وبعضها يتشقق عن ينابيع الماء السلســـال ، وبعضها يرق وينكمش من جلال الله ، أو ينهار كما انهار جبل موسى ، ولكن قلوب اليهود لا تنبض برحمة ، ولا تنبض عن

---

(٦٥) ١٢٨ سورة التوبة ٠

رأفة ، ولا تخالجها خشية من الله أو شعور بجلال ذاته ، بل هم كما يخاطبهم الله :

(ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجـارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهـار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لمـا يهبط من خشية الله ٠٠٠) (٦٦) ٠

ثم لننظر الى الفارق بل الى التناقض بين خلق من يحملون كل هذه القسوة وما يصدر عنها ، وخلق من يحملون الرأفة والرحمة وما يصدر عنهما من لين وسماحة نفس ٠

ولكن ينبغى أن نلحظ أن دقة تعبير القرآن تجعل الثناء هنا ليس موجها الى كل النصارى وانما الى الذين (اتبعوه) أى اتبعوا تعاليم المسيح وتخلقوا بأخلاقه ومن أمثلة الانصاف أيضا للنصارى فى القرآن أنه حين صنف خصـوم الاسـلام جعلهم نوعين ، نوعا بالغ العداوة والحقد ، وعلى رأس هـذا النوع اليهود ثم المشركون، ونوعا ينظر الى المسلمين بوصفهم خصوما أو منافسين ، فهو يخاصـمهم أو ينافسـهم ولكنـه لا يضمر لهم الحقد الدفين ، ولا يتربص بهم ، بل يرى نفسه قريبا منهم مهما يكن الحاجز الدينى بينهم ، وكما كان النوع البالغ العداوة للمسلمين درجات ، فكذلك هذا النوع القريب من المسلمين درجات فى قربه وفى مودته ، والقرآن يجعـل النصارى فى مجموعهم أقرب هـذا النـوع الى المسلمين قربا ومودة ، ولكن هذا الوضع فى حقيقته لا يدل على خلق معين فى النصارى ، لأن الحب أو الكره كلاهما ليس دليـلا عـلى حسن خلق أو سـوئه ، فليس كل من عاداك سىء الخلق لأنه يكرهك ، وليس كل من صادقك حسن الخلق لأنه يحبك ، بل قد يكون الحكم بالعكس فيكون محبوبك سىء الخلق ومكروهك حسن الخلق ٠ أما الذى يدل عـلى أكثر من ميزة فى خلق

---

(٦٦) ٧٤ سورة البقرة ٠

النصارى فهو ما شهد به القرآن بعد ذلك ، حيث يشهد القرآن لهم بفضيلتين تترتب احداهما على الأخرى :

١ ـ احداهما التواضع الذى يحمى نفوسهم من احـدى أسوأ الصفات وهى الكبرياء ·

٢ ـ والميزة الأخرى هى انحيازهم الى الحق وعدم جحوده حين يتضح لهم ، حيث ان التواضع يجعل نفوسهم اقرب الى التجرد من الكبرياء التى تدفع صاحبها الى التمسك بموقفه مهما يكن باطلا ، لأنه يتصور أن تخليه عن موقفه ولو كان باطلا سـيضعف مكانته وينزل بقـدره ، وفى القـرآن عن مضمون هذا قوله تعالى :

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنـوا اليهـود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصـارى ذلك بأن منهم قسيسـين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، واذا سمعوا ما أنزل الى الرسـول ترى أعينهـم تفيض من الدمـع مما عرفوا من الحق يقـولون ربنـا آمنـا فاكتبنـا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين)(٦٧) ·

فالسياق يوضح أن وصف **(لا يستكبرون) ليس موجهـا** الى القسيسين والرهبان وانما الى **(الذين قالوا انا نصارى)** وبالتالى فان ما يلى ذلك موجه اليهم أيضا ، بمعنى أن المزايا التى ساقها القرآن ليست قاصرة على القسيسين والرهبـان وانما هى لعموم النصارى ·

والواقع المشاهد فى التاريخ كله حتى اليوم يؤكد صدق القرآن ، فلازال اليهود منذ بدء الاسلام حتى اليوم هم أشـد

---

(٦٧) ٨٢ وما بعدها سورة المائدة ·

الناس على الاطلاق عداوة للمسلمين دون أى سبب يدعوهم الى هذا الحقد الشنيع ، بينما النصارى فى مجموعهم وبصرف النظر عن الشاذين منهم هم أقرب الطوائف والمذاهب الى المسلمين وأقلهم عداوة وبغضا ، ولا زلنا نجد فى كل حين وفى كل مكان من العالم من يصغون الى القرآن والاسلام من النصارى فحين يتبينون الحق فيه يسارعون الى الايمان به ، وان بعضهم ليعرض نفسه فى سبيل ذلك الى كل صنوف العذاب بل الى الموت فلا يصده ذلك عن اعلان ما أيقن به من الحق فى الاسلام ، وهو تصديق لقوله تعالى :

(واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا) ٠

ومن أشد ما يبهرهم من الحق فى القرآن انصافه ، كما يجدون من انصافه لمريم وللمسيح ، ومن أمثلة ذلك ما هو مشهور من أن اسلام النجاشى ملك الحبشة فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم واسلام من معه كان بسبب استماعه الى قصة مريم فى القرآن ، فقد كان يتوقع من دين جديد كالاسلام ان يشوه كل ما سبقه ، وكل ما حوله ، أو أن يقول شيئا من النكر والفحش الذى تقوله اليهود فى مريم وفى المسيح وفى غيرهم ، ولكنه يفاجأ بأن قرآن محمد ينصف مريم انصافا لا يقل عن انصاف الانجيل اياها انلم يتجاوزه ، وهو يضع المسيح فى أعلى قمة يوضع فيها مخلوق ، وهكذا من نواحى الانصاف الواضح فى القرآن ، ولذلك يروى أن النجاشى قال حينئذ والله ان هذا القرآن والذى جاء به المسيح ليخرجان من مشكاة واحدة ٠

وفى نحو من ذلك كان وفد نصارى نجران الذى وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ٠

فموقف القرآن من النصارى اذن مثال أيضا من أمثلة انصاف الخصم فى القرآن ٠

حرية المناظرة

من روائع انصاف الخصم فى القرآن الأمثلة العـديدة التى يضربها القرآن لتأكيد حق الخصم فى الاحتفاظ بكامل حريته فى عرض وجهة نظره ، مهما كانت عـداوة هـــذا الخصم ، ومهما كان خطأ موقفه أو بطلان وجهة نظره ، وان تطل حـرية الخصم الكاملة قائمة ومحميـة حتى يثبت خطأ موقفه ٠

واذا كان المألوف فى أحسن أعراف الناس أنه لا قضـاء الا بعد تحقيق ، ولا حكم الا بعد دفاع ، فان القرآن قد سبق كل هذه الأعراف بابراز هـذه المبـادىء ، وجعلهـا نماذج واضحة من خلال الأمثلة العديدة التى يضربها ، بمعنى أنه اذا كان من خير ما توصـلت اليـه عدالة قوانين البشر انه لا تصح محاكمة شخص مهما كان جرمه الا بعد التحقيق معه لبيان وجهة نظره فيما صدر منه بصرف النظر عن سـلامة وجهته أو خطئها ، كما أنه لا يصح أيضا الحـكم عـلى هـذا الشخص ولو كان معترفا بجرمه الا بعد أن يتـاح له الدفاع عن نفسه ، فان القرآن هو الذى ضرب أوضح الأمثلة وأبلغها فى هذه المبادىء قبل كل هذه القوانين ٠

ومن بدهيات القرآن بالقياس الى كل مؤمن به أمران :

١ ـ أولهمـا أنه المعلـم الأول والأكبر ، بمعنى ان كل ما ساقه الله فيه انما سيق ليكون تعليما ومنهاجا يسـير عليه المؤمنون ، فواجباته ملزمة لكل فرد ، ومستحباته يلتزم منها كل مؤمن جهد استطاعته ، وبمقدار عمق ايمانه ، وقد كان المثل الكامل لتطبيق القرآن هو الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يوصف بأنه قرآن يمشى على الأرض ، أو كمـا وصفته زوجه عائشة حين سـئلت عن خلق النبى فقالت كان خلقـه القرآن ، بمعنى أنه كان تطبيقا عمليا كاملا لكل ما دعا اليه القرآن •

٢ ـ وثانيهما ان القرآن هو الدستور الجامع لمبادىء الاسلام وأسسه التى لا يملك مسلم ان ينازع فيها مهما يكن انتماؤه الدنيوى الى حزب أو مذهب ، لأن أسس الاسلام التى وردت فى القرآن بالذات مرتبطة بالعقيدة نفسها ، فاى انكار لهـا هو اخلال بالعقيدة الاسلامية وخـروج عليهـا ، مع مراعاة الفارق بين الانكار والتقصير فى الأداء ، فالمعترف بهـذه الأسس اعتراف ايمان بها فهو فى حيز الاسلام وان وصـف بالعصيان ، بخلاف المنكر لها أو المتشكك فيها فانه يخرج من دائرة الايمان •

وننتهى من هذا التمهيـد الى نتيجة ذات أهميـة كبيرة لموضـوعنا ، وهى أن كل ما يعرضـه القرآن من أمثلة وان كانت تبدو فى ظاهرها مجرد قصص أو أحداث تاريخيـة ، الا أنها تمثل منهجا للاسلام ، وصورة من مبادئه التى صيغت فى أمثلة عملية تطبيقية ، وهذا أمر معروف •

ونعنى من هذه الأمثلة التى تدخـل فى نطاق (حـرية المناظرة) أن من مبادىء القرآن التى تكرر ضرب الأمثلة لها أنه لا عقاب الا بعد انذار ، بحيث تقوم الحجة عـلى المعاقب أنه يستحق العقاب ، ومن المبادىء النظرية لهذا فى القرآن :

(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) (١) •

فالرسول يبين لهم الحق من الباطل فى وضـوح ، فحين يتركون الحق ويختارون الباطل يكونون قد أوجبوا عـلى انفسهم العقاب •

ومن هذا المحيط ما نحن فيـه من حـرية المنـاظرة أو المحـاورة ، فان من البدهيـات لدى أى مـؤمن أن أوامر الله لا ينبغى أن تعصى لأن أوامـر الله هى الحـق الذى لا ريب ولا لبس فيه ، وعصيانها هـو الباطل الذى لا ريب أيضـا ولا لبس فيه •

وكذلك أوامر رسل الله فيما يتعلق بالدين ، فان الرسول مبلغ عن الله ، فطاعته طاعة لله ، وعصيانه عصيان لله ، وفى القرآن :

(من يطع الرسول فقد أطاع الله) (٢) •

ومن الواضح أن العاصى يصبح خصما لله فكان المنتظر أن من يتعمد عصيان الله أو رسوله بعد وضـوح الحق له أن يحكم عليه بالعقاب بصرف النظر عن تعجيل هذا العقاب أو تأجيله •

ولكن القرآن يؤكد مبدأ عدم محاكمة الجانى أو الخصم الا بعد التحقيق معه فى صورة مناظرة أو حـوار ، وعـدم الحكم عليه الا بعد ثبوت الجريمة عليه ، وفى خـلال هـذا يتيح القرآن لخصمه الحرية الكاملة فى أن يقول ما يشاء مهما كان قوله باطلا ، ومهما كان فى قوله من مساس برسل الله ، بل وبذات الله سبحانه ، مما يوضح أن القرآن يجعل هـذه الحرية حينئذ حقا للخصم ، ومن انصافه أن يمنح له حقه •

ومن أروع ما يملأ النفوس والعقول من هذا المجال أن يضرب الله سبحانه الأمثلة بذاته هو ، بحيث يجعل نفسه طرفا

---

(١) ١٥ سورة الاسراء •

(٢) ٨٠ سورة النساء •

مباشرا فى الخصومة ، ويتيح لخصمه فى المحاورة أو المناظرة حريته كاملة حتى يثبت اصراره على الباطل بعد وضوحه ، بل ينوع الله سبحانه هذه الأمثلة ، بحيث يكـون الخصـم فى بعضها عدوا لله يصر على معاندته اياه ، وفى بعضها يكـون الخصم من أولياء الله لمجرد خلاف فى الرأى بينه وبين الله ، متيحا له أيضا حريته فى الخلاف فى الرأى حتى يتضـح له وجه الحق ٠

ومن هذه الأمثلة :

بين الله سبحانه وابليس :

وقمة التطبيق العملى لابراز انصـاف الخصم ، وحماية حريته فى اثناء المناظرة تبـدو فى قصـة المناظرة بين الله سبحانه وابليس ، فمن بدهيات الايمان بالله أن الكـون كله بكل مافيه لا يملك ولا يستطيع أن يغالب الله أو يستعصى على شىء يريده سبحانه ، فهـو يملك أن يدمر كل شىء بالارادة المحضة ، دون حاجة الى جهد أو عون أو زمن ، فلماذا يعرض القرآن قصص الذين يتحدون الله ويعاندونه ؟ لا شـك انها دروس عملية لتطبيق مبادىء الدين ٠

وقد تجلت هذه المبادىء ضمنا فى قصة ابليس وتمرده على الله متحديا اياه ، فقد أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم حين خلقه ، وكان قد خلقه من طين ، وفى هذا اشارة الى أنه جسد مادى مرتبط بالأرض ، وليس مخلوقا روحانيـا سـابحا فى الفضاء كالمخلوقات غير المرئية ، بصرف النظـر عن كونهـا روحانية خيرة كالملائكة ، أو شريرة كالشياطين ، فسـجد المـلائكة جميعا طاعة لأمر الله ، الا ابليس أبى أن يسـجد ، متعمدا عصيان أمر الله ، ولم يكن عصيانه نابعا من ضـعف عزيمة أو جموح غريزة كبعض معاصى البشر ، وانما كان نابعا من أسوأ صفة يحملها مخلوق وهى الكبرياء ، حيث انها الصفة التى يخص الله بها نفسه ولا يسمح أن يشاركه فيها

أحد ، بخلاف سائر صفات الله فقد يكون لبعض البشر نصيب نسبى منها •

واذن فقد جمع ابليس فى موقفه هذا مغاضبتين شديدتين لله ، احداهما عصيان امر صريح منه ، وكان شذوذه عن الملائكة فى هذا العصيان زيادة فى جرمه ، لأن الذى يعصى بمفرده لا يكون عصيانه ظاهرا كالذى يعصى دون الجميع ، والثانية تكبره وتعاليه ، حيث جعل سبب عصيانه هو علوه عن آدم ، وسمو مادة خلقه عن مادة خلق آدم •

وهنا نحتاج الى تأمل ، حيث ان ابليس بهذا استحق غضب الله وعقابه ولم يكن له عذر قط ، فلماذا لم ينزل الله به عقابه ؟ ولو أن ذا سلطان فى الأرض ووجه بهذا التحدى لصب أشد عقابه على متحديه ، ولكن الله يريد أن يعلم الناس المبادىء السامية التى تصلح بها حياتهم ، ويبلغ هذا التعليم حد أن يضرب الله سبحانه بنفسه المثل •

فالذى حدث أن القرآن ذكر هذه القصة مرات عديدة ، وفى كل المرات على الاطلاق لم يصدر من الله لفظ واحد يدل على غضبه أو وعيده فى أثناء الحوار بل ولا انكاره حين أعلن ابليس عصيانه وتحديه أمر الله الصريح ، وانما فى كل مرة يذكر فيها عصيان ابليس وتمرده لا يزيد سبحانه عن أن يسأل ابليس سؤالا عاديا مجردا من أى غضب أو وعيد عن سبب عصيانه مثل :

(فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين ، قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك) ؟ (٣) •

ومثل :

(فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين ، قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين) (٤) •

---

(٣) ١١ سورة الأعراف •

(٤) ٣٠ سورة الحجر •

ومثل :

(فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس استكبر وكان من الكافرين ، قال يا ابليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدى ..) (٥) .

فكان كل تعقيب الله سبحانه على عصيان أبليس وتكبره رغم اعترافه بالعصيان والتكبر ان سأله عن السبب فيما صدر عنه ، ومن الواضح فى هذا انه تعليم للبشر ، وارساء لقواعد العدل بينهم ، فالجريمة قد تكون فى ظاهرها كاملة الجرم ، ولكن هناك احتمال أن يكون لدى مرتكبها دافع أضطره الى ارتكابها كالذى يسرق ليدفع عن نفسه هلاك الجوع ، أو الذى يقتل دفاعا عن نفسه ، فأى جريمة لا تعد لذاتها جريمة الا اذا كانت مقرونة بالعمد والقصد وانتفاء الاضطرار لارتكابها ، ولكن تعليم القرآن ومبادئه لا تقف عند هذا ففى القرآن من هذه القصة :

(اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، الا ابليس استكبر وكان من الكافرين ، قال يا ابليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت ام كنت من العالين ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، قال فاخرج منها فانك رجيم ، وان عليك لعنتى الى يوم الدين ، قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين ، الى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين ، قال فالحق والحق أقول ، لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) (٦) .

---

(٥) ٧٣ سورة ص .
(٦) ٧٠ وما بعدها سورة ص .

فكان حوار الله سبحانه مع ابليس عقب ارتكاب جـرمه يشبه التحقيق معه ، وقد تبين من هذا التحقيق اعترافه بقصد العصيان ، واعترافه بأن سبب عصيانه التعـالى والكبرياء ، والاعتراف كما يقال سيد الأدلة ، وقد كان ابليس حينئذ مع الملائكة فى رحمة الله وما يترتب عليها من نعيم ، فالعقـاب البدهى حينئذ أمران ، أحدهما طرده من رحمة الله ، والأخرى حلول العذاب به ، وقد صدر الحكم عليه بهذا ، ولكن عنـد تنفيذ الحكم نجد درسا آخر للقرآن من دروس التعـامل مع الخصم ، فان من المبـادىء النظرية التى تكرر ذكـرها فى القرآن ترغيب المعتدى عليه فى العفـو ، وعدم الانسـياق وراء الغضب ، بل ان القرآن يدعو الى ما هو أسمى من ذلك في التعامل مع الخصم ، وهو محاولة الاحسان اليه زيادة عن العفو ، وفى قصة ابليس نلمح جانبا أو شيئا من هـذا من جانب الله ، فقـد كان كل ما صبه الله عـلى عدوه ومتحـديه ابليس هو العقاب المعنوى ، المتمثل فى الطرد من رحمة الله ونعيمه وما يترتب عليه من اللعن ، ولكن العذاب أو العقوبة المادية التى يستحقها صـنيع ابليس لم تنفـذ ، بل أجلت ، وكان هذا التأجيل بناء على طلب ابليس نفسه ، وقد استجاب الله له رغم عدة عوامل منها :

١ ـ أن ما صدر من ابليس هو أكبر جريمة ، لأنها تحد مباشر لله من شخص كان يفترض أن يكون من أطوع المخلوقات لله •

٢ ـ طلب ابليس تأجيـل تنفيذ العقـوبة لم يكن التماسـا لرحمة ، أو تخفيفا للعقاب ، وانما طلب التأجيل ليرتكب به جريمة أخرى هي اغواء بنى آدم واضلالهم ، وأقسم ابليس لله أنه سيفعل هذا :

(فبعزتك لأغـوينهم أجمعين ، الا عبـادك منهـم المخلصين) •

وكانت لله حكمة أخرى في اجابته الى هذا •

٣ ـ طلب التأجيل لم يكن الى أمد قريب أو محـدود ، وانما كان هادفا الى يوم القيامة ، وقد أجابه الله رغم كل هذا الى طلبه :

(قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم)

فحلـم الله عن ابليس ، واسـتجابته له فيما طلب ليس رحمة من الله بابليس وان كانت رحمته فى الدنيا وسعت كل شىء ، وانما الواضح منه أنه تعليم للبشر ، وتطبيق عملى لما يدعو اليه القرآن من مبادىء نظرية ، واتخاذ الله ذاته مثـلا انما هو قمة التثبيت والتوضيح لهذه المبادىء ٠

٢ ـ بين الله والملائكة :

واذا كان المثال السابق بين الله سبحانه وأعدى أعدائه وهو ابليس ، فانه سبحانه يضرب مثالا آخـر ، ولـكن بينه وبين أطوع الطائعين له من خلقه وهم الملائكة ، وقد جعلهم الله فى هذا المثال طرفا فى خصـومة معـه ، وينبغى حينئذ ألا يحدث خلط فى الفهم بين العداوة والخصومة ، فان الخصومة لا تعنى أبعد من مجرد الاختلاف ، وقد يحدث الاختلاف فى الرأى بين صديقين فيصبحان خصمين مع عاطفة الود بينهما حتى يتبين وجه الحق فينحازان جميعا اليه ، ويصبحان رأيا واحدا ، من باب قول الشاعر :

٠٠٠ اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية

أما العداوة فهى تناقض الموقفين مع اصرار كل منهما على موقفه وانعدام عاطفة الود بينهما بل تحولها الى عاطفة بغض ، كما كان موقف ابليس مع الله ٠

أما الملائكة فكان موقفهم مجرد اختلاف فى الرأى مع الله سبحانه ، وما كان الملائكة ليضعوا أنفسهم فى هذا الموقف مع الله ، ولكن الله هو الذى وضعهم فيه ، ليضرب للناس أيضـا

مثلا رائعا من الأمثلة التطبيقية لمبادىء الاسلام ، وكان هذا المبدأ هو مبدأ الشورى ، الذى يجعله الاسلام واجبا فى كل أمر من الأمور العامة ، والأمور العامة يتــولاها ولاة الأمر والسلطة ، أى أن الشورى فى الاسلام واجبة على ولى الأمر فى كل شأن عام يمس حياة رعيته ومصلحتها ، ولذلك يجعل الله رسوله قدوة فى ذلك ، فيأمره بالشورى أمرا :

(وشاورهم فى الأمر) (٧) ٠

رغم ما عليه الرسول بتكوينه الذاتى من عقل وحــكمة يجعلانه أعلى من مستوى غيره على الاطلاق بصرف النظر عن كونه رسولا ، ثم هو بصفة النبوة متصل بالله ، وضـــامن أن يوجهه ربه الى الصواب اذا مال الى خطأ فى الرأى ، ولــكن الله يريد أن يجعله فى هذا نموذجا عاديا لأى ولى أمر ، فيأمره بالشورى ، ليكون هــذا الزاما لغيره من ولاة الأمر من باب أولى ، وأيضا يجعل القرآن الشورى صفة من صفات المؤمنين فيما بينهم :

(وأمرهم شورى بينهم) (٨) ٠

هذا فضلا عن جعل الشورى عنوانا واسما لســورة من سور القرآن هى سورة الشــورى حتى يكــون مدلولها ماثلا دائما فى نفوس المسلمين ٠

ومن هذا القبيل كان ضرب القرآن هــذا المثــل بين الله والملائكة ، حيث تبلغ قمة ابراز أهمية الشورى بين الناس أن يضرب الله سبحانه بذاته مثلا فيها ، فيجعل ذاته طرفا فى خصومة يختلف فيها الرأى بينه وبين الملائكة فى خلق آدم ٠

وذلك أن الله حين أراد خلق آدم وهو من الأمور العامة فى الكون ، لأن بنيه سيستمرون جزءا من الكون بصفة عامة ومن الأرض بصفة خاصة الى يوم القيامة ، فكأن الله أراد أن

---

(٧) ١٥٩ سورة آل عمران ٠

(٨) ٣٨ سورة الشورى ٠

يستشير الملائكة فى هذا ، وهم أخلص المخلوقات نصحا وأبعدها عن التضليل ، لتكون استشارة الله توجيها لولاة الأمر الى الاستشارة ، وليكون اختيار الملائكة للاستشارة توجيها الى اختيار المستشارين المخلصين المجردين عن النفاق وطلب المنفعة ، فقال سبحانه للملائكة :

(انى جاعل فى الأرض خليفة)

وكأنه يقول لهم فما رأيكم فى هذا ؟ لانه لولا هذا ما كان للملائكة أن يتدخلوا أو يبدو رايا ، ومن مضمون القصه يبدو واضحا أن الله أطلع الملائكة بأية وسيلة على طبيعة آدم وذريته وصفاتهم وسائر أحوالهم العامة ، ولولا هذا أيضا ما كان للملائكة ان يبدو رأيا فى شىء يجهلون حقيقته ، وما كان الله سبحانه ليطلب منهم الرأى حينئذ أصلا، ومضمون القصة يشير الى أن الأرض كانت عامرة بالمخلوقات وأمورها منظمة مستقيمة ، لأن الملائكة حددوا ان الذين سيفسدون فى الأرض هم بنو آدم أى دون غيرهم ، ومفهوم هذا أن الأرض كانت قبلهم عامرة مستقيمة الأمور ، وهذا ما يؤيده البحث العلمى حيث من الأمور العلمية الواضحة أن آدم هو أحدث المخلوقات فى الأرض وأقصرها تاريخا عليها بل ان تاريخ بنى آدم فى الأرض فى غاية القصر بالقياس الى المخلوقات الأخرى ، فاذا كان عمر الآدميين فى الأرض يقاس بعشرات الآلاف من السنين ، فان أعمار غيرهم تقاس بمئات الملايين أو آلافها أو مالا يحصيه الا الله .

وحين أعلم الله الملائكة بطبيعة آدم وبنيه فزعوا من بعض ما علموه منها ، ويكفى للفزع أن يعلموا أن آدم وبنيه يمكن أن يعصوا الله ، فهذا مالا يمكن للملائكة أن يفكروا فيه، على أن بعض عصيان بنى آدم سيصل الى حد سفك الدم ، وقد أصبح الملائكة فى موضع المستشار الذى يطلب منه الصدق فى النصح ، ولو كان الملائكة حينئذ من بنى آدم ، أو يفكرون كما يفكر غالبية المستشارين من بنى آدم لأسرعوا الى تملق صاحب السلطة العليا وكسب رضاه بالموافقة على

موقفه مهما يكن رأيهم فيه ، ولكن الملائكة لا يعرفون الكذب ولا النفاق ولا يهدفون الى منفعة شـخصية ، فاذا صدق النصيحة يحملهم على مخالفة الله سبحانه فى الرأى ، مع أنه يقول :

(انى جاعل فى الأرض خليفة) .

بمعنى أننى قضيت هذا ، ولم يقل سأجعل أو أريد أن أجعل مما يعنى أن الموضوع لم يصبح أمرا مقضيا ، ولـكن تعبير الله اليهم كان أمرا مقضيا ، ومع ذلك دفعهم الاخلاص وصدق النصح أن يعبروا عن رأيهم بصراحة ووضوح ، فاذا هم يخالفون الله فى الرأى ، مستنكرين أو متعجبين كيف يفعل الله هذا ، ولم يترددوا فى أن يواجهوا الله سبحانه بهذاالتعجب قائلين :

(أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) ؟

وكأنهم عرفوا فيما عـرفوا عن بنى آدم تميزهـم عن مخلوقات الارض بالادراك العقلى ، فكأنهم أيضـا قالوا لله سـبحانه اذا كانت كل مخلـوقات الأرض لا تكفى لعبادتك وتسبيحها اياك كما تفعل ، وتريد سبحانك مخلوقات عاقلة تسبح بحمدك فها نحن أولاء عقلاء ونسبح بحمدك ونقدس لك ولا يصدر منا ما يصدر من بنى آدم من عصيان لك ، ومن افسـاد فى الأرض ، فلمـاذا لا تسـتخلفنا نحن فى الأرض لتحافظ على صلاحها وطهرها ؟

وكأن الله يقول للملائكة حينئذ : انكم نظرتم الى الجانب السىء فى بنى آدم ، ولم تنظـروا الى جانب أسـمى فيهم ، لا ينافسـهم فيـه شىء من مخلوقات الأرض ولا أنتم ، ولو علمتم ما فى بنى آدم من مزايا على سـوء ما فيهم ، لامتلأتم اكبـارا لهم ، واسـتصغارا لأنفسـكم بالقيـاس اليهم فى مجموعهم .

ومن جوانب العبرة فى القصة كأن الملائكة لم يقتنعوا بقول الله سبحانه ، لأن المثل الذى ضربت له القصـة يقتضى

هذا ، فان المستشير لا يكفى أن يعتمد على سلطانه أو على حسن منطقه وأسلوبه ليتخذ من ذلك ضغطا على المستشارين حتى يرضخهم لرأيه مصورا فى ظاهر الأمر أنه استشارهم، كما يفعل بعض ذوى السلطة فى جمع مستشاريه ثم يعرض عليهم رأيه فى صورة لا تتيح لهم حرية الرأى أو الاعتراض .

ولكن الله لا يريد الشورى الصورية وانما يريدالشورى الحقيقية التى يتاح لكل مستشار فيها أن يبدى رأيه النابع من يقينه فى صراحة ووضوح مهما كان مخالفا للمستشير ، كما فعل الملائكة فى هذا المثال ، ولكن الملائكة فى المثال لم يقتنعوا بقول الله ، لأنهم لو اقتنعوا عن يقين بقول الله :

(انى أعلم مالا تعلمون) .

لأعلنوا موافقتهم ورضاهم وتأييدهم لخلق آدم ، ولكنهم لم يعلنوا هذا فكان لابد أن يصل الله بهم الى درجة الاقناع واليقين ليوافقوه ، ومفهوم هذا المثال التصويرى أن الله سبحانه اما أن يقنعهم ليوافقوه عن يقين ، واما أن يوافقهم هو على رأيهم ، لأنهم سيكونون افتراضا هم الذين على الصواب .

واذا الله سبحانه يكمل روعة المثال بأن يصل فى اقناعهم الى حد أن يجرى مسابقة علمية بينهم وبين آدم ، والمسابقة فى حقيقتها بين رأيه هو سبحانه ورأى الملائكة ، ولا يعنينا تفصيل موضوع المسابقة الذى كان موضع خلاف بين العلماء دون ضرورة للخلاف ، فليس تفصيل الموضوع هو الهدف فى القصة ، وانما الهدف هو ابراز مزايا معينة فى بنى آدم لا تتوافر فى الملائكة ، ولا نريد أن نخرج عن مسار الموضوع لندخل فيها ثم لا نخرج منها باضافة شىء ذى أهمية الى القصة ، وانما الذى يلفت النظر هو العدل الواضح فى المسابقة حيث لم توضع للملائكة أسئلة ، ولآدم أسئلة أخرى، مما يثير فى الوضع البشرى احتمال التحيز لأحد الطرفين فى مستوى الأسئلة ، وانما كانت الأسئلة موحدة ، عرضت على

الملائكة ، وهى بعينها عرضت على آدم ، فاذا الملائكة يعترفون بعجزهم عن الاجابة عليها ، والاعتراف بالعجز أبلغ فى الدلالة من مجرد العجز ، واذا آدم يجيب عن هذه الأسئلة اجابة تكشف عن قدرات هائلة مذهلة لديه وأصبح الفرق شاسعا بين من لا يعرف شيئا من الاجابة ، ومن يعرف الاجابة فى أكمل صورها ، وعندئذ علم الملائكة علم اليقين والتجربة العملية حكمة الله فى خلق آدم ، واستخلافه اياه دونهم ، وأصبحوا مهيئين لكل صورة من صور التكريم والتبجيل لهذا المخلوق الجديد ، ولذلك حينما أمرهم الله بالسجود لآدم خروا عن اقتناع نفسى زيادة عن طاعة أمر الله ، وكان سجودهم بداهة سجود التعظيم كما يفعل بعض الناس فى تحية الملوك، وليس سجود عبادة ، ولا يلزم أن يكون هذا السجود بالأعضاء كسجود الصلاة ، فانالملائكة ليس لهم أعضاء مادية ، فالسجود انما هو رمز للشعور بتعظيم المسجود له ، واستصغار الساجد نفسه بالقياس الى المسجود له ، فاذا تحقق هذا حتى بمحض الشعور القلبى كان سجودا ، ولذلك كان من اصطلاحات الصوفية فى هذا المعنى نفسه (سجود القلب) بمعنى أن للقلب سجودا لله كسجود البدن .

وهذه القصة فى القرآن :

(واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) (٩) .

---

(٩) ٣٠ وما بعدها سورة البقرة .

والمفسرون يدركون الهدف التعليمي لهذه الأمثال الكثيرة التي يضربها القرآن ، ومن ذلك قول الزمخشري فيما قال عن أهداف هذه القصة (ليعلم عباده المشاورة في امورهم قبل أن يقدموا عليها وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم) وان كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيا عن المشاورة) (١٠) ٠

واذا أردنا نقاطا محددة من العبرة في هذا المثل فان من أبرز هذه النقاط :

١ ــ لا أحد يعلو على المشورة مهما بلغ من السلطة ، أو العلم أو الحكمة فهذا هو الله بكل جلاله يستشير ، فمن الحكمة أن يلتزم كل امرىء المشورة ، فان كانت في أمر خاص به كانت حكمة وسدادا ، وان كانت في أمر عام كانت واجبة لأن له في هذا الأمر شركاء في مساس هذا الأمر بهم ، فمن حقهم أن يستشاروا فيه ٠

٢ ــ ينبغي أن يختار للاستشارة الناصحون المخلصون ، وأن تتاح لهم الحرية الكاملة في ابداء رأيهم الذي يرونه دون أي تأثير أو ضغط أو توجيه ، كما فعل الله في اختيار الملائكة دون غيرهم ، مع أن الله يملك أن يخاطب السموات والأرض وما فيهما خطابا حقيقيا، ويحاورهما حوارا حقيقيا أيضا ، فيمكن أن يقال مثلا واذ قال ربك للسموات والأرض اني جاعل في الأرض خليفة ، كما قال تعالى :

(انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فابين أن يحملنها واشفقن منها) (١١) ٠

ولكن الله اختار الملائكة ليستشيرهم لأنهم عنوان الصفاء والاخلاص والتجرد عن طلب المنفعة ٠

٣ ــ في مقابل هذا يجب على المستشار التزام الأمانة والصدق في ألا يدخر وسعا في تلمس وجه الحق والصواب فيما يستشار فيه من جهة ، ومن جهة أخرى أن يعلن في

---

(١٠) تفسير الكشاف شرح الآية الأولى من هذه القصة ٠

(١١) ٧٢ سورة الأحزاب ٠

وضوح وقوة ما وقر فى نفسه ازاء هذا الأمر دون التأثر بأى عامل خارج يقينه وضميره مهما كانت الظروف من حوله ، كما فعل الملائكة حيث لم يدخروا جهدا فى دراسة طبيعة آدم واستنتاج النتائج منها من جهة ، ومن جهة أخرى فانهم بلغوا من القوة والاخلاص أن عارضوا الله سبحانه ، لأن الموقف ليس موقف عبادة أو طاعة ، وانما هو موقف أمانة الاستشارة فالواجب حينئذ يحتم عليهم ابداء رأيهم بصرف النظر عن موافقته أو مخالفته للذى يستشيرهم ، وبصرف النظر عن أن يكون الذى يستشير شخصا عاديا أو ذا سلطان ولو كان سلطان قهار السموات والأرض •

٤ ـ انصاف الخصم واضح فى هذا المثل الذى ضربه الله سبحانه ، فحيث أصبح الملائكة خصما لله فى الرأى ، فان الله أبرز انصافهم واعطاءهم كل حقوق الخصم ، ومن أوضح هذه الحقوق حرية الرأى فى أثناء الخصومة ، وحرية التعبير عن هذا الرأى ، وليست هناك حرية فى الرأى فوق أن يروا رأيا مخالفا لله سبحانه ، وليست هناك حرية فى التعبير عن الرأى فوق أن يعلنوا رأيهم المخالف لله فى مواجهته هو سبحانه •

وليست هناك وسيلة لتعليم البشر ، وتثبيت المبادىء فوق هذا المنهج العملى التطبيقى ، الذى يتخذ من ذات الله سبحانه مثلا وتعليما •

٣ ـ بين الله والناس :

وحتى تكتمل نماذج التعليم للبشر فان الله يتخذ أمثلة من كل مخلوقاته التى تتصور منها الخصومة سواء فى العداوة وفى الرأى ، وهى أمثلة كثيرة فى القرآن يكفى مثال واحد منها لكل نوع ، كما رأينا فى مثال ابليس لخصومة العداوة ، وكما رأينا فى مثال الملائكة لخصومة الرأى ، وكيف كان انصاف الخصم فيهما •

واذا كان ابليس وكذلك الملائكة من المخلوقات التى لا يدركها الناس بحواسهم فقد ضرب الله أمثلة من الناس ، فمن أمثلة خصومة العداوة فى الناس مثال هذا الكافر المعادى لله الذى مر على قرية مدمرة ، وكان قد سمع عن البعث واحياء الله الموتى فأنكره ، فحين رأى هذه القرية المدمرة التى يروى أنها بيت المقدس بعد أن خربها بختصر كأنه وجد فيها مثالا فى نظره لاستحالة البعث واعادة الحياة لما هلك ودمر ، وكأنه أراد أن يشمت بالذين يعتقدون فى البعث حين وجد فى زعمه دليلا يفحمهم به فقال :

(أنى يحيى هذه الله بعد موتها) ؟

وبذلك أصبح خصما عدوا لله ، ومن اليسير على الله أن يعاقبه أو يهمله حتى يحين موعد العقاب ، ولكنه أراد أن يتخذ منه مثلا فى الخصومة ، فلم يظهر غضبا عليه ، أو عقابا له ، بل مادام خصما فمن حقه أن تكفل له حريته فى أثناء الخصومة حتى تثبت عليه الحجة بوسيلة مقنعة ، اما عقلية ، واما عملية ، وقد اختار الله له وسيلة عملية لاقناعه ، بل اختاره هو ليطبق عليه اثبات حقيقة البعث بعد الموت ، فأماته الله مائة عام ، وتكفل له خلال المائة عام بحمايته وحماية ما يملكه حتى طعامه ، ثم بعثه فى قصة معروفة فى القرآن ، والذى يعنى هذا الحديث منها أن هذا الخصم العدو لله نال حقه من انصاف الخصم وحمايته فى أثناء الخصومة حتى يتضح الحق ، ومادام الله يريد أن يثبت له البعث عمليا ، فان الحق لا يتضح حينئذ الا بعد وقوع البعث عمليا ، وقد حفظه الله وحماه رغم كفره حتى بعثه من الموت ، وبعثه هو الحجة القاطعة على حقيقة البعث ، وحينئذ يكون الحق قد وضح ، فاما أن يستجيب للحق ويؤمن به ، واما أن يجحد الحق الواضح فعندئذ ترفع عنه الحماية والحصانة ويستحق العقاب ، ولكنه أيقن بما رأى واختار الايمان ، وهذه القصة هى :

(أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يـوم قال بل لبثت مائة عام فانظـر الى طعـامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحمـا فلما تبين له قال أعلم أن الله عـلى كل شىء قدير) (١٢) ٠

ومعنى لم يتسنه لم يفسد أى أنظر الى طعامك الذى ظل طازجا مائة عام لم يفسد ٠

٤ ــ بين الله وأنبيائه :

وكما ضرب الله سبحانه المثل بأوليائه من المخلوقات غير المحســوسة لنا كالمـلائكة ، فكذلك يضرب المثل بأوليائه من المخلوقات المحسوسة ، حيث يجعـل بعضهم ، بل يجعـل من صفوتهم كالأنبياء خصوما فى الرأى ليـكون ذلك تعليمـا للناس فى جـوانب عدة أبرزها أن الخصـومة لذاتها ليست اثما ولا عيبا ، ولا ضير على من يزاولها ، وانما الضـير كل الضير على من يجور فيها على حقوق الخصومة ، أو على حقوق الخصم ، وأهم حقوق الخصومة الرضوخ للحق فور ظهوره ، وأهم حقوق الخصم حريته فى أثناء الخصومة حتى يتضـح الحق ٠

موقف ابراهيم :

وممن ضرب الله بهم المثل ابراهيم عليه السلام :

وابراهيم له مزايا لم يوصف بها أحد قط سواه ، منهـا ما وصفه به ربه سبحانه من أنه خليله فى قوله :

(واتخذا الله ابراهيم خليلا) (١٣) ٠

---

(١٢) ٢٥٩ سورة البقرة ٠
(١٣) ١٢٥ سورة النساء ٠

ومنها قوله :

(ان ابراهيم كان أمة) (١٤) ٠

ومنها ما هو متداول معروف من أنه (أبو الأنبياء) ومع ذلك فقد جعله الله خصما فى نوع من الراى ، ولم يكن رايا عاديا وانما كان رأيا يتعلق بأخطر ما دارت حوله الصراعات بين الأنبياء وشعوبهم وهو البعث ٠

وذلك أن ابراهيم مع أنه لا شـك فى أنه كان أرسـخ النـاس ايمانا ويقينـا الا أنه يطلب من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، والسؤال من ابراهيم يتضمن بداهة ان يقينه بالبعث لم يكن كامل الوضوح فى نفسه والا لما توجه الى ربه بالسـؤال ، ولذلك يقـول له ربه (أولم تؤمن) ؟ فيقـول ابراهيم : (بلى) أى بلى آمنت (ولكن ليطمئن قلبى) وينبغى أن نلحظ أن القرآن كثيرا ما يستعمل القلب بمعنى العقـل أى فى الدلالة على الادراك العقلى نحو :

(لهم قلوب لا يفقهون بها) (١٥) ٠

كما يستخدمه أحيانا فى الدلالة على المشاعر المتعلقـة بالقلب المعروف نحو :

(سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) (١٦) ٠

وذلك لأن الايمان بالذات لا يتحقق الا باجتماعهما فيه والأمثلة للنوعين كثيرة فى القرآن ، ومن هـذه التفرقة فى الدلالة يتضح موقف ابراهيم فان مشاعر ابراهيم وعواطفه نحو الله وبالتالى ثقته فى الله وفى كل ما أمر به أو أخبر عنه لا يمكن أن تشوبها أدنى شائبة ، فقلبه العاطفى لا يمكن أن تحدث فيه أدنى وسوسة أو تساؤل ، ولذلك وصـفه القرآن بالسلامة :

(وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم)

---

(١٤) ١٢٠ سورة النحل ٠

(١٥) ١٧٩ سورة الأعراف ٠

(١٦) ٨٤ سورة الصافات ٠

ولكن قلبه الادراكي أى عقله بما فيه من عبقرية لا حدود لها مما أفاض القرآن في حديثها في مواضع عديدة لابراز آثارها لابد أن يقلب كل شيء في كل وجوهه وكل احتمالاته ، ومن الاحتمالات العقلية التي لا يستطيع عقل سليم أن يغالبها الشك في أي أمر نظري أي غير محسوس . بل ان بعض الفلاسفة يتجاوز في الشك مرحلة الأمور النظرية فيفترض الشك في المحسوسات ، ولسنا نريد الخوض في هذا وانما نقول ان من الاحتمالات العقلية المعروفة لدى أصحاب العقول الكبيرة الشك ، وكان ابراهيم قمة العبقرية العقلية كما يدل على ذلك منهجه في الحوار مع كل من حاورهم ، فلم يكن غريبا أن يكون هو اول واضع لمنهج الشك في البحث العقلي وان يكون تساؤله عن البعث من محيط هذا الشك على أن التفرقة بين اليقين القلبي واليقين العقلي أمر غير غريب في واقع الحياة ، فقد يقول لك شخص مثلا ان الجبل قد سقط ، وهذا الشخص موضع الثقة الكاملة عندك ، فأنت لا تشك في صدقه ، ولا يخطر في بالك أن تكذبه ، ولكن الخبر نفسه يظل في موضع الحيرة من عقلك ، كيف يسقط الجبل ؟ وتظل تتصور في عقلك كيفية سقوطه وأسبابها ، فلا تجد في عقلك صورة مقنعة لك كل الاقناع لغرابة كل صور سقوطه في خيالك مع يقينك بصدق من أخبرك بسقوطه .

وهكذا كان حال ابراهيم ، ليس من الوارد في نفسه اطلاقا الشك في صدق خبر البعث ، ولكن طبيعة عقله المفكر الباحث الذى يقوم على الافتراض والاستدلال والاستنتاج لا يجد في خياله ووجدانه صورة مقنعة لعودة الحياة بعد انعدامها : فلجأ الى ربه بالسؤال :

(رب أرني كيف تحيي الموتى) ؟

والدليل على أن شك ابراهيم لم يكن من زاوية عاطفية نحو الله وثقته في خبره ، وانما كان من زاوية الافتراضات العقلية أن صيغة سؤاله لم تكن عن مقدرة الله على البعث ،

وانما عن كيفية البعث ، فهو لم يقل مثلا رب أرنى قدرتك على احياء الموتى ، لأن هذا ليس موضع الشك والتساؤل ، وانما التساؤل عن كيفية البعث ..

(رب أرنى كيف تحيى الموتى) ؟

بمعنى أننى يارب موقن بقدرتك على البعث وبأن البعث حق ، ولكننى عاجز عن تصور الكيفية التى تحيى بها الموتى ؟ ولتقريب هذا الى الذهن أتذكر مثالا عن رجل كفيف كانت لديه مقدرة غير عادية على ضرب الأرقام بعضها فى بعضها ، فكان يسأل عن نتيجة ضرب خمسة أرقام مثلا أو ستة فى خمسة أو ستة مثلها ، فلا تستغرق العملية الحسابية فى عقله أكثر من لحظة أو لحظات خاطفة ، وقد أحضروا فى مواجهته ذات مرة عددا من أساتذة الحساب وكان ذلك قبل أن توجد عندنا الآلات الحاسبة ، فكانت توجه المسألة الحسابية فى الضرب الى هذا الكفيف والى أساتذة الحساب ، فاذا الكفيف فى اللحظة أو اللحظات الخاطفة يذكر الاجابة الصحيحة ، بينما يظل أساتذة الحساب وقتا غير قصير يحسبون بأقلامهم حتى يصلوا الى النتيجة ، فالحاضرون جميعا حينئذ ليس لديهم شك فى القدرة الحسابية النادرة لدى الكفيف لأنها ماثلة أمامهم ، ولكن الشك أو الحيرة تملأ نفوسهم عن الكيفية التى يتوصل بها هذا الكفيف الى النتيجة الصحيحة بهذه السرعة (١٧)

وكذلك ابراهيم لا يشك فى مقدرة الله على البعث ، ولا فى واقعية البعث وحتميته ، وانما يشعر بالحيرة تملأ نفسه فى تصور كيفية حدوث البعث واحياء الموتى ، ولذلك كانت صيغة السؤال صريحة عن الكيفية وليس عن المقدرة ذاتها .

(رب أرنى كيف تحيى الموتى) ؟

---

(١٧) هذا الكفيف كان يعمل مقيم شعائر فى أحد مساجد القاهرة .

وهذا يشبه ما يعبر عنه فى القضاء بالشكل والموضوع، فابراهيم مقتنع موقن بالموضوع ، ولكنه غير مقتنع بالشكل ولكن السامع العادى قد يخلط بين الشكل والموضوع فيفهم أن شك ابراهيم كان عن الموضوع ولذلك وضح القرآن استبعاد الموضوع فيما وجهه سبحانه الى ابراهيم من سؤال :

(أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) .

أى آمنت ولكن ليطمئن عقلى بصورة اليقين .

ولكن الذى يعنى هذا الحديث من هذا المثال ان أى شك من ابراهيم فى أى جانب يمثل نوعا من خصومة الرأى بينه وبين الله سبحانه ، لأنه حين ينزل عن اليقين فى أى جانب ولو درجة صغيرة ، فانه فى هذه الدرجة يشترك مع المنكرين للبعث ، وفى هذه الدرجة نفسها يصبح خصما لله مثلهم ، غاية الأمر أن خصومته خصومة رأى واستعلام ، وخصومتهم خصومة عداء واصرار .

وهنا أيضا يبرز جانب انصاف الخصم فى القرآن ، فقد كان الظاهر يوحى بغضب الله من شخص أكرمه غاية الاكرام ، ورفعه فوق كل مقام وهو ابراهيم حين يبدى أى شك فى أى جانب مما أكده له ربه ، ولو أن الموقف موقف بشرى لكان يمكن أن يقال لابراهيم كيف تصلح أن تكون رسولا لهداية الناس واقناعهم بأمر أنت لست مقتنعا به ، وفاقد الشىء لا يعطيه كما يقال أو نحو هذا كثير .

ولكن الله سبحانه يريد أن يعلم الناس بكل الأساليب وكل الصور ، فيجعل ابراهيم يصبح خصما فى الرأى فلا يغضب الله منه ولا يلومه على شكه مادام قلبه مطمئنا بالايمان ، ويكفل له حق الخصم وهو الحرية فى أثناء الخصومة ، وتظل هذه الحرية مكفولة حتى تنتهى المحاورة حول موضوع الخصومة بظهور الحق فيها ، ولكن الله لا يجعلها محاورة نظرية ، لأن شك ابراهيم ليس فى الجانب

النظرى وانما فى الجانب العملى ، فيقيم الله له الدليل العملى كما وردت قصته فى القرآن :

(واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا وأعلم أن الله عزيز حكيم) (١٨) ٠

فقد أجرى الله له تجربة عملية حسية للبعث ، والحس وهذا يحمل عن العقل عبء الاستدلال فلم يعد العقل فى حاجة الى جهد ليرسم فى الخيال صورة للبعث يجعلها دليلا على واقعية البعث ، لأن هذه الصورة أصبحت ماثلة أمام العين بالتجربة المشاهدة لابراهيم ولغيره ٠

والزمخشرى يشير الى الجانب التعليمى فى الموقف فيقول :

(فان قلت كيف قال له أولم تؤمن وقد علم أنه أثبت الناس ايمانا قلت ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين) ٠

(بين الله ونوح)

ومن الأمثلة التى ضربها الله سبحانه ليتخذ فيها حتى من أكرم أنبيائه خصوما له فى الرأى ليعلم الناس فيما يعلمهم وخصوصا ذوى الجاه والسلطان ألا يضيقوا برأى مخالف ، بل ينبغى أن يفسحوا له فى صدورهم وعقولهم ، والا يعالجوا هذا الخلاف بمنطق الغضب من المخالفين ، ولا بمنطق السلطة والقوة فى حوارهم معهم ، بل يجب أن يكفلوا لكل ذى رأى مخالف حريته ، ثم يعتمدوا على الحجة والمنطق العادل المنصف

---

(١٨) ٢٦٠ سورة البقرة ٠

حتى يتضح الحق جليا ، فعندئذ يجب على المجانب للحق أن يثوب اليه دون تردد ، ومن هؤلاء الذين ضرب الله بهم مثلا من أنبيائه نوح عليه السلام ٠

نوح من صفوة رسل الله ، فهو من الخمسة الذين وصفهم الله بأولى العزم من الرسل كما سبق ، وموجز هذا الموقف الذى أراد الله أن يتخذه مثلا وأجراه على نبيه نوح ، أن نوحا ظل يدعو قومه الى الله بكل ما يملك من وسائل الدعوة ووسائل الاقناع وما كان أكثرها لديه ، ولبث فيهم يدعوهم عمرا طويلا لم يبلغه نبى ، بل ولا بشر معروف ، حيث يذكر القرآن :

(فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما) (١٩) ٠

ورغم غرابة هذا العمر في المألوف من أعمار الناس فانه لا يسوغ لمؤمن أن يستبعد شيئا على الاطلاق على قدرة الله ، ولا مانع أن يكون هذا العمر الخارق للعادة هو نفسه معجزة من معجزات نوح ، وخوارق الأنبياء فى معجزاتهم مألوفة فى كل العصور ، كما أنه لا مانع أن يكون العدد بذاته غير مقصود ، وانما المقصود أن نوحا عاش أقصى ما يتصوره العقل أو أطول ما يعرفه الناس من العمر ، من باب ما هو معروف من أن العدد المسوق فى القرآن للتضخيم أو للتقليل لا مفهوم له ، مثل :

(وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون)(٢٠)

فليس المراد عدد الألف حسابيا ، وانما المراد كأطول ما تعرفون من عدد السنين ، وكان رقم الألف عند العرب بحكم أميتهم هو أقصى ما يعرفون وما يضربون المثل بضخامته فالمراد بالألف الضخامة فى المدلول وليس الألف بالذات ، وفى التقليل مثل :

---

(١٩) ١٤ سورة العنكبوت ٠

(٢٠) ٤٧ سورة الحج ٠

(وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) (٢١) .

فليس مرادهم يوما بالتحديد ، وانما يريدون بعضا من الزمن أو أقل وقت ممكن من التخفيف حيث لا أمل لهم فى التخفيف اطلاقا ، ولذلك لم يدعوا هم وانما توسلوا الى ملائكة جهنم بهذا فالمراد باليوم القلة فى المدلول وليس اليوم بالتحديد فلو قيل لهم مثلا سنخفف عنكم نصف يوم فلن يرفضوا بل يفرحون وكذلك لو قيل لهم أكثر من يوم واذن فلا مانع أن يراد بالألف سنة فى عمر نوح أطول عدد مألوف فى أعمار الناس ، ويصبح الاستثناء حينئذ فى تعبير (الا خمسين عاما) لنفى توهم الخلود لنوح واسترسال الخيال فى توهم حياته آمادا تتجاوز نطاق الحياة البشرية ، فيصبح الاستثناء حينئذ ان صح هذا الاحتمال مجرد رمز لنقصان أعمار الناس ومنهم نوح وقصرها مهما توهمنا فيها الطول .

والذى يعنى هذا السياق من ذلك أن نوحا استنفد كل ما لديه من وسائل الدعوة ، واستنفد كل ما يؤمله من طول الزمن فى الدعوة فلم تثمر دعوته فيهم شيئا ، بل ان طول عمره أتاح له أن يعاصر أجيالا عديدة منهم (٢٢) فيدعوهم فكان كل جيل منهم أشد كفرا وفجورا من سابقه ، وحين استنفد كل وسائل الدعوة ، وكل مراحل الزمن ، وكل احتمالات الأجيال وصل الى اليأس الكامل الذى لا رجاء معه ولا أمل ، وأصبح لا ينتظر منهم على وجه اليقين الا الشر والفساد فى الأرض ، فأصبح وجودهم فى الأرض ضررا مؤكدا لا يرجى معه أو بعده أى أمل فى خير منهم أو من ذرياتهم ، وأكد الله له أنه لن يؤمن منهم الا من قد آمن (٢٣)

عندئذ فقط دعا نوح ربه أن ينقذ الأرض ، وينقذ القلة المؤمنة من شرهم ، فكان دعاؤه :

---

(٢١) ٤٩ سورة غافر .

(٢٢) يقدر الباحثون عمر الجيل بنحو ثلاث وثلاثين سنة باعتبار تداخل الأجيال .

(٢٣) ٢٦ وما بعدها سورة نوح .

(وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا) (٢٤) ٠

فقد طلب نوح محو الكافرين جميعا انقاذا لايمان المؤمنين ، فاستجاب له ربه وأمره ان يعد العدة لذلك ، وأعلمه أنه سيهلكهم بالغرق ، فعليه أن يعد لنفسه وللمؤمنين ولاعادة تعمير الأرض سفينة تنجيهم من الغرق ، فلما اكتمل صنع السفينة ، وحل موعد قضاء الله أمره الله هذا الأمر :

(قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما امن معه الا قليل)(٢٥)

وليس الهدف سرد تفاصيل القصة وانما نكتفى منها بما يقتضيه سياق هذا الحديث ، فمن سياق هذا الحديث هذا الوعد الذى وعد الله به نوحا ومنه أن ينجيه وأهله الا من سبق عليه القول أى سينجى معه أهله الا من لم يؤمن منهم ، والمراد بأهله أهل بيته اى أسرته ، وكان فى أسرته شخصان غير مؤمنين هما زوجه وأحد أبنائه ، وحين ركب نوح السفينة ركب معه أولاده والمؤمنون به ، الا زوجه وابنه غير المؤمن ، فقد انحازا الى قومهما على ظن أن قومهما سيكفلون لهما وسيلة النجاة ، أو يرشدونهما اليها ٠

وجاء أمر الله بالطوفان الرهيب وقبل أن يكتسح الطوفان كل شىء رأى نوح ابنه يريد أن يلحق بقومه الكافرين ، فثارت فى نفس نوح عاطفة الأبوة ، فأخذ يناديه ويناشده أن يقبل الى السفينة ليركب معهم قبل أن يطويه الطوفان الذى يعلم نوح أنه سيدمر كل شىء الا هذه السفينة ، فأبى ابنه وأصر على الانحياز الى قومه محتجا بأنه سيأوى الى جبل يعصمه من الغرق ، ونوح يؤكد له أنه لن ينجو من هذا

(٢٤) انظر الآية ٧١ سورة نوح ٠

(٢٥) ٤٠ سورة هود ٠

الطوفان الا من هذه السفينة ، وابنه مصر على الانحيز الى الكافرين دون أبيه ومن معه من المؤمنين ٠

وهنا نصل الى موضع الشاهد فى هذا السياق ، وهو ان نوحا فى هـذا المـوقف لابد أنه وقع بين صراعين رهيبين ، أحدهما سخطه بوصفه نبيا على موقف ابنه الذى يتعمد ترك جانب الايمان بما فيه أبوه منحازا الى جانب الكفر ، والآخر طغيان عاطفة الأبوة حين يرى ابنه موشكا عـلى الهـلاك ، وكلا الجانبين لابد أن يمثل فى نفس نوح ثورة مفاجئة من المشاعر والانفعالات ، ولنا أن نتصور كيف يكون الصراع بين موقف النبوة بكل جلالها وعاطفة الأبوة بكل عمقهـا فى غريزة الانسان ٠

ولا شك أن واجب نوح كان يقتضى حينئذ أن يستعصم بموقف النبوة معرضا عن عاطفة الابوة مهما كان سلطانها ، كما فعل ابراهيم حين عزم على ذبح ابنه بيده استجابة لامر الله ، ولكن سلطان عاطفة الأبوة فى نفس نوح تجاوز ما كان ينبغى له أن يقف عنده ، فاذا هو يحاول ان يتلمس من خلال رحمة الله سبيلا ينجى به ابنه ، فلجأ الى وعد الله الذى وعده وهو أن ينجيه وأهله ، ولكنه تناسى تناسيا أن وعد الله كان صريحا فى أنه لا يشـمل بعضـا منهم ، وأن موقف ابنـه واصراره على عصيانه يؤكد أنه ممن لا يشـمله وعد الله ، وما كان لنبى أن يلتبس عليه موقف كهذا ، فاذا هو يتجـه الى ربه تحت الحاح عاطفة الأبوة بهذا النداء :

(ونادى نـوح ربه فقال رب ان ابنى من أهـلى وأن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) ٠

وكأنه يقول يارب أنت وعدتنى أن تنجى أهلى ، وابنى من أهلى فأدعوك أن تنقذه من الغرق وفاء بوعدك ٠ فقـد تغلبت عاطفة الأبوة اذن فى نفس نوح على موقف النبوة التى يجب أن تكون كل مشاعرها وكل علاقاتهـا وكل أهدافهـا محصورة فى نطاق الدين ، ونوح يعلم أن ابنه خرج على نطاق الدين ٠

وهنا يصبح نوح فى موقف خصومة رأى مع الله ، لأن الله وجهه وجهة معينة ، وهو يريد أن يوجد لأبوته مخرجا على حساب نبوته . ولو كان نوح ليس نبيا لكان لأبوته حينئذ عذر ، حيث تكون الأبوة هى العامل الوحيد أو الأقوى فى نفس نوح ، ولكن وجود النبوة فى شخصه هو الذى قلب الميزان ، وجعل حساب نوح أشد .

وأيا ما كان الأمر فان نوحا أصبح حينئذ فى موقف لا يرضى الله ، أى أنه أصبح خصما لله ، وان كانت الخصومة خصومة رأى وهى تختلف اختلافا شديدا عن خصومة العداوة ، ولكنها بالقياس الى الأنبياء أمر كبير وليس يسيرا ، وقد كان المتوقع فى العرف البشرى للخصومة أن يغضب الله من نوح ، وقد يترتب على هذا الغضب عقاب لنوح كما عاقب سبحانه نبيه يونس حين وقف موقفا لا يرضى الله (٢٦) ولكن الله يريد أن يتخذ من هذا الموقف درسا يعلمه للبشر من أكثر من جانب ، ومن ذلك أن يجعل نبيا من صفوة أنبيائه يقف موقفا لا يرضيه حتى لا يجد أحد غرابة أو نكرا فى أن يخالفه أحد ممن هم دونه مهما يكن حالهم بالقياس اليه .

ومن ذلك أن يعلمهم رد الله سبحانه على ذلك ، وقد كان رده سبحانه هو المنهج الثابت ازاء الخصم ، وهو حمايته وحماية حريته حتى يتضح الحق فى الموقف بجلاء ودون لبس وذلك أن الله سبحانه فتح باب الحوار حينئذ مع نوح ، وفى أثناء الحوار كله لم يصدر من الله سبحانه قط ما يدل على غضب على نوح ، بل العكس بدأ يحاوره بألفاظ توحى بالود ، وأولها نداؤه بلفظ (يا نوح) ، ولكن القوة كل القوة فيما ساقه الله من حجة ، وما صاغه من منهج الحوار مع نوح .

وذلك أن نوحا جعل حجته هى وعد الله أن ينجى أهله ،

---

(٢٦) انظر الآية ١٣٩ وما بعدها سورة الصافات .

وتناسى الاستثناء ، أو تناسى دلالة الاستثناء فى قوله تعالى :

(وأهلك الا من سبق عليه القول) .

فكأنه يقــول انت وعدتنى يارب بأن تنجى أهلى وابنى من أهلى :

(رب ان ابنى من أهــلى وان وعــدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) .

يعنى أنت أعدل الحاكمين والقاضين فنفذ وعدك .

وكان يمكن أن يكون رد الله عليه اننى استثنيت يا نوح بقولى :

(الا من سبق عليه القول) .

ولكن الله مبالغة فى الزام نوح الحجة يترك هذا الاستثناء مع وضوح الحجة له فيه ويحاوره فى الوعد نفســه ، فكأنه يقول له حقا يا نوح اننى وعدتك بنجاة أهلك ، ولكن هــل تجعل الكافر من أهلك وأنت الذى أرسلتك لهدف واحد هو أن تميز للناس الكفر من الايمان ؟ وكيف تسوى بين الكافر والمؤمن فى أن يكونا أهلا لك عــلى قدم سواء ؟ فكيف تخلط هذا الخلط مع ما ميزتك به من عقل وحكمة عن سائر الناس ؟

ان العلاقة الوحيــدة التى لها وزن عنــد الله هى علاقة الايمان فهى العلاقة بين المؤمنين فى الدنيا **(انما المؤمنــون اخوة) (٢٧) .**

وذلك لأن الأصل أن كل مخلوق بالقياس الى الله كيــان قائم بذاته ، ولا يزر وزر نفس أخرى ، وانما علاقات النسب كانت لحكمة استمرار الحياة فى الدنيا فقط ، فاذا انقضت الدنيا انعدمت الانساب والعــلاقات من حيث المبــدأ كمــا يقول تعالى :

(فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ) (٢٨)

---

(٢٧) ١٠ سورة الحجرات .

(٢٨) ١٠١ سورة المؤمنون .

وهو ما يتفق مع العقل والواقع من أن علاقات النسب انما أوجدها الله فى الدنيا للمحافظة على بقاء النوع واستمرار الحياة ، فاذا انعدمت العلة انعدم ما ترتب عليها وهو النسب ، ويعود الوضع الى أصله وهو أن كل مخلوق عند الله كيان قائم بذاته وبحسابه عنده ، ولكن العلاقة الحقيقية والدائمة من وجهة الدين هى علاقة الايمان ٠

وأسس الأديان جميعا ووجهتها واحدة ، ونوح أولى الناس حينئذ بأن يعلم ذلك ويسلك سبيله ، فيذكره الله بذلك فى قوله :

(يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح) ٠

وبهذا يكون الحق فى الخصومة قد اتضح فى غير لبس ، ونوح أول المستجيبين للحق ، ولكن فى منهج الخصومة تكون الحرية الممنوحة له قد انتهت ، بعد انتهاء تبادل الحجج والآراء ووضوح الحق ، الذى تبين منه أن نوحا تجاوز الحد اللائق به ، أو كان يريد أن يتجاوزه ، وعليه حينئذ أن ينتظر الحكم فى القضية ، وقد كان يمكن أن يكون الحكم غضبا من الله على نوح بمقدار ما أعطاه من مزايا فلم يلتزم حدودها من باب :

(حسنات الأبرار سيئات المقربين) ٠

ولكن الله لم يغضب عليه ، وانما جعل عقابه الانذار ، حيث وضح له أن ما طلبه كان خطأ لا يليق بمثله أن يقع فيه ، وأنه ضمنا لن يحاسبه عليه ، ولكن الحساب سيكون لو كرر هذا أو غيره مما لا يليق به ، فان العقاب سيكون حينئذ رهيبا ، وهو انزاله من منزلته العليا الى منزلة الجاهلين التى لا تليق بالمؤمنين فضلا عن الأنبياء ، فيقول له :

(فلا تسألن ماليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين) ٠

والقرآن يستخدم لفظ الجهل عادة فى معنى الحماقة والسفه كقوله تعالى من خلق المؤمنين :

(واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (٢٩) ٠

أى السفهاء بمعنى اذا استفزهم السفهاء لجأوا الى المسالمة وهو كذلك فى لغة العرب حيث لم تكن لديهم علوم مكتسبة بالدرس ليوصف انعدام العلم بالجهل ، وانما الجهل عندهم وصف خلقى بمعنى الحماقة والسفاهة ، كما يقول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وهو مضمون الانذار الرهيب الموجه الى نوح ، وقوله تعالى :

(فلا تسألن ما ليس لك به علم) ٠

أى لا يليق بمثلك الا سلوك الطريق الواضح فى فهمه وعلمه ، أما الشبهات والتأويلات فقد وصف الله متبعيها مع وضوح الحق لهم بالزيغ فى القلوب حيث يقول :

(هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) (٣٠) ٠

ونوح أول المعترفين بالحق والمنيبين اليه ولذلك يتوجه الى ربه بهذه الضراعة :

(قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفرلى وترحمنى أكن من الخاسرين) (٣١)

وحين عاد نوح الى وضوح الحق محت عنه رحمة الله كل مؤاخذة ، وكان رد الله عليه :

(قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك)

---

(٢٩) ٦٣ سورة الفرقان ٠
(٣٠) ٧ سورة آل عمران ٠
(٣١) ٤٧ سورة هود ٠

وهذا أيضا جانب من الدرس التعليمي في كيفية موقفه من الخصم حين يرجع الى الحق مهما كان موقفه قبل ذلك ٠

بين الله وآدم :

ومن أمثلة القرآن في هذا السياق موقف آدم عليه السلام ، حيث وقف من الله سبحانه موقف خصومة رأى ، حين نهاه الله هو وزوجه أن يقربا شجرة معينة في الجنة ، ويعنينا موقف آدم بالذات ، حيث نسى أو تناسى نهى الله الصريح تحت اغراء ابليس ووسوسته ٠ فأصبح مقتنعا بأن الراى الذى أغراه به ابليس خير من الامتناع الذى أمره به ربه ، ومن الواضح ان آدم لا يمكن أن ينظر الى الموضوع بهذه الصورة ، أى من زاوية الموازنة بين أمر الله ورأى ابليس ، ولكن اغراء ابليس والحاحه وضعه فى موضع ضعف نفسى فانزلق وراءه ، فكانت النتيجة وان لم يكن يقصدها أنه آثر رأى ابليس على أمر الله ٠ ولم يكن لآدم حينئذ عذر يعتذر به ، ولم يكن فى نهى الله اياه غموض يمكن أن يتأول فيه ٠

وذلك أنه حين خلق الله آدم وأمر الملائكة بالسجود له سجدوا الا ابليس أبى واستكبر محتقرا آدم ، ومصرا على تعاليه عليه ، متحديا بذلك أمر ربه الصريح ، ولا شك أن آدم رأى هذا ، ورأى ابليس وهو يقسم لربه أن يظل عدوا لآدم وبنيه الى يوم القيامة ، وأن يملأ عليهم طرق الغواية من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم كما ورد فى القرآن ، وفوق ذلك فان الله أكد له هذه الحقيقة وأكد له عدم حاجته الى شىء اذا رضى بما وضعه فيه من الجنة فى قوله تعالى:

(فقلنا يا آدم ان هذا عدولك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) (٣٢) ٠

---

(٣٢) ١١٧ وما بعدها سورة طه ٠

ولا تضحى أى لا تجد نفسك معرضا لشمس أو حر .

ولا أحد يعلم على وجه التفصيل الحالة التى كان عليها آدم قبل أن يأكل من الشجرة التى نهاه الله عن الاكل منهـا ، ولكن يبدو وبصفة عامة من خـلال نصوص القرآن انه كان هـو وزوجـة فى حـالة بين البشرية والملكية ، بمعنى ان كل المقومات البشرية الحيوانيـة كانت موجودة فيهما ، ولكنهـا معطلة عن العمل ، كالجهـاز الهضمى ، والجهـاز التناسلى ، كلاهما موجود ولكنه لا يعمل ، وليس ظاهرا ، لا هو ولا أثره . فمع استعدادهما للأكل الا انهما لا يجوعان وبالتالى لا يأكلان ، لأن الحيوان انما يأكل عادة حينما يجوع ، واباحة الله لهمـا أن يأكلا من كل ما فى الجنة الا هذه الشجرة لأن كل مطعومات الجنة ومشروباتها تختلف عن طعام الدنيا وشرابه فى أنهـا لا تمر فى الجهاز الهضمى أو البولى بالصورة التى نعرفها ، ولذلك لا يترتب على طعام الجنة وشرابها فضلات من الطعام أو الشراب تخرج من الجسم ، وكذلك الجهاز التناسلى لديهما كان موجودا ، ولكنه مستتر ولا يعمل ، وكل ما فى الجنة من مأكول ومشروب مهما أوجد من متعـة للطعـام أو الشراب الا أنه لا يتصل بجهاز هضمى أو بولى معروف ، ولكن الشجرة التى نهاهما عنها الله ويروى انهـا شـجرة القمح هى التى تحرك كل الأجهزة البشرية المعروفة وتدفعها الى العمل ، فهذا الطعام يحرك الجهاز الهضمى ، ويترتب على الطعـام العطش المحتاج الى الماء ثم تحريكه الجهاز البولى ، ويترتب على هذا الطعام أيضا تكوين الدم فى الجسم ، وما يترتب على ذلك ، ومنـه تحريك الجهـاز التناسلى ، واذا تحركت هـذه الأجهزة أدخلت الانسان فى دوامة الحاجة الدائمة لمتطلباتها المتكررة والتى لا تنتهى الا بانتهاء حياته ، وايجاد متطلباتها يدخله فى صراعات ومشقات وكدح لا يتوقف .

والله يريد لآدم وزوجه السـعادة ، ويريد أن يجنبهمـا شقاء تلبية مطالب أجسادهما بصورة دائمة ، فنهاهما عن

الأكل من هذه الشجرة بالذات ، وحذرهما من اغراء ابليس واغوائه ، ولكن ابليس أخذ يزين لهما بكل وسائله وأساليبه أن أكلهما من هذه الشجرة هو الذى سيفتح لهما كل أبواب الخير والسعادة ، وقاسمهما بكل يمين انه ناصح لهما ، بل زين لهما ان الله لم يمنعهما من هذه الشجرة الا لانه لا يريد لهما ان يكونا من الملائكة ولا من الخالدين :

(وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين) (٣٣) ٠

وما كان لآدم أن ينسى تكبر ابليس عن السجود له دون الملائكة ، وما كان له أن ينسى أن ابليس انما طلب من الله امهاله فى الحياة الى يوم القيامة ليضله هو وذريته ، وما كان له أن ينسى أن الله حذره من ابليس وأكد له أنه عـدوه ، وما كان له أن ينسى أن الله حذره تحذيرا واضحا من أن يأكل من هذه الشجرة ومن أن أكله منها سيخرجه من الجنة فيشقى ، ولكنه نسى هذا كله وأصغى الى اغواء ابليس :

(ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد لـه عزمـا (٣٤) ٠

ولعله من هـذا النسيان سمى انسانا ، ولكنه ليس من المعقول أن يكون آدم وزوجه قد نسيا بمعنى عدم تذكرهمـا لشىء ممـا سبق ، فهمـا لم يفقدا ذاكرتهما ولا ادراكهما ، وانما المعقول أن اصغاءهما لابليس واقتناعهما بما زينـه لهما جعل هذا التزيين هو الماثل الراجح فى نفسيهما وما عداه مما يعلمانه ويتذكرانه كأنه منسى وغير ماثل فى نفسيهما ، وكذلك الانسان حينما يتردد بين أمرين ثم يرجح أحدهما

---

(٣٣) ٢٠ سورة الأعراف ٠

(٣٤) ١١٥ سورة طه ٠

على الآخر يبدأ المرجوح فى التضـاؤل والانزواء فى النفس حتى اذا بلغ رجحان الراجح قمته بلغ انزواء المرجوح غايته حتى كأنه أصبح مختفيا أو منسيا ٠

ومن الواضـح أن آدم فى كل هـذا الموقف أصـبح فى خصومة نوع من الرأى مع ربه ، حيث يرشده ربه الى الرأى الصائب فيتركه وينحاز الى الرأى الخاطىء :

(وعصى آدم ربه فغوى) (٣٥) ٠

وهذا التعارض فى الرأى والاتجاه خصومة ، وقد كان يتوقع من الخالق المالك ، صاحب القدرة المطلقة ، والسلطة التى لا قيد عليها أن يغضب من عبده ومخلوقه آدم ، وان يعاقبه ، ولكن الله الذى وسعت رحمته كل شىء لم يغضب من آدم ، ولم يمنعه مما حذره منه مع استطاعته ذلك ، بل ترك له حريته لينفذ رأيه ورأى ابليس ، عاصيا بهذا ربه ٠

ولكن آدم ما ان أكل من الشجرة التى نهاه عنها ربه ، حتى توالت فجأة عليه المشاكل والمتاعب ، وأولهما انكشاف ما كان مستورا من عورته وعـورة زوجـه ، وحاجتهما العجلى الى سترها وليس لديهما ساتر تعوداه ، ثم حاجتهما الى طعام من مثل هذه الشـجرة التى أكلا منهـا بالذات ، وتعبير القرآن يوحى بأنها كانت شجرة واحدة وليس نوعا من الشـجر ، وأن ثمرها هو الطعام اللازم للحياة البشرية على الأرض ، وهذا يرجح أنها كانت فعلا شجرة القمح ، لأنه مازال وسيظل هو طعام البشر ، وتعبير القرآن يشير الى أنها كانت شـجرة واحدة ، أو شجرة واحدة ذات فروع فى جنة آدم ، فحين أكلا ثمرها أصبح جسمهما فى حاجة لازمة وفى جوع الى طعامها هى ، وكان هذا من المشاكل التى فوجئا بها بعد أكلهما منها ، وحينئذ اتضح لهما صدق قول الله لهما وتذكراه ، واتضـح لهما كذب ابليس وتغريره بهما ٠

---

(٣٥) ١٢١ سورة طه ٠

وفى حديثنا عن ادم نقول انه حينئذ امتلات نفسه شعورا بالندم ، وشعورا بالخطأ والرغبة فى التوبة الى الله ٠

والله يعلم الناس ضمنا أنه طوال هذه المرحلة التى وضع آدم فيها نفسه موضع الخصم لله لم يغضب الله عليه بل تركه يزاول حريته كاملة حتى اتضح لـه الحـق وهو صدق الله وصواب توجيهه وخطأ انقياده لابليس واغوائه ، وبالمنهج الذى درج عليه القرآن فى الخصومة كما أسلفنا كان ينتظر حين يتضح الحق فى القضية أن يصدر حكم الله الملائم لموقف الخصم فيهـا ، وموقف آدم كان يستحق عقـابا من الله على ما فعل ، ولكن من منهج الله أيضا وضع العفو موضع العقوبة، بل من منهجه الاحسان الى الخصم بعد العفو عنه ، لأنه سبحانه يعلم الناس هذا كما ورد فى أكثر من موضع فى القرآن ، ولذلك كان رد الله على توبة آدم هو العفو عنه بقبول توبته ، ثم الاحسان اليه بالهداية ، فيقول تعالى :

(ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) (٣٦) ٠

---

(٣٦) ١٢٢ سورة طـه ٠

حرية الرأى

قد لا يكون من الشـــطط أن يقال انه لا توجد مضبطة لأى مجلس نيابى فى التاريخ كله قديمه وحديثه تحوى من آراء المعارضة أو هجومها أو طعنها ما حواه القرآن من آراء معارضيه ، ومن هجـــومهم ، ومن طعنهم فى كل الأسس التى يقوم عليها الدين ويعتمد عليها كيانه ، وليس هذا مما يحتاج الى دليل لاثباته ، أو اجتهاد فى ابرازه ، لانه ماثل واضح فى القرآن ، والقرآن متاح لكل الناس ، سواء فى ذلك المسلمون وغير المسلمين .

وقد يكون ذلك غريبا وعجيبا حين يسمعه غير المسلمين ، ولكنه أشد غرابة وأوغل فى العجب اذا قرن بموقف كثير من المثقفين بين المســلمين أنفســهم ، من أولئك الذين بهــرتهم حضارة الغرب ، فظنوا أن الحــرية لم تولد الا بمولد هــذه الحضارة ، وأن البشرية لم تعرف السمو ، ولم ترتكز عـــلى المبادىء وحسن التنظيم الا حينما ترعرعت حضارة الغرب ، بل يتجاوزون ذلك الى التأثر بسموم الغرب ضد الاســـلام فيظنون بل يقولون فيما يقولون ويشيعون قولهم أن الدين

عقبة فى سبيل التقدم والرقى ، لأنه يقيد الحرية فلا يتيح للناس أن يفكروا كما يريدون ، ولا يتيح للناس ما تتيحه حضارة الغرب فيما يعرف بنظام المعارضة أو الرأى والرأى الآخر ، ولو كان لديهم أيسر العلم بالقرآن ، ولو ألقوا اليه أضعف النظرات لبهرهم ما يجدون فيه من حرية المعارضة التى تتيح للمعارضين أن يقولوا مايشاءون، رغم بطلان مايقولون، ولكنه يتيح لهم ان يقولوه مادام هـذا رأيهـم ، ثم يجعـل الأسلوب الوحيد فى الرد عليهم هو المنطق والحجة حتى يتضح الحق لهم فى غير لبس ، فمن آب منهم الى الحق عفى عنه مهما يبلغ جرم قوله فضلا عن خطئه ، ومن لم يرجع الى الحق يدون حسابه وعقابه الحقيقى ليس على ما صدر منه وانما عـلى اصراره على موقفه وعدم رجوعه الى الحق ، ثم تأتى جرائم ما صدر منه تبعا لذلك .

وفى أيسر المـوازنات بين ما أتاحه القـرآن من حـرية لمعارضيه ، وبين ما تتيحه نظـم المعارضـة فى أى نظام فى العالم نجد أن المعارضين فى كل نظم العالم يتحاشون النقـد المباشر لرئيس الدولة ، واذا اضطروا الى نقده كان نقدا غير مباشر أو نقدا خاليا من أى لفظ فيه اساءة اليه ولكن القرآن أتاح لمعارضيه أن يوجهوا نقدهم حتى الى الله ذاته بكل جلاله، بل أن يوجهوا اليه أحيانا سبابا وقذفا مما تعاقب عليـه كل قوانين البشر حين يوجه الى أى شـخص فضلا عن أن يكـون مسئولا أو رئيسا ، بل وينقل القرآن هذا عنهم ويسجله ضمن آياته ، ليس بالتعميم ، وانما بالنص الحرفى ، فلا يقول مثلا انهم أساءوا الى الله سبحانه أو سبوه ، وانما يقول قالوا عنه كذا وكذا بالنص الحرفى .

ومن باب أولى أن يسجل القرآن ما قالوه عن الملائكة وعن الرسل وعن الكتب المقدسة ، وعن المؤمنين ، وعن كل ما جاء به الدين .

ولكن مما يثير الاكبار للقرآن انه مع هذا الفيض البالغ السوء الذى وجهه معارضوه الى كل ما يمثله وما دعا اليــه الا أنه فوق اتاحته هذه الحرية لمعارضيه في أن يقولوا ضده ما يشاءون الا أنه يلتزم ازاء ذلك خطا ثابتا ، هــو عدم الرد عليهم بسخط أو غضب ، وانما بالمنطق المحايد ، والاحتكام الى الحجة العقلية ، وكأن القرآن ليس طرفا فى الخصــومه ، ويظل هذا الحياد حتى يتضح الحق فى جلاء من خلال المنطق والحجة ، وحينئذ يكون فى كل الأعــراف ســواء الدينيــة والالحــادية أن النــاكص عن الحق ، والمعــادى له يســتحق العقاب ٠

ولكن منهج الله الثابت فى الخصــومة يســمو فوق كل تشريع أوعرف بشرى ، حيث يطلب من الخصم حينئذ طلبــا واحدا محددا هو الرجوع الى الحق والتقيد به ، فاذا فعــل وضع الله ســبحانه العفــو مكان العقــاب ، ثم يتجــاوز ذلك بالاحسان اليه بعد العفو ٠

والقرآن حافل بنقل مواقف معارضيه ، سواء من خصوم الرأى ومن خصوم العــداوة ، وليس الحــديث فى حاجة الى استقصاء ما صدر عن هؤلاء المعارضين مما نقله القرآن عنهم فنكتفى ببعض الأمثلة التى تتعلق بكل أنواع المعارضــين ، فمن ذلك :



المعارضون لله

من الواضح أن قمة حرية الرأى وحرية التعبير أن ينقل القرآن ما صدر من عباد الله ضد من ؟ ضد الله سبحانه بكل جلاله وكل سلطانه ٠

والذى صدر من عباد الله ليس من طائفة معينة منهم ، وليس نوعا معينا من الاساءة ، وانما من كل طائفة ومن كل أنواع الاساءة ، وليس من أعدائه فحسب ، بل حتى من العصاة من المؤمنين ، بل فوق ذلك من أوليائه حتى الأنبياء والملائكة كانت لهم مع الله هنات ، وهذه الهنات مهما صغرت فانها بالقياس الى منزلة من صدرت منهم تعد شيئا كبيرا ٠

وصدق الله حيث يقول :

(ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) (١) ٠

فما من فرد من مخلوقات الله العاقلة الا وله من الله موقف

---

(١) ٤٥ سورة فاطر ٠

لا يرضى الله على تفاوت فى ذلك ، وحتى الملائكة فى الموقف الوحيد الذى نقلهم فيه من طبيعة التسخير الى طبيعة الاختيار ، وذلك حين استشارهم فى خلق آدم ما ان شعروا أن لهم حرية الاختيار حتى كان أول اختيارهم هو معارضة الله سبحانه وكان ذلك فى خلق آدم ، ولذلك حين ركب الله فى طبيعة بنى آدم الاختيار ملأوا الأرض فسادا وشرا ، وكانوا كما وصفهم سبحانه فى حديث قدسى (خيرى اليهم نازل ، وشرهم الى صاعد) ٠

ولكن كما يقول سبحانه عن رحمته :

(ورحمتى وسعت كل شىء) (٢) ٠

فوسعت رحمته كل ما يصدر منهم ، حيث لا يعاجلهم بالعقاب ، وبلغ من رحمته أن يتيح لهم مدة آجالهم كلها لعلهم يوما ما يعودون الى الحق ، فاذا عادوا محا عنهم كل ما صدر منهم :

(ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) (٣) ٠

ومن أمثلة هذا المجال :

موقف بعض أولياء الله من الله :

يصف الله سبحانه أولياءه بأنهم حزبه ، كقوله تعالى :

(أولئك حزب الله) (٤) ٠

وهم المؤمنون ، ولكن منهم خاصة لله يصطفيهم على غيرهم كقوله سبحانه :

(٢) ١٥٦ سورة الأعراف ٠

(٣) ٤٥ سورة فاطر ٠

(٤) آخر سورة المجادلة ٠

(الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) (٥)

وفى عرف البشر قد يجدون غرابة أو ندرة أن يصـــدر من أعضاء حزب شكا أو عدم ثقة فى الأسس التى يقوم عليها الحزب ، وتكون الغرابة أشد حينما يصدر من أحد أعضـــاء الحزب اعتراضا على رئيس حزبه ٠

ولكن الله يعلم البشر مايبهر العقول ، فيعلمهم حرية الرأى وحرية التعبير ، ويضرب سبحانه بذاته على جلاله الأمثلة ، ويورد القرآن من هذا غير قليل ، كما رأينا فى موقف الملائكة حين استشارهم فى خلق آدم ، فقد اعترضوا صراحة على الله فيما يريد أن يصنعه من هذا ، وكما رأينا فى موقف ابراهيم عليه السلام حين وجه الى الله نوعا من الشك فى أهم ما تقوم عليه أسس حزب الله وهو البعث ٠

وهذا مما سبق التمثيـــل له ، وما ليس فى حاجة الى تكرار او بسطه للقول فيه ، حيث ان العبرة فيه واضحة رغم تعدد جوانبها كما سبقت الاشـارة الى بعض ذلك ، ولـــكن خلاصة العبرة أن القرآن لا يأبى أن يعرض كل ما صدر من خصومة ليقينه من سطوع الحق فى جانبه ، وان كل ما صدر وما يصدر من خصومة لن يؤثر فى وضوح الحق الذى يقـــوم عليه ، فهو واثق أن كل ذلك كما أن صدوره حين صــــدر لم يؤثر فى وضوح الحق ، فكذلك نقله أو عرضه على الناس لن يؤثر أيضا فى وضوح الحق ، بل ان عرضه يتضمن تعليمـــا وتوجيها للناس فى حياتهم وتعـــاملهم ، خصـــوصا وأن كل ما يعرضه القرآن من هذا القبيل يكون مقرونا دائما بمناقشته واقامة الحجة على بطلانه ، ومعنى ذلك أن القرآن يعلم الناس حرية الرأى وحرية التعبير ، ولكن على المسئولين عن تبليغ الدين أن يتصدوا بالحجة والمنطق لكل من يتجاوز فى هـــذه الحرية حدود الحق ٠

---

(٥) ٧٥ سورة الحج ٠

أهـــل الكتــاب :

وقد كان موقف أهل الكتاب اليهــود والنصــارى من الله عجبا ، فمع أنه خصهم بأنبياء ورسل كثيرين ، وميزهم بكتب سماوية أنزلها اليهم ، وكان هذا يقتضى أن يكونوا أقــرب الناس الى الله وأعرفهم به ، وبالتالى أشد الناس ايمانا وخوفا منه ، الا أنهم تجرأوا على الله بما لم يتجرأ به أحــد عليــه ، وخصوصا اليهود ، فانهم تميزوا عن سائر الناس بنزعة العداء المباشر لله ســبحانه ، حيث نلحظ أن المشركين مثــلا ينصب كفرهم على انكار الدين ، والتمسك بتقاليدهم الوثنية ، دون أن يبدو حقدا على الله أو عداء له ، ولكن اليهود هم الذين تجرأوا على الله بالسب والقذف المباشر لذاته سبحانه ، وقد رأينا فيما سبق كيف أنهم اســتباحوا لأنفسهم أن يصفوا الله بالبخل الشديد :

(وقالت اليهود يد الله مغلولة) (٦) ٠

وأن يصفوه بالفقر وأنه بلغ به الفقر أن يقترض من الناس :

(لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء) (٧) ٠

ثم بلغ هوان الله سبحانه عند اليهود أن يتصــوروا أن نبيهم يستطيع أن يتحكم فيه ويوجهه كما يشاء ، فيستطيع أن يأتيهم بالله ويعرضه عليهم جهرة ، كما يأتى الانسان بشىء يملكه ويتصرف فيه ، فينقل القرآن عنهم :

(فقد ســألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) (٨) ٠

---

(٦) ٦٤ سورة المائدة ٠

(٧) ١٨١ آل عمران ٠

(٨) ١٥٣ سورة النساء ٠

فهم فى تعبيرهم ينسبون المشيئة الى موسى وليس الى الله، بمعنى أنهم لا يطلبـــون من الله بأن يســـمح لهـم برؤيتـه ، وانما يطلبون من موسى ذلك ، وكأن موسى أو غيره يملك أن يضع الله تحت تصرفه فيأتى به أو يأمره بأن يأتى ليعرضـه عليهم ، ونزعة الحقد والعداء فى نفوس اليهـود معروفة ، وكثير من الباحثين الذين كتبوا عنهم وهم من شعوب وأجناس مختلفة من أنحاء العالم بل بعضهم من اليهود أنفسهم يلحظون هذه الظاهرة فى اليهود ، وهى أنهم يحملون نزعة عدائيـة جامحة لـكل من عداهم من سـائر الأديان والأجنـاس ، بل يلحظون أن عداوتهم تمتد الى ذات الله سبحانه ، فنظرتهم الى الله نظرة عدائية ، ويجد الباحثون هـذه النزعة واضحة فى أدبهم الشعبى ، والأدب الشعبى يمثل الشعوب بخلاف الأدب الفردى فانه يمثل أساسا شخصية مؤلفه وأما النصارى فانهم وان خلت قلوبهم من نزعة العداء لله وعفت ألسنتهم عن توجيه السباب اليه مما سقط فيه اليهـود الا أنهم ارتكبـوا فى حق الله سبحانه ثلاث جرائم بالغة النكر ، أو هى جريمة ذات وجوه ثلاثة شديدة الشناعة ، وذلك كما يلى :

(أ) بعض النصارى يقولون ان المسيح هو الله ، ولا توجد ألفاظ تعبر عن مدى الاساءة الى الله خالق السموات والأرض وما بينهما حين يجعلونه فردا من البشر يأكل ويشرب ولكن الله يسخر من قولهم هذا بالاشارة الى أن المسيح عليه السـلام وأمـه كانا بشرين (يأكـلان الطعـــام) ويلحظ المفسرون السخرية فيما يترتب على الطعام من خروج فضلاته وفضلات الماء من الجسم ، وكأنه يقول لهم فهل يليق بالاله أن يوصف بأنه يتبرز ويتبول ؟

(ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) (٩) .

(٩) ٧٥ المائدة .

والقرآن يسجل عليهم ادعاء أن المسيح هو الله :

(لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم) (١٠) ٠

(ب) وبعض النصارى وهم غالبيتهم يعتقدون أن المسيح ابن الله ، وقد سبق الحديث عما وصف الله به مدى الهول الذى يحدثه هذا القول فى الكون من قوله تعالى :

(لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا) (١١) ٠

وبشاعة هذا القول تأتى من الطعن فى بدهيات الالوهية ، وذلك أن المخلوق الحيوانى ومنه الانسان انما يحتاج الى الولد لبقاء النوع وحمايته من الفناء أو للمعاونة فى شئون الحياة ، أو لهما معا ، وكلاهما طعن فى ذات الله سبحانه بتعرضه للفناء وبحاجته الى من يعينه ٠

(جـ) النصارى بصفة عامة فضلا عن أنهم يشركون مع الله غيره فى الألوهية ، كما يؤكد القرآن فى قوله تعالى :

(لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد) (١٢) ٠

وهى عقيدة التثليث التى تقوم عليها المسيحية ، ولكن النصارى يعتنقون نوعا آخر من اشراك خلق الله فى الألوهية وهم رجال الدين ، فانهم يعتقدون أن رجل الدين ليس واسطة بينهم وبين الله فحسب ، وانما هو ممثل لله ونائب عنه ، وبالتالى يمكن أن يحكم عليهم هو بالغضب فيكون مصيرهم جهنم ، أو بالرضا فيكون مآلهم الجنة ، وهذا شرك صريح بالله

---

(١٠) ١٧ سورة المائدة ٠

(١١) من ٨٩ الى ٩١ سورة مريم ٠

(١٢) ٧٣ سورة المائدة ٠

فقد يملك البشر أية عقوبة أو مثوبة فى الدنيا، ولكنه لا نزاع فى أن الجنة والنار هما من اختصاص الله وحده ، واعتقادهم أن أحـدا غير الله يملك التصرف فى أى شىء يتعلق بالجنـه والنار هو اشراك لهذا الأحد مع الله فيما تختص به الوهيته ، فى القرآن عن ذلك :

(اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله)(١٣)
وهو واقع معروف عنهم ·

فأهل الكتاب جميعا اذن وجهوا ويوجهون الى الله اساءات بالغة ، سواء فى العقيدة أو فيما يوجهونه الى الله سبحانه من سباب كما فعل اليهـود ، ومع ذلك وسـعتهم رحمـة الله فى الدنيا ، فتركهم الله ، وسيتركهم يقولون ويعتقدون ويفعلون ما يشاءون مما يغضبه ممهلا اياهم الى يوم الحساب ، مانحا اياهم هذا الأجل الطويل لعلهم أو لعـل منهـم من يرجع الى الحق ، فاذا لم يفعلوا يكون الله سبحانه قد زاد فى انصافهم أكثر مما يستحقون ، بل أعطاهم مالا يستحقون من الامهال ليكون حجة عليهم عند الحساب ·

وفى القرآن ردود كثيرة على كل ما صـدر منهم ، وليس هذا الحديث يقتضيها ·

موقف المنافقين من الله :

والمنافقون كانـوا ومازالوا أخطر أعـداء الدين لأنهـم يعملون فى خفية ، والعدو الظاهر تستطيع أن تأخذ حـذرك منه ، أما العدو الذى يأتيك فى ثوب الصديق فهـو الخطـر الأشد ، ومن هذا القبيل كلمة القائد الرومانى اللهم احمنى من أصدقائى أما أعدائى فأنا كفيل بهم والذى يعنى هـذا الحديث منهم هو موقفهم من الله سبحانه ·

ولـكى تفهم موقفهم من أية جهـة ينبغى أن نسـتشف

---

(١٣) ٣١ سورة التوبة ·

نفسيتهم أولا (١٤) ، فالواقع ان المنافق لا يؤمن بأى شىء ولا يسعى الى أى شىء الا الى مصلحته ومنفعته الذاتية العاجلة ، فكل شىء مستباح له اذا استطاع الوصول اليه دون أن يلحقه من ذلك ضرر ، وكل الناس فى نظره أعداء له الا من ييسر له الوصول الى منفعته فهو صديق الى أجل ، وهذا الأجل هو حصول المنافق على المنفعة ، وحيث كانت هذه النزعة هى القاعدة الجوهرية فى نفسيات اليهود وسلوكهم فانهم أمهر الناس فى النفاق ، ولذلك فان سلوك اليهودى عادة لا يعبر لا عن رأيه الحقيقى ولا عن عواطفه وانما عن منفعته ، وحتى على مستوى سياستهم فى الدولة فان سياستهم المعلنة لا يمكن أن تعبر عن نواياهم واتجاهاتهم الحقيقية ·

فالمنافق اذن لا يعتقد الا فى منفعته ، وبالتالى لن تكون له عقيدة دينية ينتمى بها الى أى دين أو مذهب انتماء العقيدة الثابتة ، وحيث كان أساس الدين هو الايمان بالله ، فمعنى ذلك أنهم لا يؤمنون بالله أصلا ، ولكن نزعة العداء لله وللدين، فى نفوسهم تأتى من شعورهم بأن الدين بمبادئه وحدوده وتضحياته عقبة فى سبيل منفعتهم ·

وأعداء الله كثيرون وهم صنوف عديدة ، تجمعهم عداوتهم لله ورسله وشرائعه ، على تفاوت درجات عدائهم ، ولكنهم يختلفون فى أسلوب عداوتهم وفى تعبيرهم عن هذه العداوة ، وقد يبدو أسلوب المنافقين فى التعبير عن عداوتهم لينا ، ولكنه فى الواقع أسوأ ألوان التعبير ، وأشدها ايذاء لمن يوجه اليه ، وذلك أنهم لما كانوا لا يؤمنون بالله ، ولا بالدين أصلا فانهم يرون الايمان شيئا غريبا قد يصفونه بالجهل أو السفاهة أو الغباء كما يفعل دعاة العلمانية والالحاد اليوم ، ولكنهم فى كل حال ينظرون الى الايمان والمؤمنين نظرة سخرية واستهزاء ، والاستهزاء آلم للنفس الكريمة من أى أسلوب عدائى ، لأنه أشد اهانة لمن يوجه اليه من أى أسلوب

(١٤) انظر كتاب اسلوب القرآن فى كشف النفاق للمؤلف طبع الهيئة العامة للكتاب ·

آخر ، فانك قد تعادى شخصا مهما بلغ عداؤك ولكنك لا تفقد احترامك وتقديرك له ، بل قد تعترف له أحيانا بفضائل ، ولكنك حين تستهزىء بشخص فان هذا يعنى انك لا تحمل له أى تقدير فى نفسك ، ولا ترى فيه ما يستحق تقديرا واحتراما .

وفى موقف المنافقين من الله سبحانه نجد أن استهزاءهم لم يقف عند المؤمنين أو عند الدين ، وانما تجاوز ذلك الى الله سبحانه ، ويتكرر فى القرآن تسجيل استهزائهم بالله ، وكذلك كل ما يدل على تقديرهم لذاته وجلاله ، ومن ذلك قوله تعالى :

(واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ، واذا لقوا الذين امنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون) (١٥) .

وكذلك قوله تعالى :

(ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) (١٦) .

ومن آثار استهزائهم بالله سبحانه قوله تعالى عنهم :

(يخادعون الله ..) (١٧) .

وكذلك قوله تعالى :

(واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا) (١٨) .

بل من بديع ما يروى القرآن عنهم من استخفافهم بالله سبحانه ، وتصورهم أنهم يستطيعون أن يخدعوه ان هذا

---

(١٥) ١٣ وما بعدها سورة البقرة .

(١٦) ٦٥ سورة التوبة .

(١٧) ٩ سورة البقرة .

(١٨) ١٢ سورة الأحزاب .

الشعور يلازمهم حتى يوم القيامة فيأتون بهذا الشعور نحو الله حين يبعثون ويحاسبون ، كقوله تعالى :

(يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ٠٠) (١٩) ٠

متصورين أن الله سينخدع بهم كما انخدع بهم المؤمنون في الدنيا ٠

وهكذا نجد في القرآن كثيرا من الأمثلة لما وجهه المنافقون من اساءة الى الله ومن استخفاف به سبحانه ، وهنا موضع الشاهد ، وهو أن الله سبحانه مع وضوح قدرته على أى عقاب ينزله بهم الا أنه يناقش كل ما يوجهونه اليه بالحجة والمنطق، ولكن حقيقة المنافق مستترة يحاول المنافق جهده اخفاءها فان القرآن يورد كل ما يصدر منهم ضد الله ودينه ولكنه يفاجيء المنافقين بأنه يكشف زيف ما يقولون وما يفعلون موضحا الحقيقة التى يخفونها ، ومثال ذلك :

(يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ٠٠٠) (٢٠)٠

فهذا الحلف له قصة شهدها المسلمون ، مضمونها ان النبى صلى الله عليه وسلم حين غزا فى تبوك تخلف عدد من المنافقين من وجوههم فنزلت حينئذ آيات كثيرة تكشف حقيقة المنافقين المتخلفين وتظهر مساوئهم ، فقال أحد المنافقين المصاحبين للغزاة والله لئن كان ما يقول محمد حقا عن اخواننا الذين خلفناهم وهم سادتنا وأشرافنا لنحن شر من الحمير ، فقال له عامر بن قيس الأنصارى والله ان محمدا لصادق وأنت شر من الحمار ، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضر الجلاس فحلف بالله ما قال : فرفع عامر يديه وقال

---

(١٩) ١٨ سورة المجادلة ٠

(٢٠)

اللهم ان كان كاذبا وانا صادق فانزل هذا على نبيك ، فنزلت هذه الاية التى تلحظ فيها وضـوح المنهج الاعلامى للقـرآن وهو نقل الخبر كما هو باوضح الالفاظ وايسرها دون تدخل حتى فى الصياغة ، بمعنى نقـل الخبر دون الايحـاء برأى النـاقل فيـه مبـالغة فى الحيـاد الاعلامى والصـدق فى الاخبار ، وكان يمكن الاعلام البشرى أن تكون الصيغة مثـلا يحلف أعـداؤنا أو أعداء الله ما قالوا ، أو يحلفون لعنهم الله ما قالوا أو نحو ذلك ليشعر السامع بسخط ناقل الخبر عـلى هذا الخبر ، ولكن منهج الاعلام فى القرآن يلتزم بصفة ثابتة نقل الخبر عن أعدائه كما هو ودون أية اشارة الى رأى الناقل ثم تكون البسطة والرأى والتفنيد فى التعقيب عـلى الخبر وليس فى الخبر نفسه ، وهو ما يعرف فى الاعلام الحـديث بصدق الخبر وحرية التعليق ، ولهـذا الحـديث بسـطة فى موضعه من الكتاب •

فقد نقل القرآن هذا الخبر عن هذا المنافق كما هو :

(يحلفون بالله ما قالوا) •

ولكنه فى التعقيب على الخبر يسوق فيضا من المعـانى رغم ايجاز الكلمات التى صيغت فيها وموجزها :

١ ــ تأكيد أنهم كاذبون حيث قالوا فعلا ما يحلفون على نفيه عنهم (ولقد قالوا) •

٢ ــ ما قالوه ليس خطأ أو ذنبا فقط وانما هو كفر :

(قالوا كلمة الكفر) •

٣ ــ ما يظهرونه من تصنع الدين ليس ايمانا وانما هو استسلام لقوة الرسول والمؤمنين وذلك فى لفظ (اسلامهم) •

٤ ــ يكشف القرآن خبايا من المنافقين لا يعلمها المسلمون ومنها أمنياتهم ومحاولاتهم الغدر بالرسول والنيل منه ولكنهم لم يجدوا سبيلا الى ذلك :

(وهموا بما لم ينالوا) •

٥ ـ يكشف القرآن صفة خسيسة فيهم وهى نكران الجميل ، فان الرسول الذى يعادونه ويتآمرون عليه هو الذى كان سببا فى غناهم بما أصابوا من غنائم وبما نالوا من رواج تجارتهم وتصريفها فى توافد الناس على المدينة من شتى الانحاء :

(وما نقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) .

ولكن النتيجة أنهم بوصفهم خصما لله ، فان الله لم يعاقبهم مباشرة على ما وجهوه اليه من اساءة ومن اغضاب ، بل أتاح لهم حرية أن يقولوه ثم كان رده عليهم بالحجة والمنطق حتى اظهر حقيقتهم ، وكان ظهور حقيقتهم يقتضى حلول العقاب عليهم ولكن الله مع ذلك يؤخرهم الى أجل مسمى .

والشق الأول انصاف للخصم ، ولكن الشق الثانى وهو تأخير حسابهم زيادة فوق الانصاف ، من باب الاحسان .

موقف المشركين من الله :

وموقف المشركين من رسل الله ومن الدين بصفة عامة واضح ، وهو العداء الشديد ، والعناد الصلب ، ولكن الذى يعنى هذا الحديث هو ما يصدر منهم من اساءة الى ذات الله مباشرة ، ثم رد الله سبحانه على ذلك .

وقد صدرت من المشركين اساءات كثيرة الى الله سبحانه منها على سبيل المثال ادعاؤهم أن الملائكة بنات الله حيث ينقل القرآن عنهم :

(وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) (٢١) .

والمراد بالجنة المستترين وكل مادة الجيم والنون تدور حول الاستتار فالجن مستترون عن الأعين ، والجنين مستتر فى بطن أمه ، والجنون استتار العقل والجنة بفتح الجيم مستترة

(٢١) ١٥٨ سورة الصافات .

والجنة بضم الجيم الدرع لسترها المقاتل ، والملائكة مستترون عن أعيننا فهم جنـة بكسر الجيم ، وفى موضـع آخـر من القرآن ٠

(وجعلوا له من عباده جزءا) (٢٢) ٠

وادعاء المشركين أن الملائكة بنات الله يتضمن اساءتين الى الله سبحانه ، احداهما نسبة مطلق الولد اليه كما سبق من بيان سوء ذلك والاخرى تخصيص النصيب الأضعف من الولد وهو البنات لله دون الذكور ٠

والقرآن ينقل عنهم ما قالوه على شناعته كما هو دون اضافة شىء حتى ولو بابداء رأى ناقل الخبر فى هذا الخبر ، فقد كان يمكن أن يقال مثلا ومن جهلهم أو كفرهم قالوا كذا أو نحو ذلك ، وانما سيق الخبر كما هو التزاما للصدق وأمانة النقل ، ولكن التعقيب على الخبر يتضمن فيضا من التسفيه رغم ايجاز الكلمات ومن ذلك بايجاز :

١ ـ أن هذا الذى يقولونه كفر واضح :

(ان الانسان لكفور مبين) ٠

٢ ـ من سفه تفكيرهم أنهم لا يفكرون فى انه لو كان الله يريد الولد فكيف يأخذ لنفسـه النصيب الأضـعف وهـو البنـات ويؤثرهم هم بما هـو خير وهو الذكور مع أنه خالق النوعين وهو المتصرف فيهما ؟

(أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين) ؟

٣ ـ تبلغ كراهيتهم لانجـاب البنـات ونفورهم منه أن أحدهم حين يبشر بانجاب بنت يمتلىء قلبه حزنا وبؤسـا ثم يفيض هذا الشعور على وجهه حتى يكسوه سوادا واكتئابا ، فكيف ينسبون لله أنه خص نفسـه بالبنـات وهم يشـعرون نحوهن بهذا الشعور ؟

---

(٢٢) ١٥ سورة الزخرف ٠

ومن امثلة ما وجهه المشركون الى الله من اساءة نسبة القبح الى تشريع الله ، حيث يفترون على الله أنه أمرهم بفعل القبائح ، وذلك أنهم حينما ينهاهم المؤمنون او يونجونهم على مزاولة فاحشة ، لا يجدون عذرا يعتذرون به لأن القبائح ممجوجة ومستنكرة فى كل الأعراف البشرية السليمة ، فعندئذ يفترون على الله أنه هو الذى أمرهم بهذه الفاحشة بمعنى أنه أذن لهم فيها ، وهم يتصورون ان الله مادام ليس ماثلا متولا حسيا فلن يكذبهم ، فلن يوجد اذن دليل على كذبهم فى هذا ، ولكن الله ينزل هذا فى القرآن مكذبا اياهم ، وليس تكذيبا فحسب وانما هو تكذيب مصحوب بالدليل العقلى المستقى من الواقع ، والواقع ان فعل القبيح معيب حين يصدر من أى احد ، ولكنه أشد عيبا وقبحا حين يصدر من شخص ذى منزلة ، وكلما علت منزلة المرء كان صدور القبح منه أشد عيبا ، وحين يصل علو المنزلة الى ذات الله سبحانه يكون هذا الوضع فى درجة الاستحالة المطلقة ، ولكنهم مع استحالة نسبة القبح الى الله لا يجدون غضاضة فى افتراء ذلك ونسبته الى الله سبحانه :

(واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ، قل أمر ربى بالقسط) (٢٣) ٠

ولكن موضع الشاهد فى المثال أن الله سبحانه مع مقدرته عليهم أتاح لهم أن يقولوا ما يريدون ، فهم بوصفهم خصما لله من حقهم فى أثناء الخصومة أن يبدوا رأيهم فى حرية كاملة مهما كان سوء رأيهم ، والرد عليهم لا يصح أن يكون بالغضب أو العقاب ، لأن أطرافا أو جهات أخرى قد تدعى أن رأيهم كان صوابا ، ولذلك يجب أولا بيان وجه الحق فيما يصدر منهم ، وقد بين القرآن بالدليل والقياس الواقعى بطلان زعمهم أى أن صدور القبح أو الأمر به معيب حين

---

(٢٣) ٢٨ سورة الأعراف ٠

يصدر من انسان عادى فكيف يصدر من الله ؟ ، وبعد هـذه المرحلة كان يمكن أن يحل عليهم العقاب ، لأنه ثبت ووضـح لكل الأطراف أنهم ارتكبوا ما يستحق العقاب ، ولكن رحمة الله فى الدنيا تسعهم وتؤجلهم الى يوم حساب ٠

ومن امثلة ما وجهه المشركون الى ذات الله من اسـاءة مواقف الطغاة من ألوهية الله سبحانه ، فان أكثر من شخص منهم لم يكتفوا بتكذيب الرسل ، ولا رفض الدين ، وانمـا نازعوا الله سبحانه فى ألوهيته ، فبعضهم يزعم انه اله مثل الله سبحانه كالطاغية الملك الذى حاج ابراهيم فى ربه (٢٤) والذى يروى أن اسمه النمروز ، ومنهم من يصر على الانفراد بالألوهية وأنه لا يوجد اله سواه ، منكرا وجود الله سبحانه ، كما فعل فرعون موسى الذى يقول لقومه (ما علمت لكم من اله غيرى) ورغم كل ما ساقه اليه موسى عليه السلام من أدلة وحجج فانه لا يعتقد فى وجود الله بل يرجح عدم وجود أى اله سواه ، والقرآن ينقل هذا فى قوله تعالى :

(وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لأظنه من الكاذبين)(٢٥)٠

فان فرعون خصم عـدو لله بل لعله أشد الخصوم الذين تحدث عنهم القرآن عنادا لله من جهة ، وخطورة فى عداوته لله من جهة أخرى ، فأما عناده لله وشدة كفره فأمر ظاهر ، وأما خطورة عداوته لله فانها لم تكن من جهة تكذيبه رسول الله ، ولا من جهة ظلمه وبغيه فحسب ، فما أكثر الطغاة البغاة فى الكافرين فى كل عصر ، ولكن خطورة كفره تأتى من أنه يحاول أن ينصر الباطل على الحق بطـريق الأدلة والحجج ، بمعنى أنه لا يكتفى بتكذيب الرسول أو الطغيان عليه وعلى

---

(٢٤) الآية ٢٥٨ سورة البقرة ٠

(٢٥) ٢٨ سورة القصص ٠

أتباعه أو نحو ذلك ، وانما كانت له خطة خطيرة من الناحية الاعلامية ضد الدين ، وهى محاولته أن يقيم أدلة واقعية منطقية على أن جانبه هو الحق الواضح ، وأن جانب رسول الله هو الكذب والباطل الواضح ، وعلى سبيل المثال فان موسى حينما أتاه بمعجزه العصا التى تتحول الى حية لم يكتف بتكذيبه أو البغى عليه بأى عقاب أو بمجرد وصفه بأنه ساحر ، وانما اراد أن يقيم الدليل العملى فى رايه على ان موسى ساحر فهو اذن كاذب فى ادعاء نبوته وفى كل ما جاء به ، وأنه هو يستطيع أن يأتى بخبر مما أتى به موسى فيقتنع الناس عمليا يصدق فرعون وكذب موسى فجمع فرعون السحرة وأقام المباراة المعروفة بينهم وبين موسى ، ولولا أن موسى مرسل من الله لحقق فرعون فعلا اثبات صدقة عمليا وكذب موسى عمليا أيضا ، وكذلك حين نادى موسى بالايمان بالله الواحد كان يمكن لفرعون أن يكتفى بتكذيبه أو عقابه أو نحو ذلك مما فعله غيره ، ولكنه أراد أن يثبت للناس عمليا من وجهة نظره كذب موسى فى ادعاء وجود الله الواحد وصدقه هو فى أنه لا اله سواه ، فأمر وزيره أن يبنى قصرا عاليا شامخا فى اجواز السماء ليصعد الناس فيه يبحثون عن اله السماء الذى يتحدث عنه موسى فلا يجدونه فيتأكدون من صدق فرعون وكذب موسى ولولا احساسه واحساس العقلاء من قومه بأن هذا الجهد الكبير لم يحل مشكلة موسى ولن يمنعه من مواصلة اثبات وجود الله لنفذ فرعون فكرة الصرح .

ومن الملحوظ فى منهج كل الأديان أن المهم ليس النصر المادى أو الهزيمة المادية فى صراع الحق والدين مع الكفر والباطل ، وانما المهم أن يكون الحق واضحا لا لبس فيه وهى المهمة الوحيدة للرسل ، أن يزيلوا لبس الباطل عن الحق ، ليظهر الحق جليا للناس فى غير لبس ، وعندئذ يحق عليهم الحساب والعقاب ان تركوا الحق بعد وضوحه ، ويترتب على ذلك أن أى نبى أو أى مؤمن لو كان وحده فى جبهة وأمة من الكافرين فى جبهة ، فان النبى أو المؤمن يكون هو المنتصر

حين يجعل الحق واضحا ، ولو قتل دون ذلك فهو أيضا المنتصر، لأنه يكفى أنه بين أن الجبهة الأخرى على باطل وخطأ ، وأنه هو على الحق •

ومن هنا تنبع خطورة كفر فرعون وهى أنه يريد أن يلقى على الحق غشاوة ، فلا يظهر واضحا للناس ، وأن يكسو الباطل والكفر ثوبا مضللا يوهم الناس به أنه حق ، فعندئذ لا تقوم الحجة لله على الناس ، لان الحجة هى ظهور الحق لهم ثم رفضهم اياه ، ومن هذا المنطلق أيضا كان تعجب القرآن من زعيم قريش الذى استخدم عقله كما سبق حديثه لايجاد وسيلة تلبس الباطل بالحق فيقنع الناس بأن القرآن سحر لوجود شبه بين آثار السحر وآثار القرآن ، ويستطيع أن يزعم لهم وجود أدلة مادية عملية على هذا ، فمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا القرآن فرق بين فلان وأبيه وأمه ، وبين فلان وصديقه فلان ، وهكذا من أشخاص معروفين ، وهذا فى زعمه يشبه ما يفعله السحرة فى التفريق بسحرهم بين الزوجين والصديقين ، فيحدث لبس بين الحق وهو القرآن والباطل وهو السحر ، وهذا التلبيس هو أخطر ما يواجه الدعوات الدينية ، لأنه مناقض لهدفها الذى ترتكز عليه وهو تمييز الحق من الباطل للناس •

ومن هنا أيضا تكون خطورة الحملة العالمية التى يشنها أعداء الاسلام على الاسلام في هذا العصر فيما يعرف بالعلمانية أو بالغزو الفكرى الذى يعتمد على التشكيك فى صلاحية الاسلام للحضارة ولمجاراة التقدم والطعن فى كل أسس الاسلام بأساليب مغلفة بأغلفة عديدة متنوعة من التضليل الفكرى بالأساليب الأدبية والغمز الفنى فيما تقدمه وسائل الاعلام مما يوصف بأعمال فنية فى شتى صورها ومن أخطر ما فى ذلك أن يجند مسلمون ليباشروا هذا التشكيك وهذا الغمز ، فى الاسلام ليصوروا للناس أنهم من أئمة الفكر الاسلامى الذين يريدون بالاسلام خيرا وصلاحا ، فهؤلاءهم

امتداد للمنافقين الذين عانى منهم الاسلام والمسلمون الأوائل وهم يتزيون بزى الاسلام ، لأن خطورتهم تتركز فى أنهم يوجهون سهامهم الى أهم ركيزه تعتمد عليها دعوات الانبياء جميعا وهى تمييز الحق من الباطل ، فيحاولون تلبيس الحق بالباطل حتى يختلطا على الناس حين تطمس معالم الحق ، فيسهل قيادهم الى أية جهة .

ونعود الى موضع الشاهد ، وهو أن فرعون ينكر ألوهية الله ، ويدعى أنه هو الاله ، ولا يكتفى بأن يقول هذا بلسانه وانما يحاول أن يقيم دليلا عمليا على اثباته باقامة قصر شامخ فى السماء ثم يطلب من الناس أن يصعدوا فوقه فلا يروا الله الذى يحدثهم عنه موسى .

وبصفته خصما عدوا لله لم يمنعه الله من ابداء رايه على نكره ، بل أتاح له من الحرية ما يعلن به رايه ضد الله فى كل وجه ويكرره بمختلف الأساليب ، ولكنه سبحانه على لسان رسوله موسى يوضح الحق بمختلف الأدلة العقلية ، وبالعديد من الأدلة العملية التى تمثلت فى تسع معجزات يحملها موسى (فى تسع أيات الى فرعون وقومه) (٢٦) حتى يصبح الحق ظاهرا فى غير لبس ، كما أظهر الله الحق على يد السحرة للملأ وللحشد الذين جمعهم فرعون من كل مكان وحشدهم ليشهدوا فيما قدره فرعون ودبره أنه هو الصادق وأن موسى هو الكاذب ، فاذا الله سبحانه يرد له سهمه فى نحره فيشهد هذا الحشد نفسه صدق موسى وكذب فرعون ، ولكن الذى يعنى هذا الحديث أن الله سبحانه أتاح له حرية ابداء رأيه المنكر ضده ، ثم كان الرد على هذا باقامة الحجة والدليل حتى اتضح الحق فى غير لبس ، ثم بعد ذلك أى بعد أن ثبت ووضح للناس مجانبته للحق ورفضه اياه عاقبه الله بالهلاك فى تلك الصورة الخارقة للعادة فى الغرق ، على أن عقاب فرعون بالهلاك لم يكن مرتبطا بما قال وما فعل مع كفر شديد ،

---

(٢٦) ١٢ سورة النمل .

وانما بمحاوله وقوفه فى وجه قضاء قضاه الله محاولا عدم تنفيذه ، بمعنى أن السبب المباشر لهلاك فرعون لم يكن كفره ولا طغيانه فكثير من المشركين فعلوا ذلك وأمهلهم الله ، وانما كان لمحاولته اعادة موسى وقومه الى سلطانه بعد أن قضى الله بخروجهم منه ٠

وكما أتاح الله لألد خصـومه من الجن وهـو أبليس أن يحاوره وأن يبدى رأيه على سوئه وهو أن الله سبحانه لم يكن عادلا ولا مصيبا حين يأمر بسجود الأعلى فى رأى ابليس للأدنى كذلك أتاح لألد خصومه من الانس وهو فرعون أن يبدى رأيه فى الله سبحانه على سوء هذا الرأى ، وأن يحاور رسول الله فى ذلك حتى وضح الحق على لسان السحرة ، ثم كان اهلاكه فى قضية أخرى هى قضية محاولته منع تنفيذ أمر الله بنجاة موسى وقومه من بطشه ٠

المعارضة للرسل

يكرر طه حسين تأكيده أن الشعر الجاهلى لم يصور الحياة العربية ، وانما الذى صورها هو القرآن ، وكل ما فى القران عن موقف المشركين من الدين بصفة عامة ، هو مثال وتأييد لما يقوله طه حسين فى هذا المعنى بالذات (١) ٠

فلو ذهبنا نستقصى الشعر المعاصر للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى كان ينتظر منه أن يسجل موقف العرب من الاسلام قبل أن يعتنقوه ما وجدنا فيه من ذلك شيئا ذا غناء ، بل ما وجدنا فيه شيئا قط أريد به تسجيل ذلك لذاته ، فلن نجد شعرا يعبر عن شك المشركين فى وجود الله ، ولكنا نجده فى القرآن فى نحو :

(واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تامرنا) (٢) ؟

ولن نجد شعرا يعبر عن انكارهم البعث ، أو ما واجهوا به الرسول مع معارضة أو شتائم أو مواقف كثيرة يعرفها

---

(١) النظر فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين ٠

(٢) ٦٠ سورة الفرقان ٠

التاريخ ، ولم يبلغنا أن شعرا ذا قيمة قيل في ذلك ولكنه فقد أو انمحى ، فباستثناء أمثلة معدودة ارتبطت باحداث خاصة لن نجد في الشعر ما يعبر عن موقفهم من الدين ، ولكن القرآن يحفل بتسجيل كل ما صدر منهم ومن غيرهم كما رأينا في الحديث السابق ٠

واذا كان خصوم الله قد تجرأوا عليه سبحانه فمن باب أولى أن يتجرأوا على رسله ، واذا كان الله قد أتاح لهم أن يعارضوه ويحاوروه هو فمن باب أولى أن يتيح لهم ذلك مع رسله، لأن اتاحة الله لهم ذلك ليست من باب الرضا أصلا، وانما هي من باب انصافهم بوصفهم طرفا في خصومه ، ومن حق كل طرف في الخصومة أن يبدى رأيه ووجهة نظره في اثناء الخصومة كما يشاء ، بصرف النظر عن كونها حقا أو باطلا ، وبصرف النظر عن كونها ترضي الطرف الآخر أو تسخطه ، ومهمة الطرف الآخر وواجبه في الخصومة أن يرد على رأى خصمه بالحجة والمنطق ، وليس من حقه أن يلجأ الى اية قوة أو ضغط على خصمه أو تسفيه له أو أى شيء يتجاوز حدود مقارعة الحجة بالحجة والرأى بالرأى حتى يتضح الحق في غير لبس ، وحين يتضح الحق فعلى الطرفين أن يخضعا له في غير التواء أو تحايل ، فهذا أساس الخصومة الانسانية كما ينبغي وهي أن تعتمد على الحجة والمنطق ٠ فاذا اعتمدت على القوة قبل الحجة لم تكن خصومة انسانية ، وانما هي خصومة حيوانية كما يفعل الحيوان الأعجم حين يختلف أفراده ، واذا لجأ طرف الى القوة بعد وضوح الحق بالحجة ، فانما يكون ذلك لرفض أحد الطرفين الاعتراف بالحق والرضوخ له ٠

ومن مألوف الناس في كل العصور والمجتمعات أن يقيموا بين طرفي الخصومة حكما قاضيا ، ليحكم بوضوح الحق وظهوره ، فلا يتيح لأحد الطرفين أن يمارى أو يجادل في ظهور الحق ٠

وبالقياس الى الأديان فان الحكم فى أية خصومة هو الله بعد اثبات الوهيته سبحانه للمؤمنين ، وذلك أن من حق الناس أن يثبت لهم الوهية الله ووحدانيته بالعقل ، وهم فى هذا طرف فى الخصومة ، ومن حقهم أن يتساءلوا وأن يبدو ما يشاءون من اعتراض عقلى منصف غير ملتو ، وعلى رسل الله ومن ينوب عنهم ان يثبتوا ذلك حتى يتضح الحق ، كما أن من حق الناس ان يثبت الرسل لهم انهم رسل الله بما يحملونه من ادلة او معجزات ، وحين يثبت ذلك يكون الله سبحانه ومن ينوب عنه من رسله او شريعته هو الحكم فى اية خصومة ٠

وقد كانت هذه المراحل فى القرآن فى أو فى صورها ٠ ولكن ليس من هدف هذا الحديث الاستطراد فيها ٠

وانما يعنينا هنا موقف القرآن فى الخصومة بين خصوم الله ورسل الله ٠

والقرآن يؤكد تعرض رسل الله جميعا وبدون استثناء لهجوم الناس عليهم ، ورميهم بأفحش السباب فضلا عما يتبع ذلك من عدوان ، ومن الغريب أن هناك سبتين اتفقت كل المجتمعات فى كل العصور على رمى رسل الله بهما ، وهمـا السحر والجنون ، ومما يزرى بالانسان العادى فضلا عن النبى أن يرمى بأحدهما ، ففى القرآن :

(كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون ، أتواصوا به) (٣) ؟

فالقـرآن يتعجب من ذلـك تعجـب السـخرية بتعبـير (أتواصوا به) ؟ بمعنى هل أوصت كل أجيال البشر بعضها بعضا بأن تتهم رسل الله بذلك ؟ والقرآن حافل بما أصـاب رسل الله من أقوامهم مجتمعين ، وما أصابهم فرادى ، فمـا أصابهم مجتمعين هو مـا اشترك كل الرسـل فى تحمـله من أقوامهم ، وما أصابهم فرادى هو ما وجه الى كل رسول بذاته فضلا عما اشترك فيه مع بقية رسل الله ٠ وهذا النموذج بوصفه

---

(٣) ٥٢ سورة الذاريات ٠

مثالا لما اشترك فيه كل الرسل من خصومة مع اقوامهم ، وجه اليهم فيها أقوامهم هجومهم فى صورة آراء تتضمن تكذيب الرسل وتسفيههم ، فلم يكن رد الرسل بالغضب أو بمبادلتهم أى لفظ يؤذيهم ، وانما بالحجة والمنطق ، فلما وضح الحق وعجز الأقوام عن دفع حجج الرسل ، لم يرضخوا للحق كما ينبغى أن تكون الخصومة المنصفة ، وانما لجأوا الى القوة التى هى من شأن الحيوان الأعجم فى التعبير عن موقفه فى الخلاف والخصومة ، حيث يقول الله تعالى :

(ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب ، قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن ناتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ، وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا) (٤) .

فهذا تقرير عام عما ووجه به الرسل منذ نوح حتى محمد ، من تكذيب أقوامهم اياهم ، واتهامهم بأنهم يريدون أن يفسدوا عليهم حياتهم وتقاليدهم التى ورثوها عن آبائهم ، وحين تغلبهم الحجة يلجأون الى العنف قائلين :

(لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا) .

---

(٤) ٩ وما بعدها سورة ابراهيم .

والذى يعنينا هنا أن القرآن هو الذى يسجل اراء خصومه رغم ما فيها من محاولة لهدم كل مقومات الدين التى يرتكز عليها القرآن نفسه ٠

واذا كان القرآن يسجل كل ما واجهوا به محمدا صلى الله عليه وسلم ، وهو يتلو هذا عليهم فيفاجأون بأن ما فعلوه او قالوه ضده مسجل فى القرآن الذى يتلوه عليهم ، فان القرآن يتلو عليهم ما فعله المشركون من الأمم السابقة وما قالوه ضد أنبيائهم ، وكأنه فى ظاهر الأمر يرشدهم الى وسائل أخرى للمعارضة والمجابهة فعلها السابقون ليكرروها أو ينسجوا على منوالها ، ولكنها فى حقيقة الأمر استخفاف بما يفعلون وما يقولون ، وكأن القرآن يقول لهم افعلوا ما شئتم ضد الله ورسوله ، فقد فعل السابقون أكثر مما تفعلون فلم ينفعهم ما فعلوه شيئا ، ولم يضر هذا رسل الله والمؤمنين شيئا ٠

نماذج ضد بعض الرسل السابقين :

والقرآن حافل بما وجهه الكافرون فى كل جيل الى رسولهم ، وما من نبى على الاطلاق الا وناله من الأذى النفسى والحسى الكثير ، بل كثيرا ما كان يصل الأمر الى قتل الأنبياء أو محاولة قتلهم ، وكل هذا مسجل فى القرآن ٠

موسى عليه السلام :

وعلى سبيل المثال مما سجله القرآن عن موسى عليه السلام هذا السيل المنكر من الشتائم والسباب التى صبها عليه عدو الله وعدوه فرعون ، من وصفه اياه بالسحر أو الجنون ، كقوله تعالى :

(وفى موسى اذ أرسلناه الى فرعون بسلطان مبين ، فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون) (٥) ٠

أو وصفهم اياه بالكذب ، كقوله تعالى :

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) (٦) ٠

(٥) ٣٨ ، ٣٩ سورة الذاريات ٠
(٦) ٢٣ ، ٢٤ سورة غافر ٠

ولكن العجيب المضحك ان يصور فرعون للناس أن ما يدعو اليه موسى فساد فى الأرض ومضمون هذا ان ما يفعله هو من ظلم وطغيان واستبداد هو اصلاح فى الأرض ، فهو يصور ان الأرض صالحة بما يفعله هو وان موسى يريد بدعوته أن يحول هذا الصلاح الى فساد ، وكل ما يدعو اليه موسى وأى نبى هو الايمان والعدل والاستقامة ، فهذا فى رأى فرعون أو فى تضليله افساد فى الأرض ، واذا كان هذا يبلغ العجب منه أن يكون مضحكًا من باب شر البلية ما يضحك ، فان الأوغل منه فى الغرابة والعجب أن هذا ليس منهج فرعون وحده ، وانما هو منهج كل الطغاة من ذوى السلطان ، ولا يكاد يخلو منهم عصر أو مجتمع ، وهم يصورون للناس فى أساليب شديدة التنوع والتلوين أن ما يفعلونه هو الخير والاصلاح ، وأن المنكرين عليهم هم الذين يريدون الافساد فى الأرض ، وموضع الغرابة والعجب أن الشعوب كثيرا ما تصدقهم فى كل ما يقولون عن أنفسهم وعن معارضيهم ، ففرعون يقول عن موسى :

(ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) (٧) .

فهو بكل طغيانه وتحديه لله سبحانه يصف موسى بالفساد خائفا أن ينشر موسى فساده فى الأرض ، بينما يصف فرعون نفسه وما هو فيه من كفر وطغيان بالصلاح والرشاد ، والقرآن ينقل عنه :

(قال فرعون ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد) (٨) .

والاستثناء يتضمن أن فرعون يؤكد أن كل ما يفعله على الاطلاق رشاد ، وليس فيه خطأ أو ضلال وفى القرآن أمثلة كثيرة لرمى الأنبياء بالاضلال والافساد ، وأحيانا يصفه

---

(٧) ٢٦ سورة غافر .

(٨) ٢٩ سورة غافر .

فرعون موسى بالمهانة معيرا اياه بعدم طلاقة لسانه قائلا :

(أم أنـا خـير من هـذا الذى هو مهين ولا يـكاد يبين) (٩) ٠

وهذا فضلا عما وجه اليه من اساءات أخرى ، وما عاناه ضمن قومه من ظلم واضطهاد ، ومن محاولة قتله ، وكل هذا مسجل بتفصيل فى القرآن ٠

هـود عليـه السـلام :

والسادة الكافرون من عاد قوم هود يصفون دعوة نبيهم الى الايمان والاستقامة بأنها سفاهه ، ومادامت فى رايهم سفاهة فلا يمكن أن تكون صادرة عن إله أو مصدر خير ، واذن فهو فى رأيهم كاذب مفتر على الاله ، ففى القرآن عنهم (قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين) (١٠) ٠ وهم لا يقولون هذا عن هود هجاء أو سبا ، وانمـا كأنهم يقصدون فعـلا أن الدعوة الى الايمـان والاصلاح التى يدعو اليها هود سفاهة ، بل يصفونها أحيانا بالجنون ، ويؤكدون أنهم يقصدون ذلك حيث يعللون ما أصاب هودا فى رأيهم من العته والجنون بأنه من غضب الآلهة عليه حيث دعا الى معبود سواهم فانتقموا منه بأن أصابوه بما هو فيه ، وذلك حيث يقولون :

(ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) (١١) ٠

ومن المضحك أيضا أن السوء الذى يزعمون أن آلهتهم أصابت به هودا انتقاما منه هو دعوته الى الايمان والاصلاح ٠

---

(٩) ٥٢ سورة الزخرف ٠

(١٠) ٦٦ سورة الأعراف ٠

(١١) ٥٤ سورة هود ٠

نوح عليه السلام :

والســادة الكافرون من قوم نوح يوجهون اليه سيلا من الشــتائم والانتقــاص فى صفات واساليب شتى ، والقرآن يسجلها ويعرضهــا ، ومن ذلك أنه فى حين أنه لا يعــدو أن يدعوهم الى الايمان بالله الواحد وأنه فى دعوته مشفق عليهم ناصح لهم ، فاذا السادة يرون هذا ضلالا مبينا من نوح ، وفى القرآن عن ذلك :

(فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قال الملأ من قومه انا لنراك فى ضلال مبين) (١٢) ٠

وأحيانا يصفه الســادة الــكافرون بأنه ليس الا رجلا مخبول العقل يريد أن يصنع لنفسه مجدا وعلوا يتميز به عن غيره فدعا الى ما دعا اليه ٠ فهو كاذب فى ادعائه أنه رسول من الله ، لأن الله لو أراد فى زعمهم أن يرسل رسولا لأرســل ملكا وليس بشرا ، وعن هذا فى القرآن ٠

(فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شــاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنــا الأولين ان هــو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين) (١٣) ٠

وأحيــانا يتخذ منــه السادة الكافرون مجالا للســخرية والتفكه ، وذلك حين أخذ يصنع السفينة التى أوحى الله اليه صنعها ، يقول تعالى :

(ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) (١٤) ٠

---

(١٢) ٦٠ سورة الأعراف ٠

(١٣) ٢٤ وما بعدها سورة المؤمنون ٠

(١٤) ٣٨ سورة هود ٠

صالح عليه السلام :

والكافرون من قوم صالح يصوغون أحيانا اتهامهم اياه بالسفاهة والجنون فى أسلوب كأنه فى ظاهره يتضمن شيئا من انصاف ، حيث يعترفون له بأنه كان قبل أن يدعو الى ما دعا اليه عاقلا حكيما مقدرا ، ينتظرون منه الخير ، واذا هو يصبح فيما هو فيه فى زعمهم من السفه والجنون ، فيتعجبون مما يرونه تناقضا بين حاليه ، وفى القرآن الكريم :

(قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا)(١٥)

أى كنت عاقلا يرجى منك الخير حيث تألف منك قبل دعوتك هذه جنونا ولا ميلا الى شر ، فماذا أصابك ؟

بل ان قوم لوط جعلوا الدعوة الى الطهر الخلقى جريمة توجب العقاب ، وفى القرآن عنهم :

(قالوا أخرجوهم من قريتكم انهم اناس يتطهرون)(١٦)

فمما يعيب قريتهم فى رأيهم أن يكون فيها شىء طاهر أو أحد يدعو الى طهر ، وكانهم لا يقبلون ان يتصوروا مجرد تصور أن يكون فى قريتهم طهرا وليس فى هذا الحديث استقصاء للرسل الذين واجههم أقوامهم بالشر والعدوان والسب ومحاولة الاهانة ، فما من رسول الا وقد أصابه من قومه أكثر من لون من ألوان الايذاء والشتم على تفاوت بينهم، وليس فيه استقصاء لما فى القرآن مما أصاب هؤلاء المرسلين، فما من شك أنه قد أصابهم فوق ذلك كثير قد ساقه القرآن ، ولكن القصد هو اثبات أصل المعنى الذى يدور حوله حديث الكتاب ، وهو أن من مزايا القرآن التى سبق بها كل المتحدثين عن الحرية والعدل والانصاف ما يبدو فى القرآن واضحا ومتعددا من الاهتمام بحق الخصم فى خلال الخصومة ، بل وحماية هذا الحق وابرازه ، ولو كانت الخصومة مع الله سبحانه نفسه ، أو مع رسله الذين ينوبون ويتحدثون عنه ،

---

(١٥) ٦٢ سورة هود .

(١٦) ٨٢ سورة الأعراف .

وليست هنـاك حماية للحق ، ولا ابراز له فوق أن يسـجله القرآن ليتلوه أو يسمعه كل الناس ، فى كل العصور ، وكل البينات ، مع أنه موجه ضد الله ورسله ودينـه . وما هـذه النماذج التى سيقت الا أمثلة لذلك .

محمد صلى الله عليه وسلم :

وحيث كان القرآن هـو الكتـاب المنزل عـلى محمـد ، والمنسوب اليه ، والمعبر عنه ، فان ورود أى شىء فى هـذا القرآن مما يسىء الى محمد أو يمس شخصه هو أبلغ دليل على حرص القرآن ، بل والى الله سبحانه ، فطاعة الرسول طاعة الله كنص القرآن :

(من يطع الرسول فقد أطاع الله) (١٧) .

وكذلك جحود دعوته أو ايذاؤه انما هو موجه ضمنا بل أساسا ضد الله سبحانه ، وفى القرآن عن هذا :

(قـد نعلـم انه ليحـزنك الذى يقـولون فانهـم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)(١٨)

بمعنى أن ما يوجهونه ضدك انما هـو موجه فى الحقيقة الى الله .

ومعظم ما وجهـوه الى الرسـول ينحصر فى عنـاصر محددة ، لأن هذه العناصر هى المنابع التى نبعت منها اتهاماتهم للرسول ومواقفهم منه ، وهى :

١ ــ اتهامه صلى الله عليه وسلم بالكذب نابع من اعتقادهم بأن الله لا يمكن أن يرسل بشرا ، فعنده الملائكة وحين يرسل رسولا فلابد أن يكون فى رأيهم من الملائكة ليصدقه الناس ، ومحمد ليس ملكا فهو اذن فى زعمهم غير صادق فى ادعائه أنه مرسل من الله .

---

(١٧) ٨٠ سورة النساء .
(١٨) ٣٣ سورة الأنعام .

٢ ـ اتهامه بالجنون نابع من أنهم يعتقدون استحالة حياة الانسان بعد موته ، فحين يقول الرسول ان الموتى سيبعثون بعد أن يصبحوا عظاما وترابا فهو اذن غير عاقل فى زعمهم وانما هو مجنون ٠

٣ ـ اتهامه بأنه ساحر نابع من التأثير النفسى لبلاغة القرآن الذى يتحدى فى تعجيزه الانس والجن ، فحينما يسمعه العربى بذوقه اللغوى الأصيل اذا هو مأخوذ به ، واذا كل مشاعره وأحاسيسه مختلجة متعلقة به ، بصرف النظر عن أنه سيتجه حينئذ الى الايمان أم يظل على شركه ، ولكن الذين لم يكونوا واقعين تحت ضغوط العادات والأوضاع الاجتماعية كانوا لا يترددون فى الاندفاع الى الايمان مضحين بروابطهم الاجتماعية وغيرها ، بل يتحدونها ويصارعونها ، حتى ينفصل الابن بايمانه عن أبيه المشرك ، وكذلك عن امه ، وعن أصدقائه ، وعن قبيلته ، وهذا شىء لم يكن مألوفا عندهم الا فيمن يصيبهم السحر ، الذى يصنعه بعض السحرة ليفرقوا به بين الذين تربطهم روابط ، وقد ربطوا بين القرآن والسحر ، من حيث ان أثرهما فى نظرهم واحد ، والقرآن كان فى رأيهم هو كلام محمد ، واذن فهو سحر يصنعه محمد وأحيانا يصفون الحديث عن البعث بأنه حديث عن السحر ، ومن هنا كان اتهامهم للرسول بأنه ساحر

٤ ـ اجتماع الكذب والجنون والسحر فى شخص ما لا يبقى من كرامته أو تقديره شيئا فى نظر من يعتقدون ذلك ، ولذلك فان الذين كانوا يصدقون هذه الاتهامات من المشركين وكانوا يعتقدون أنها حق استهانوا بشخص الرسول فجعلوه موضع سخرية واستهزاء ، وهذا منبع سخريتهم واستهزائهم به ٠

والقرآن حافل بالأمثلة لكل نوع من الأنواع السابقة ولغيرها مما وجهوه الى الرسول ٠

ومن ذلك فيما يتعلق برميهم اياه بالكذب فى ادعائه النبوة ، وأنه لو كان صادقا لكان ينبغى أن يكون معه ملك ،

ليكون الملك هو الرسول الحقيقى من الله ، من ذلك ما ينقله عنهم القرآن :

(وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا) (١٩) .

ولذلك فان القرآن يكرر تأكيد بشرية الرسول ، وأنه لا يصلح أن يكون المرسل الى جنس من المخلوقات الا واحدا منهم ليتفاهم معهم ويتجاوب لأن طبيعته هى طبيعتهم ، فيجعل القرآن هذا المعنى قضية يناقشها فى كثير من مواضعه مناقشة عقلية ، منها أنه لو أرسل الله الى البشر ملكا كما يطلبون لما استطاعوا أن يتفاهموا معه وهو فى طبيعته الملكية ، بل لن يستطيعوا أن يروه ، فلابد أن يتحول حينئذ الى رجل من البشر ، وحينئذ سيقولون له بل أنت بشر ولست ملكا ، ويحدث لبس فى الموقف هل هو ملك أو بشر ، وفى القرآن :

(ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) (٢٠) .

وحين تبدأ فكرة امكان أن يكون المرسل من الله بشرا تجوز فى عقولهم فانهم يلجأون الى الاساءة الى شخص محمد صلى الله عليه وسلم من ناحية أخرى هى الاختيار ، مستنكرين أن يختار الله من بين البشر رجلا ليس غنيا ولا سيدا فيجعله رسولا له ، مع وجود الأغنياء والسادة الذين يرونهم أولى بهذه المنزلة الكبرى ، فيقولون ما نقله القرآن عنهم من قولهم بأسلوب الاستنكار :

(أأنزل عليه الذكر من بيننا) ؟ (٢١) .

وقد حددوا شخصين من كبار سادة العرب رأوهما أولى من النبى بالنبوة ، هما الوليد بن المغيرة فى مكة ، وعروة بن

---

(١٩) ٧ سورة الفرقان .
(٢٠) ٩ سورة الأنعام .
(٢١) ٨ سورة ص .

مســعود الثقفى فى ثقيف بالطائف ، فقالوا ما نقله عنهـم القرآن :

(وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (٢٢) ٠

وكل هــذا فى رأيهم تجميع لأدلة تكذيب الرســول فى ادعائه حمل الرسالة من الله ، حيث كان بشرا ولم يكن ملكا وحيث كان شخصا عاديا فى المجتمع وليس زعيما ولا سيدا ٠

وأما عن انكارهم البعث والتعجب الشديد فى نظرهم من تصور أية حياة بعد المــوت فان القرآن يحــوى العــديد من تسجيل هــذا عليهم فى أساليب متنوعة بعضها تأكيد شــديد لعدم وجود بعث بعد الموت ، وبعضها وصف تصور البعث فى رأيهم بأنه لا يكــون الا نــوعا من الســحر والتخييل الذى لا حقيقة له ، ومنها وصف القول به بأنه جنون وغير ذلك ، ومن هذا :

(وأقســموا بالله جهــد أيمانهــم لا يبعث الله من يموت) (٢٣) ٠

ومنها :

(وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أانا لمبعوثون خلقا جديدا) (٢٤) ٠

ومنها :

(وقالوا ان هذا الا سحر مبين ، أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) (٢٥) ٠

وأحيانا يصفون القول بالبعث بأنه نوع من الجنون فضلا عن الكذب ، ولكنهم يصوغون ذلك فى أقصى ما يحمل أسلوب من استنكار وتعجب واستخفاف بمن يقــول هــذا ، فكأنهم سمعوا النبى صلى الله عليه وسلم يقول بالبعث أخــذ بعضهم

---

(٢٢) ٣١ سورة الزخرف ٠
(٢٣) ٣٨ سورة النحل ٠
(٢٤) ٩٨ سورة الاسراء ٠
(٢٥) ١٥ وما بعدها سورة الصافات ٠

يسعى الى بعض قائلين هل تريدون أن تستمعوا الى أعجب ما نسمع ؟ وهل تريدون ان تروا أغرب ما يرى ؟ تعالوا الى رجل يقول ان الناس سيبعثون بعد الموت ، بعد أن يصبحوا أشلاء ممزقة ، ويصيروا الى عظام وتراب :

(وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد ، افترى على الله كذبا أم به جنة) ؟ (٢٦) .

بمعنى أنه لا يمكن أن يكون من يقول هذا القول شخصا سويا ، بل اما أن يكون كاذبا يفترى على الله ما لم يقل ، واما أن يكون مجنونا يتخيل أوهاما مما يتخيله المجانين ، فيتخيل فى نفسه أن الناس سيبعثون بعد الموت فيتوهم أن هذا الخيال حقيقة ، وهذا معناه يقينهم بأنه لا حياة بعد الموت ، وعدم استعدادهم حتى للتفكير فى امكانه ، ولهذا كانت فكرة البعث بعد الموت أشد عقبة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم فى وصوله الى عقولهم ، وفى توصيل الدين الى نفوسهم .

ولكن القرآن يسجل رأيهم هذا فى محمد صلى الله عليه وسلم كما يسجل كثيرا غيره مما رموه به ليكون ضمن القرآن الذى يتلى فى كل بيئة وكل عصر ، وهو من باب الانصاف للمشركين ، حيث يسجل رأيهم كما صدر عنهم ، ثم يناقشه بعد ذلك .

ومن أمثلة رميهم النبى صلى الله عليه وسلم بالسحر :

(وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشىء عجاب) (٢٧) .

فأسلوبهم فى التعبير عن اتهامهم اياه بالسحر يوحى بتمثيل عمل السحرة ، فالواقع أن النبى لم يجعل الآلهة الها واحدا ، وانما دعا الى الاله الواحد ونبذ كل ما عداه من

---

(٢٦) ٧ سورة سبأ .

(٢٧) ٤ وما بعدها سورة ص

معبود ، ولكنهم يصورونه كأنه ساحر جمع الآلهة العديدة وهى آلهتهم ثم دمجها وخلطها فأخرج منها الها واحدا ، أو خيل الى الناس هذا كما يفعل السحرة ليرى الناس هذه الآلهة جميعا وقد أصبحت شيئا واحدا أو الها واحدا :

(أجعل الآلهة الها واحدا) ؟

وذلك لا يفعله الا السحرة ، وقد جعلوا ذلك دليـلا من أدلة ادعائهم أنه ساحر ، حيث نبعت فكرة رمى النبى بالسحر عندهم من تأثيره فى سامعيه حيث يجذبهم اليـه فيؤمنون به منفصـلين عن كل من تربطهم بهم علاقة سـابقة ، فوصفوا النبى من أجـل ذلك بأنه سـاحر ، كما صـورت ذلك سورة المدثر ، ثم أصبحوا ينظرون الى كل ما يقوله النبى مما يرونه غريبا على أنه نوع من السحر ، على أساس أن الساحر تنتظر دائما منه الغرائب ، والقرآن يصور انفعالهم حين يستمعون الى الرسول ، وما يفضى به بعضهم الى بعض بعد أن ينصرفوا عن استماع اليه من تأثير كلامه وهو القرآن فيهم ، وكأنهـم كانوا حين يستمعون الى القرآن مسحورين مسلوبى الارادة ، ثم بعـد انصرافهم يبدأون يفيقون شيئا فشيئا ، فيتبـادلون عرض خواطرهم ، ويتشاركون النجوى فيما اشتركوا فيـه من التأثر والانفعال فى أثنـاء الاسـتماع ، ثم الافاقة حين ينصرفون ، فلا يجدون ما يصفون به ذلك الا أنه نـوع من السحر الذى يحيطهم به محمد ، فالقرآن يصـور ذلك ، فى قوله تعالى :

(نحن أعلم بما يسـتمعون به اذ يسـتمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا) (٢٨) .

ومن أمثلة استخفافهم بشخص النبى صلى الله عليه وسلم استخفافا مزريا ، واستهانتهم به استهانة تدعوهم الى السخرية منه ومن كل ما يقول أو يفعل بل الى السخرية من شـخصه

(٢٨) ٤٧ سورة الاسراء .

حتى دون أن يقول أو يفعل شيئا ، على أساس أن شـخصه يتضمن دعواه انه مرسل من الله :

(واذا رأوك أن يتخذونك الا هـزوا أهـذا الذى بعث الله رسولا) ؟ (٢٩) ٠

بمعنى أنهم كلما رأوا شخصك اتخذوك مادة للسـخرية والتهكم فى مجلسهم ، متسائلين فيما بينهم بهذا التعبير الذى يتضمن أقصى ما يحمله تعبير من استخفاف واستهزاء (أهذا الذى بعث الله رسولا) ؟ ووجه الاسـتخفاف الشـديد به فى زعمهم أنهم اتفقوا على وصفه بعد النبوة بعـدة أوصـاف شديدة الازدراء بصاحبها ، منهـا الكذب ، ومنها الجنـون ، ومنها السحر ، ومنهـا غير ذلك ، ومن تجتمع فيـه هـذه القبائح لا يصلح أن يكون رسولا لأحد من البشر ، ولا يليق بشخص عاقل حكيم من الناس أن يختار رسوله بهذه الصفات أو بواحدة منها ، فكيف بالله حين يختار رسوله وقد اجتمعت فيه هذه النقائص فى زعمهم ، ان عاقلا لا يتصور ان ينزل الاله الى درجة أن يختار رسولا بهـذه النقائص ، واذن فالله لا يمكن أن يختار رسولا كهذا ، وحين يدعى هذا الشـخص أنه رسول الله فهو يستحق منهم كل هذه السخرية ، وهـذا مضمون قولهم :

(أهذا الذى بعث الله رسولا) ؟

وكذلك قولهم :

(هل ندلكم عـلى رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد) (٣٠) ٠

فانه يتضمن فيما يتضمن تعجبهم من البعث واستنكارهم اياه ولكنهم صاغوا ذلك فى أسلوب السخرية ممن يقول به وهو الرسول ٠

---

(٢٩) ٤١ سورة الفرقان ٠

(٣٠) ٧ سورة سبأ ٠

وكذلك من استخفافهم بشـخص الرسـول ما وصفه به بعض المنافقين من الذل والهوان بالقياس الى غيره من السادة الأعزة :

(يقـولون لئن رجعنا الى المدينـة ليخرجن الأعز منها الأذل) (٣١) ٠

والقائل هـو عبد الله بن أبى الزعيم المنـافق فى قصـة مشهورة مؤداها أنه كان ضمن المسلمين بقيادة النبى صلى الله عليه وسلم فى وقعة بنى المصطلق ، وفى أثناء عودتهم حدثت مشادة بين شخصين أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار تغلب فيها المهاجر على الأنصارى فاستاء عبد الله بن أبى الذى كان قبل قدوم النبى الى المدينة سيد يثرب غير منازع ، فقال ما قال ، ثم أنكر أنه قال ذلك وأقسم فكذبه الله فى القرآن ٠

وكذلك من سخريتهم بالرسول قولهم :

(أأنزل عليـه الذكـر من بيننا) ؟ (٣٢) ٠

بمعنى انظروا الى هـذا الذى يدعى أنه اختير دوننـا جميعا لينزل عليه الوحى ويكون رسولا لله دون كل من ترون من السادة وذوى الشأن ؟

وهناك أوصاف أخرى رموا بهـا النبى صلى الله عليـه وسلم منها بالاضافة الى الجنون أنه كاهن وهم بهذا يريدون أن يربطوا بين بعض أساليب القرآن التى جاءت فى صـورة السجع وبين سجع الكهان المعروف لديهم ٠ ومنها وصفه بأنه شاعر ، محاولين أيضا أن يربطوا بين أسـلوب القرآن الذى يغلب عليه ختم آياته بنسج موسيقى متشابه وبين الشـعر ، مثـل :

قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون،

---

(٣١) ٨ سورة المنافقون ٠

(٣٢) ٨ سورة ص ٠

والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون) (٣٣) ٠

فهم يريدون أن يخلطوا بينه وبين الشعر لوجــود أدنى ملابسة بينهما مع أنهم أعرف الناس بأنه لا تشابه ولا لبس بينهما ، وكذلك أسلوب السجع كقوله تعالى :

(والنجم اذا هوى ، ما ضل صــاحبكم وما غــوى ، وما ينطق عن الهوى ٠٠٠) (٣٤) ٠

مع أنهم يوقنون بأنه لا تشابه بين هذا الأسلوب وأسلوب سجع الكهان ، ولكنه من باب قول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدى المساويا

والقرآن ينفى كل ذلك عن رسول الله ، ولكن بعــد أن ينصف أعداءه بأن ينقل عنهم نقلا صادقا أمينا كل ما قالوه ضد رسول الله ، وما وصفوه به ، ومن ذلك :

(فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنــون ، أم يقــولون شــاعر نتربص به ريب المنون ، قل تربصوا فانى معكم من المتربصين) (٣٥) ٠

فهم يرمونه بأنه كاهن ، وبأنه مجنون ، والقرآن يسجل ذلك ضمنا بأسلوب النفى ، ثم ينتقل الى اتهام آخر رموا به الرسول ، وهو أنه شاعر ، ثم عللوا أنفسهم بأنه ككل الشعراء يزدهر شعرهم ، ويعلو صيتهم فى حياتهم ، فاذا ماتــوا بدأ ذكرهم يخبو ، وبدأ شعرهم ينزوى ، ويصــبح ذكــرى من الذكريات، فهم يمنون أنفسهم، ويمنى بعضهم بعضا بالانتظار حتى يموت ، وحينئذ لا يكون لشىء مما يقوله أثر أو تأثير ،

---

(٣٣) أول سورة المؤمنون ٠

(٣٤) أول سورة النجم ٠

(٣٥) ٢٩ وما بعدها سورة الطور ٠

ومن باب الانصاف للخصم ، فان القران لا يسفه تفكيرهم هذا ، ولا يبين لهم ما فيه من خطل فى الفكر ، أو تضليل فى الموازنة بين القرآن والشعر ، وانما يضعهم على قدم المساواة مع خصمهم وهو الرسول حتى تنتهى الخصومة ، بل يأمر خصمهم وهو الرسول أن يعلن اليهم هذه المساواة :

(قل تربصوا فانى معكم من المتربصين)

أى انتظروا موتى فأنا منتظر اياه معكم والمؤمنون والعقلاء يشعرون بما يتضمنه هذا التعبير من سخرية بهم ، ولكنهم هم لابد ان يأخذوه على أنه انصاف لهم ، أو اذا استطعنا ان نلقى نظرة الى داخل نفوسهم نقول ان الذين يعتقدون منهم حقا أن الرسول شاعر فلاشك أنهم يرون هذا انصافا لهم ، أما الذين يقولون هذا منهم على أنه سلاح للدعاية ضد الرسول وتنفير الناس منه مع علمهم بأنها دعاية كاذبة ، فهؤلاء يشعرون بان هذا التعقيب من القرآن سخرية بهم ، واستخفاف بدعايتهم ، وكلا الفريقين سيجد فى هذا الأسلوب من القرآن دافعا له الى الايمان ، فأما الذين يعتقدون حقا أنه شاعر فان انصاف خصمهم اياهم سيجعلهم يطمئنون اليه ولو بعض الاطمئنان ، فيفتحون عقولهم ومشاعرهم ولو بعض الفتح ليستمعوا الى مضمون دعوة خصمهم فى حياد ، وهذا كاف لاقناع كل معتدل منهم بالايمان ، وأما الذين يعلمون أن ما يقولونه ضد الرسول انما هو دعاية كاذبة يحاربونه بها فان سخرية القرآن من دعايتهم واستخفافه بها سيجعلهم يشعرون بالاستخذاء واليأس فيميلون الى الجهة الأقوى، وهى الجهة الساخرة ، كما أن المستمعين للقرآن لأول مرة من المشركين والكافرين لا شك أن أسلوب الانصاف فى القرآن يستوقف المعتدلين منهم ، فيكون هذا الوقوف والتأمل أول طريقهم الى الايمان ٠

ومما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سماع لكل من ينقل اليه خبرا أو وشاية ، ولكنهم يصوغون ذلك فى

أقصى ما تحمل الصياغة من مبالغة ، فيقولون ما ينقل القرآن عنهم :

(ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن) (٣٦)

يعنون أنه سماع لكل حـديث ، ولكنهم يصـوغون ذلك بحيث كان النبى تحول كل شخصه الى أذن للسماع ، فلم تكن فيه صفة أخرى ، ولم يكن فيه عضو آخر غير السماع وعضو السمع ، ونظير ذلك فى الصياغة اللغوية قولهم عن الجاسوس هو عين ، فلما كان كل اهتمامه ، وكل هـدفه محصـورا فى الاستطلاع بعينيه ، فكان كل شىء فيه أصبح معطلا الا عينـه التى يتجسس بها ، وكذلك وصفهم الرسول بأنه أذن أى كأنه لا هم ولا هدف الا استماع الوشايات واستماع الأخبـار عن الآخرين ، وهذه سيئة يريدون الصاقها به ، والقرآن بعد أن ينصفهم فى الخصومة ويسجل ما قالوه ضد الرسول كما يسجل ما يقوله الرسول لهم ، يدافع عن رسـول الله ، فلا ينفى أنه يستمع ، ولكنه ينفى أن يكون استماعه شرا أو هادفا الى شر ، بل هو هادف الى الخير وحده دائما ، ولذلك كان الرد عليهم :

(قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم) ٠

والضلال فى نظر بعض الناس نسبى ، فكما أن المـؤمن يرى الكافر ضالا عن طريق الحق ، فكذلك الكافر يرى المؤمن ضالا عن طريق الصواب ، وكما أن المؤمنين يرون من يصـد الناس عن سبيل الله مضلا اياهم فكذلك الكافرون يرون من يخرج الكافرين من الكفر الى الايمان مضلا أياهم ، وبهـذه النسبية ينظر أعداء الله الى الرسول فيرونه يحاول اضلالهم عن طريق الصواب ، ليدفعهم الى ضـلال الايمان ، والقرآن ينقـل عنهم تعبيرا طريفـا فى نسبيته ، حيث يعترفون بأن الرسول أوشك أن يخرجهـم من عبـادة الأصـنام ويقنعهم

---

(٣٦) ٦١ سورة التوبة ٠

ببطلانها ، وكأنهم فى اللحظات الأخيرة تشبثوا بآخر خيط يربطهم بالأوثان فتعلقوا به ، فحال هذا الخيط بينهم وبين الانتقال الى الايمان ، وذلك حيث يقول تعالى ناقلا قولهم عن الرسول :

(ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) (٣٧) ·

وكما كان كل الكافرين فى الامم السابقة يتطيرون برسل الله ويعدونهم شؤما عليهم وعلى المجتمع ، فكلما حلت بهم مصيبة قالوا هذا من شؤم ذلك الذى يدعى انه رسول الله ، فكذلك قال مشركو العرب لرسولهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فكلما اصابهم سوء قالوا هذا من شؤم محمد ، وكذلك اليهود كانوا يقولون من شؤم محمد أنه منذ قدم المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها ، واذا كان هذا قد حدث فانهم بنزعتهم الاقتصادية التى يتميزون بها هم أعلم الناس بأن وجود مركز الاسلام فى المدينة وما يترتب عليه من كثرة الوافدين والمهاجرين اليها سيجعل فيها رواجا تجاريا ومعيشيا كبيرا ينتج عنه بالضرورة زيادة الاستهلاك وبالتالى زيادة الأسعار لزيادة الطلب على السلع ، ولكنهم يحاولون توجيه كل شىء ضد الاسلام ورسوله ، والقرآن ينقل عن أولئك وهؤلاء :

(وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) (٣٨)

أى من عند محمد صلى الله عليه وسلم ·

---

(٣٧) ٤٢ سورة الفرقان ·

(٣٨) سورة النساء ·

مهاجمة القرآن

والقرآن شريعة الله ، وهو كلام الله المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعنى ذلك أنه يمثل ثلاث جهات، وكل ما يوجه اليه من خير أو شر ، ومن تأييد او رفض ، انما هو موجه الى الجهات الثلاث مجتمعة ، وهذه الجهات هى الله سبحانه ، فالقرآن كلامه ، ثم الرسول ، لأن القرآن انزل عليه وهو المعبر عنه ، ثم الدين نفسه ، لأن القرآن هو تشريع الاسلام ودستوره ، فالايمان بالقرآن ايمان بالله وبالرسول وبالاسلام ، ورفض الايمان به رفض للايمان بكل هذه الجهات ٠

وقد كان المتوقع والقرآن بهذه المنزلة وهذه الأهمية أن يغضب الله سبحانه ــ حسب عرف البشر ــ غضبا شديدا مدمرا على كل من يمسه بسوء أو يحط شيئا ولو يسيرا من منزلته ، ولكننا نجد القرآن نفسه ــ وهو كلام الله ــ حافلا بعرض ما وجهه اليه أعداء الله من اساءات ومن تكذيب ومن تحقير أو تشويه أو غير ذلك ، فلا يبدو من الله سبحانه هذا الغضب المدمر ، بل نجد منهج الله الذى ضمنه القرآن ثابتا وملتزما متمثلا فى أمور :

١ ـ أحدها عرض رأى الخصوم فى القرآن كاملا ومفصلا مهما يبلغ من اساءة الى القرآن او الى المتكلم به وهو الرسول، اذ الى مصدره وهو الله ٠

٢ ـ اتاحة الحرية لهؤلاء الخصوم فى ان يقولوا ضـــد القرآن ما يشاءون ، بل وحمايتهم من اى ضغط او ايذاء فى اثناء خصومتهم ٠

٣ ـ الرد على كل ما يقولون ضد القرآن بالحجة والمنطق حتى يتضح الحق فى غير التباس بالباطل ٠

ومن ذلك ان الله سبحانه يتحدث عن الذين يخوضون فى القرآن باسوء من المشركين فلا يصب عليهم غضبا او وعيدا، ولا يامر رسوله والمؤمنين ان يردوا عليهم سوءا بســوء ، او هجوما بهجوم ، واقصى ما يطلبه سبحانه حينئذ من رسوله ان يعرض عن هؤلاء الخائضين المعتدين ويتجنبهم ، لا مقاطعــة لهم ، ولا ايذاء لهم ، وانما تجنبا للاصطدام بهم ، حتى يكفوا عن الخوض فى القرآن بالســوء ، وينتقلوا الى حــديث غير حديث القرآن فللرسول بعد ذلك أن يجالسهم ويتحدث معهم ، ففى القرآن :

(واذ رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) (١) ٠

وما هذا الترخص وتجنيب الرسول والمــؤمنين الغضب للقرآن الا انصافا للخصم ، لأن الخصومة بين الكافر والاسلام ليست أساسا حول القرآن أو الرسول أو غيرهما ، وانما هى حول الايمان بالله أو الكفر به ، فالكافر مادام لم ينتقــل الى الايمان فمن البدهى أن تكون كل آرائه حول الدين وعناصره عدائية ، وما دامت الخصومة قائمة فلا ينبغى أن نحاسبه على آرائه النابعة من هذه الخصومة ، وانما علينا أن نواجهه فى الخصومة نفسها وهى الايمان والكفر بسلاح الخصومة وهو

(١) ٦٨ سورة الأنعام ٠

الحجة والمنطق حتى تنحسم ، كما أن لكل طرف فى الخصومة أمام القاضى أن يبدى من آرائه أو دفاعه مـا يشاء ، وليس عليه فى هذا حرج ، بل على القاضى أن يحميه ويمكنه من هذا فى كامل حريته حتى يتجلى الحق ، فيحكم به القاضى لصاحب الحق ، وتكون هذه نهاية الخصومة ، ومن ثم نهاية الحرية فى مزاولتها ، والله هو سبحانه الحكم والقاضى بين عباده ، فهـو يطبق هذه المبادىء فى كل خصومات عباده ، من باب الانصاف لكل طرف فى الخصومة ، سواء أكان على حق أم على باطل ، وسواء أكانت الخصـومة فيمـا بينه وبينهم ، او فيمـا بين بعضهم بعضا ، ولذلك يأمر رسوله كما فى الآية السابقـة الا يتجاوز فى خصومته تحاشى مجالسة الخائضين بالسوء فى القران ، وفى أثناء خوضهم فحسب ، دون ان يكون له حق فى مبادلتهم اساءتهم بأية اساءة ، كما مر فى الآية السابقة ، وقد يقال فان الاية السابقة مما نزل فى مكة من القران ، فان سورة الأنعام مكية ، والرسول والمسلمون كانوا فى مكة من الضعف الاجتماعى بحيث لا يستطيعون رد اساءة ، ولو ردوا لكان ردهم وبالا عليهم ، وفتحا لابواب الشر والسـوء فوق رءوسهم ، فان القران حينئذ يدعوهم الى اسلوب الحكمة فى تحاشى مالا يستطيعون مقاومته ، وأنه لو كان الموقف فى المدينة حيث عـز الاسـلام والمسلمون لكان موقف الرسـول والمسلمين من الخائضين فى آيات الله مختلفا ، والجـواب ان هذه ليست مواقف أحداث تختلف باختلاف الظروف ، وانما هى مواقف مبادىء ، وهذا المبدأ يتعلق بحق الخصم وحريته فى مزاولة خصومته من وجهـة نظـره ، وهـذا مبدأ يقرره الاسلام ويشرعه فى كل خصومة ، سواء أكانت خصومة فردية كخصومة طرفين أمـام قاض ، أم كانت خصـومة جماعية ، كخصومة جماعتين أو حزبين أمام حـكم ، أم كانت خصومة مذهبية فكرية يكون القاضى فيها كتاب الله وسنة رسـوله ، ولكن كلها نمط واحد ، ويحكمها مبدأ واحد ، ومن جوانب هذا المبدأ حق كل طرف وحريته فى أن يعبر عن موقفه بما

يريد وكيفما يريد حتى يتضح الحق فى غير لبس فيكون هذا نهاية الخصومة ، حيث يحكم لصاحب الحق ، وتنتهى حرية الطرف الآخر .

والدليل على ذلك ، وعلى أن الآية المكية لم تكن لضعف المسلمين فى مكة أن المعنى نفسه تكرر فى المدينة بصورة أشد ، حيث ان آية مكة تتحدث عن خوض المشركين فى آيات الله بأية صورة ، ولكن فى المدينة يحدث ما هو أشد اساءة الى القرآن حيث اليهود هناك يثيرون ضد القرآن ما لم يكن يخطر ببال قريش فى مكة ، فاذا الكافرون فى المدينة لا يكتفون بالخوض فى آيات الله ، وانما يستهزئون بها ويظهرون كل ما هو كفر بها ، وقد كان المفروض أن يكون هذا أدعى للغضب عليهم ، وألا يكتفى الرسول بمحض الاعراض عنهم وعدم مجالستهم ، بل على الأقل يزجرهم وينهاهم ، ولكن القرآن لا يمكن أن يحيد عن مبادئه ، فاذا الله سبحانه لا يأمر رسوله حينئذ بأمر جديد ، أو بتغيير فى موقفه من المستهزئين بالقرآن ، وانما يذكره فحسب بما نزل عليه من القرآن فى هذا الشأن بمكة ، وما نزل فى مكة فى هذا الشأن هو الآية السابقة التى تأمر بالاكتفاء بتجنبهم فى أثناء الخوض ، وهذا التذكير فى قوله تعالى :

(وقد نزل عليكم فى الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره انكم اذا مثلهم) (٢) .

فهذه نزلت فى المدينة ، ولم يكن المسلمون منذ حلول الرسول بالمدينة فى موقف ضعف اجتماعى قط ، ومع ذلك فان هذه الآية تحدثهم عن الذين يظهرون كفرهم بالقرآن اظهارا يبلغ أذان المسلمين ، ويستهزئون به استهزاء يتصدى لأعين المسلمين وأسماعهم ، فلا يطلب منهم أكثر من .

---

(٢) ١٤٠ سورة النساء .

(فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) ٠

لأنهم اذا جالسوهم فى أثناء الاستهزاء بالقرآن والكفر به كانوا كالمشاركين لهم ، وهذا ما لا يليق بمؤمن ، ولكن عليهم أن يتركوا مجلسهم ويتجنبوهم ، وهذا ما أمر القرآن به رسول الله فى المدينة وهو ذو قوة كما أمره به فى مكة قبل أن تكون له من المؤمنين شوكة حيث يقول تعالى :

(واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) ٠

وينبغى أن نلحظ أن الآيتين كلتيهما تبرزان أن الاساءة الى القرآن كانت فى مواجهة الرسول والمسلمين أمام أعينهم :

(واذا رأيت الذين يخوضون ٠٠٠) ٠

بلفظ الرؤية وتجاه أسماعهم :

(اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ٠٠٠٠) ٠

بلفظ السماع ومع ذلك فلا يتجاوز القرآن الأمر بتجنبهم فى أثناء الاساءة واظهار الكفر ، ومضمون ذلك أن المسلمين لو بلغهم أن الكافرين قالوا أى شىء ضد القرآن ولم يكن هذا فى مواجهتهم فليس لهم أن يتعقبوهم أو يحاسبوهم ومن مضمون ذلك أيضا أن مخالطة الكافرين أو مجالستهم لذاتها لا غضاضة فيها على المؤمن بل صرح القرآن بهذا تصريحا فى قوله تعالى :

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين) (٣) ٠

فالمانع الوحيد للصلة بالكافرين وللبر بهم هو اظهارهم الحرب ضد المسلمين ، أما أن يقولوا ضد الاسلام أو ضد أى شىء من مقدسات الاسلام ما يمليه عليهم كفرهم فلا ينبغى للمسلمين أن يخاصموهم من أجله ، ويكون هذا من باب

---

(٣) ٨ سورة الممتحنة ٠

الانصاف للكافرين بوصفهم خصما للمؤمنين ، فان الانصاف يقتضى ألا نحجر عليهم فى ابداء رأيهم ، أو التعبير عن مذهبهم وعقيدتهم ، وانما علينا أن نواجههم فى أصل الخصومة ، وهى الايمان والكفر ، فعلينا أن نبين لهم الحق حتى يكون واضحا لا لبس فيه ، أما فروع الخصومة ومنها آراؤهم فى الاسلام ومقدساته فمن حقهم مزاولتها فى أثناء الخصومة كما أن من حقنا ابداء آرائنا فى كفرهم وفى عناصر هذا الكفر ومقوماته ، الا اذا قصدوا بما يظهرونه ايذاء المسلمين ، فانهم بهذا لا يكونون معبرين عن آراء فقط ، وانما يكونون قد أعلنوا حربا نفسية على المسلمين ، فيكونون حينئذ فى حالة حرب ، وليست خصومة مذهبية أو فكرية ٠

والقرآن حافل بمالا يكاد يحصى مما وجهه أعداء الاسلام الى القرآن من الطعن ، ولو أن أحدا من أعداء الاسلام اليوم أراد أن يصطنع مطاعن يطعن بها فى القرآن ، فمهما يبلغ جهده فى الطعن ، ومهما يبذل من فكر فى تلمس أوجه أو أسلحة يطعن بها فى القرآن فلا أظن أنه يستطيع أن يبلغ ما بلغه القرآن نفسه من تعداد المطاعن والسهام التى وجهت اليه من أعدائه ، ولا أظن أيضا أن انصافا للخصم مهما يبلغ من حرص على العدل يستطيع أن ينافس القرآن فى حرصه على انصاف خصومه ، وابراز كل آرائهم ، وكل مطاعنهم ، وكل جهودهم فى مهاجمته هو نفسه ٠

ولا أظن أحدا من المتشدقين بالحرية مهما يبلغ يستطيع أن يقف فيقول ، أو أن يجلس فيكتب أن خصومه قالوا عنه كذا وكذا وكذا ناقلا عنهم كل ما قالوه عنه بتفصيل وتعليل وتعداد وتكرار ، مع أنه يعلم أن كل ما قالوه عنه ليس الا محاولة ليس للمساس به فحسب ، ولا للاساءة اليه فحسب ، وانما هو محاولة لهدم كيانه هدما ، وتنفير الناس منه تنفيرا بالغ الحرص والسوء معا ، ولكن القرآن هو الذى فعل ذلك ،

ليضرب للناس أعلى مثل فى حماية الحرية ، وأعلى مثل فى انصاف الخصم .

ومما وصفوا به القرآن مهاجمين اياه :

١ ــ تكذيب أنه من عند الله ، ومن ثم فقد اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكذب ، وقد تكرر هذا فى القــرآن كثيرا ، وفى سورة المرسلات وحدها تكرر تعبير :

(ويل يومئذ للمكذبين) .

عشر مرات ، وكان أساس التكذيب هو تكذيب القرآن .

٢ ــ حين استمع العرب الى القرآن ، ورأوا فيه علمــا جديدا لم يألفوه ، وهم يعرفون أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يحصل علما يصوغ منه هذا القرآن اتجه ظنهم الى أفــراد من العبيد الأعاجم ، الذين كانوا يعيشون فى مكة ، وينتمون الى أصول أعجمية ، وخصوصا الفارسية والرومية ، وكانت لهــذه الأمم علوم وكتب تجمــع خلاصــة آدابهم وفلسفاتهم وعلومهم ، من مثل كتاب الالياذة للروم ، وكتاب اسفنديار للفرس ، وكتاب كليلة ودمنة الهندى الذى ترجمه عبد الله ابن المقفع الى العربية ، وكتاب الموتى للمصريين وقد نقشوا فقراته على جدران قبورهم ، ونحو ذلك من علوم الأمم السابقة وآدابهم ، وكان بعض هؤلاء العبيد كسلمان الفارسى ، وعداس مولى حويطب بن عبد العزى ، وجبر مولى عامر بن الحضرمى ، وكان بعض هؤلاء العبيد قد وعى بعض ما سمعه فى منبته من بلاد الفرس أو الروم ، أو ما ترامى الى سمعه من آداب الأمم وقصصها ، فكانوا يريدون أن يجعلوا لأنفسهم بعض الشأن ، أو بعض الميــزة عن ســائر العبيد فيتحدثون بهذه الطرائف والقصص ، يمتعون بها سامعيهم ، ويلمحون بهــا أحيانا الى أمجاد شعوبهم التى ينتمون اليها .

وحين سمع أهل مكة القرآن ، ولم يكن فى مجتمعهم أو فى ماضيهم العلمى والثقــافى ما يمكن أن يستقى منه هــذا

القرآن اتجه ظنهم الى أن محمدا انما يخلو الى هؤلاء النفـــر فيأخذ عنهم ثم يصوغه فى هذا القرآن ، وقد نقل القرآن عنهم دعواهم هذه أكثر من مرة ، فمن ذلك قوله تعالى :

(وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا أســاطير الأولين اكتتبهــا فهى تملى عليــه بكرة وأصيلا) (٤) ٠

والقوم الآخرون هم هؤلاء النفر المشار اليهم من العبيد الأعاجم ، والأساطير جمع أسطار أو أسطورة وهو ما سطره الأولون كتابة من أى نوع ، ومن الخطأ اللغوى الشائع ربــط الأسطورة بالــكذب ، فان مدلولها اللغوى لا يعنى أكثر من الشىء المسطر كتابة ، ولا يعنى أى حكم عليه بصدق أو كذب أو غيرهما ٠

فهم يدعون أو يظنون أن القرآن من املاء هؤلاء العبيد الأعاجم ٠

وأحيــانا يركزون اتهامهم فى شــخص معين من هــؤلاء الأعاجم ، على أساس أنه أهم المصادر التى يستقى منها محمد القرآن فى زعمهم ، وليس من المهم تحديد هذا الشخص . وانما المهم أنهم ينفون أن يكون القرآن من عند الله كمــا يقول لهم النبى ، وكل محاولاتهم المضادة لهذا ليست مقصودة لذاتها ، وانما المقصود بها نفى نسبة القرآن الى الله ، بدليل أنهم لم يتفقوا على نسبة القرآن الى هؤلاء الأعاجم ، ولم تكن هى الحجة الوحيدة أو الطعن الوحيد الذى طعنوه فى القرآن، وعن الماحهم الى هذا الشخص المعين يقول تعالى :

(ولقــد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان

---

(٤) ٤ وما بعدها سورة الفرقان ٠

الذى يلحدون اليه اعجمى وهـذا لسـان عـربى مبـين) (٥) ٠

وكانوا بطبيعة الحال يشيرون الى أكثر هـؤلاء الأعاجم أحاديث وطرائف وقصصا وخصوصا فيما يتعلق بالدين ، ويروى أنه عداس مولى حويطب بن عبد العزى ، على ان هذه الاسماء التى سمى بها هؤلاء العبيد الأعاجم هى فى اغلب الظن ليست اسماءهم الأصلية ، ولكن مواليهم العرب استثقلوا أسماءهم الأعجمية فاستبدلوا بها أسماء عربية ٠

٣ ـ ومما رموا به القـرآن وصفهم ايـاه بأنه شـعر ، وأصل هذا الاتهام نبع من احساسهم بتفوق القرآن فى بلاغته وأسلوب تصويره ، وهذا التفوق لا يجدونه الا فى الشعر ، حيث ان الشعر بالضرورة هو أعلى بلاغة وتصويرا من اسلوب التخاطب العادى ، والقرآن فيه التفوق والعلو عن الأسلوب العادى ، يضاف الى ذلك أن طبيعة أسلوب القرآن انه يعتمد فيما يعتمد على الجرس الموسيقى ، فرغم أنه نثر الا أنه تتوافر فيه نغمات الجرس الموسيقى ، حتى ان بعض عباراته يمكن أن تقابل شعرا موزونا ، كقوله تعالى :

(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) (٦) ٠

فهذا التعبير النثرى يمثل بيتا من الشعر الموزون ، هذا بالاضافة الى التزام القرآن ختم آياته بكلمات يتوافر فيهـا الجرس الموسيقى ، مثل يعلمون ويؤمنون ويفقهون وهكذا ، فمن هذا ونحوه ادعوا ان القرآن شعر ، مع أنهم بحكم شيوع الشـعر بينهم وبولعهم به هم أعرف الناس بأن القرآن ليس شعرا ، وقد واجههم بهذا المنصفون منهم رغم شركهم كما ورد عن الوليـد بن المغـيرة ، ولكن حرصهم على تلمس أى مطعن للقرآن دعاهم الى مغالطة أنفسهم فادعوا أن القرآن شعر ،

---

(٥) ١٠٣ سورة النحل ٠

(٦) ٩٢ سورة آل عمران ٠

والقرآن ينقل عنهم هذه الدعوى فى أكثر من موضع كقوله تعـالى :

(بل قالوا أضغاث أحلام بم افتراه بل هو شاعر)(٧)
وقوله تعالى :

(ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون)(٨) ٠

وكذلك قوله تعالى :

(أم يقولون شاعر تتربص به ريب المنون)(٩) ٠

والقرآن يرد على كل ما وجهوه ضد القرآن وغيره ردودا مقرونة بالبرهان والمنطق ، ولكن رد القرآن ليس مما يدخل فى موضوع هذا الحديث ، وانما يدخل فيه موقف خصـوم القرآن ومدى انصاف القرآن اياهم ٠

٤ ـ ومما رموا به القرآن وصفه بأنه سحر ، وقد سبق القول بأن هذا الوصف نبع من التشابه فى نظرهم بين اثر السحر وأثر القرآن فى تغير حال من يوجهان اليه ، فهم يرون بعض السحرة يصنعون سحرا يستطيع أن يفرق بين الزوجين، وبين المتعاطفين بأية عاطفة ، سواء أكانت عاطفة حب وود أم عاطفة بغض ونفور ، فاذا هذا السحر يحول العاطفة الى نقيضها ، فيتباغض المحبان ، ويتآلف المتباغضان ، ويفترق المجتمعان ، أو يجتمع المتنافران ، وهذا مما لا يزال يشيع اعتقاده خصوصا فى بيئات البدو والريف ، ومن هذه البيئات بيئة العرب ، ثم فوجئوا بمحمد صلى الله عليه وسلم يقـول كلاما هو القرآن فيصنع ما يصنعه السحرة ، فيفرق به بين زوجين ، أو بين والد وولده حين يعتنق أحدهما الاســلام ويبقى الآخر على شركه ، ومن جهـة أخـرى فانه يؤلف بين المتنافرين ، فيما لو اعتنق هذان المتنافران الاسلام فانهمـا

---

(٧) ٥ سورة الأنبياء ٠
(٨) ٣٦ سورة الصافات
(٩) ٣٠ سورة الطور ٠

سيصبحان صديقين يجمعهما الود والالف ، وشاعت هذه الظاهرة فى مكة ، وكانت فى تهديدها العلاقات بين الأزواج وبين الآباء والأبناء وبين الموالى والعبيد من أخطر ما هز مجتمع مكة وأثار قلقه وفزعه ، فصبوا حملتهم حينئذ على القران واصفين اياه بأنه هو السحر الذى فعل كل ذلك ، ومحمد بداهة هو المسئول عن ذلك حيث هو الذى ينفث هذا السحر من فيه فى صورة كلمات ، وهذا ما تصوروه حينئذ ، وكان مما فعلوه قبل ذلك ان أرسلوا زعيمهم الوليد بن المغيرة الى النبى ليفاوضه على ترك هذا الكلام الذى يقوله على أساس أنه شعر فيما يزعمون ، وفى مقابل تركه هذا الشعر يعطونه ما يريد ، وقد ذهب الوليد الى النبى على هذا الأساس ، وأسمعه النبى من القرآن سورة فصلت ، ولكنه لم يكد يبلغ فيها نحو عشر آيات حتى كان الانفعال قد أخذ من الوليد كل مأخذ ، فناشد النبى أن يكف عن التلاوة ، ثم عاد الى قومه فسفه أمامهم كل ما وصفوا به القرآن ، وخصوصا وصف الشعر قائلا لقد سمعنا الشعر ونعرفه ، فوالله ما هذا بشعر ، وأخذ يمجد فى القرآن حتى ظنوا أنه قد أسلم ، ولما وجدوه ثابتا على عقيدة الشرك كأنهم سألوه كيف يفلون هذا السلاح الذى يحطم به محمد فى عقيدتهم ، ويفرق به بينهم ، وكأنه طلب منهم أن يمهلوه حتى يتروى فى ذلك عن أناة ، وراح يدير الأمر فى عقله ، ويقدر أبعاده واحتمالاته ، فيما وصفه القرآن بأسلوب التعجب ، كما سبق حديثه (١٠) تعقيبا على ما ورد فى سورة المدثر (١١) ، حيث انتهى الى هذه المقولة

(ان هذا الا سحر يؤثر) .

ولكن وصفهم القرآن بأنه سحر يتضمن اعترافا غير منطوق بأنه ليس من كلام محمد ولا كلام البشر ، لأنهم سمعوا محمدا كثيرا وطويلا قبل نبوته فلم يصفوا كلامه بالسحر ،

---

(١٠) فى فصل زعيم قريش .
(١١) ١٨ وما بعدها سورة المدثر .

كما أنهم سمعوا كل الذين يدعون ان محمدا استقى القرآن منهم فلم يصفوا كلامهم بأنه سحر ، واذن فهو ليس كلام محمد ، ولا كلام أحد من الناس ، ولعل هذا الاستنتاج لم يكن بعيدا عن أذهانهم ، فأغلب الظن أنهم كانوا يشعرون حين يسمعون القرآن أنه ليس من كلام البشر ، وأن ما يدعيه محمد من انه كلام الله هو حق ، ولكن تأثير القرآن الاجتماعي فيما يترتب عليه من انفصال في روابط العلاقات حينذاك ، وما يلحق كثيرا منهم منه من أضرار جعلهم يتشبثون بدعوى أن القرآن سحر رغم وضوح الحق فيه ، ولعل هذا مما تشير اليه الآية الكريمة :

(واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين) (١٢) ٠

٥ ـ ومما رموا به القرآن أنه نوع من الكهانة ، وأساس هذه الدعوى كما سبق هو أنهم يعرفون سجع الكهان ، ويتناقلون عباراته ومأثوراته لغرابتها وطرافتها ، فلما سمعوا بعض ما ورد في القرآن بأسلوب السجع مثل :

(والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور ، والبيت المعمور) ٠

قالوا ان القرآن سجع كهانة ، وبالتالي فان محمدا كاهن، والقرآن يرد على هذه الدعوى كما يرد على غيرها ، ومن ذلك قوله تعالى :

(فلا أقسم بما تبصرون ، وما لا تبصرون ، انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون)(١٣)

كما يرد عليها وعلى غيرها في مثل قوله تعالى :

(فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون)(١٤)

---

(١٢) ٧ سورة الأحقاف ٠

(١٣) ٣٨ وما بعدها سورة الحاقة ٠

(١٤) ٢٩ سورة الطور ٠

ولكن أشد الردود افحاما لهم كان تحدى القرآن اياهم ان يحشدوا كل الانس ، وليس الذين يزعمون أن محمدا يستوحى منهم القرآن فحسب ، ثم يحشدوا مع الانس كل الجن ، ثم يحاولوا جميعا أن يأتوا بمثل القرآن ان استطاعوا ، ثم تدرج معهم القرآن فى التحدى ، فتحداهم أن يأتوا بمثل عشر سور من القرآن فحسب ان استطاعوا ، حتى تحداهم أن يأتوا بمثل أية سورة من القرآن ان استطاعوا ، وكل هذا معروف فى القرآن ، ولا داعى للاستطراد فى ذكره ·

على أن القرآن فى خلال ردوده على افتراءاتهم يشير أحيانا الى بعض عاداتهم أو معتقداتهم ، ومن ذلك اعتقادهم أن الشعر يستوحى من الشياطين ، وأن لكل شاعر شيطانا يلهمه شعره ، كما يقول شاعرهم مفتخرا بشيطانه ·

انى وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

ومن الملحوظ أن القرآن لا ينفى صحة هذا الاعتقاد ، وانما يورده أحيانا لمحض الرد عليهم ، كقوله تعالى فى سياق الحديث عن القرآن :

(وما هو بقول شيطان رجيم) (١٥) ·

ولكنه ليس من الابعاد فى الفهم ، ولا من الشطط فى الاستنتاج أن يفهممتأمل تعبير القرآن أنه يشير الى أن لهذا الاعتقاد أصلا من الصواب ، فتعبير :

(وما هو بقول شيطان رجيم) ·

ينفى أن القرآن من قبيل ما يعتقدون أنه من وحى الشياطين وهو الشعر ، ولكنه لا ينفى أن الشعر من وحى الشياطين ، بل ان سكوت القرآن عن هذا الاعتقاد مع حيث بيان مدى صحته يشير ولو اشارة بعيدة أن هذا الاعتقاد ليس خطأ ، فلو كان خطأ لكان المتوقع أن يشير القرآن الى وجه الصواب فيه ، أو على الأقل يشير الى هذا الاعتقاد خطأ ، بل

---

(١٥) ٢٥ سورة التكوير ·

هنـاك ما هو أوضح من ذلك فى هذا الاستنتاج ، وهـو أن القرآن يضع الشعراء فى سـياق الحديث عن الذين تتنزل عليهم الشياطين ، فى قوله تعالى :

(هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم) .

فالذين تتنزل عليهم الشياطين ، والذين هم من الأفاكين الآثمين عدة أنواع ، منهم الكهان ، ومنهم المنجمون ، ومنهم السحرة ، ولكن القرآن بعد هذا التقرير لا يتحدث عن الكهان ولا المنجمين ولا السحرة ولا غيرهم ممن تتنزل عليهم الشياطين ، وكأن هذا أمر معروف للناس ليس فى ذكره فائدة جديدة ، ولكن الشىء الذى ليس موضوع اتفاق بين الناس ، ولا اقتناع به هو تنزل الشياطين على الشعراء ، فالقرآن يذكره فى هذا السياق :

(هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفـاك أثيـم ، يلقون السـمع وأكثرهم كاذبون ، والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون) (١٦) .

فالشعراء وان لم يكونوا داخلين صراحة فيمن تتنـزل عليهم الشياطين ، الا ان وضعهم فى هذا السياق يجعل فهم دخولهم ضمن السياق ليس مستبعدا .

على أن هذا أيضا انما يجىء فى سياق نفى أن يـكون القرآن من قبيل ما تتنزل به الشياطين ، سواء أكان المنفى الشعر أو الكهانة أو غيرها مما تتنزل به الشياطين ، حيث أن الآيات السابقة تأتى بعد قوله تعالى عن القرآن :

(ومـا تنزلت بـه الشـياطين ، ومـا ينبغى لهـم وما يستطيعون ، انهم عن السمع لمعزولون)(١٧) .

---

(١٦) ٢٢١ وما بعدها سورة الشعراء .

(١٧) ٢١٠ سورة الشعراء .

وكان ما يأتى بعد ذلك من قوله تعالى :

(هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) .

ثم الحديث عن الشعراء كتوضيح وتأكيد لبعد القرآن عن كل هذه المجالات ، بمعنى أن الله سبحانه كأنه يقول لهم ان القرآن ليس من كلام الشياطين ومحمد ليس ممن تتنزل عليه الشياطين ، فهل تريدون أن تعرفوا على من تتنزل الشياطين ؟ على الذين يفترون الكذب فيصورونه للناس فى صورة الدجل وعلم الغيب وتشويه الحقائق ، وكأن الشعر باعتماده على الكذب وابتداع الصور التى لا حقيقة لها هو من هذا القبيل ، واعتماد الشعر على الكذب هو ما يقرره نقاد الشعر وعلماؤه فى قولهم المشهور :

(احسن الشعر أكذبه) .

٦ ـ وأحيانا لا يبدون مطعنا معينا يعيبون به القرآن ، وانما يرفضونه لذاته ، اما بحجة واهية غير موضوعية ، كاعتراضهم أن ينزل القرآن منجما أو مقسطا كما نزل ، فيعيبون عليه هذا طالبين أن ينزل القرآن جملة واحدة كاملة ، كقولهم الذى ينقله القرآن عنهم :

(وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة) (١٨) .

فهو مطعن واه لا يستند الى جذور أو أصول كمطاعنهم السابقة التى تعتمد على جذور ، لأن الشىء لا يحكم على قيمته من أجزائه أو جملته ، وانما يحكم على مضمونه من حيث هو بصرف النظر عن كونه مجملا أو مفصلا أو مجزءا ، ثم كل هذه الأمور تأتى بوصفها اضافات أو كماليات وليست أساسا فى الحكم .

وأحيانا لا يبدون أى مطعن فى القرآن ومع ذلك يرفضونه

---

(١٨) ٣٢ سورة الفرقان .

لذاته لا بأسباب ولو واهية كما سبق وانما بدون ابداء أسباب ، كما ينقل القرآن عنهم :

(وقال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله) (١٩) .

وكأنهم من خوفهم من تأثيره انطبع في نفوسهم النفور منه ، فهم يتمنون أن يستبدل به كلام آخر ، لا يهمهم أن يكون من عند محمد أو من عند الله فهم لا يتعرضون لهذا ، وانما يعنيهم زوال خطره الماثل في نفوسهم ولو بخطر آخر مماثل أو أشد ، والانسان حينما يشتد به الألم أو الضيق قد يتمنى زوال حاله هذه ولو الى حال أسوأ ، كالمريض الذى يدفعه الألم الى تمنى الموت ، فالموت ليس خيرا من المرض ، وليس تمنى المريض الموت مفاضلة بين المرض والموت ، وانما هى سيطرة الرغبة فى زوال الحال الماثلة .

٧ — وأحيانا لا يتحدثون عن القرآن نفسه ليعيبوه او يعيبوا شيئا فيه ، وانما يتحدثون عمن أنزل عليه القرآن ، وكأنهم حينئذ لا يرون فى القرآن عيبا أو مطعنا ، وانما يرون المطعن فى متلقى القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهم فى بيئة تقوم حياتها على التنافس فى القوة ، وخصوصا القوة الأدبية المعنوية فيما يتعلق بالمنزلة فى المجتمع ، فهم يرون محمدا وان كان يتمتع بنسب قوى ، الا أنه تنقصه قوة المال ، وقوة السيادة ، فلم يكن غنيا ولا سيدا ، بينما فى قومه من يساوونه فى النسب ، ويزيدون عنه المال والسيادة ، فكيف يتأتى أن يحظى محمد بهذه المنزلة العليا وفى قومه فى نظرهم من هم خير منه وأولى بهذه المنزلة ، وواضح أنهم فى هذه الموازنة يسقطون أهم ما ينبغى أن يكون هو المحور الجوهرى للموازنة وهو المقومات

---

(١٩) ١٥ سورة يونس .

الشخصية ، فيقولون بأسلوب الاستنكار فيما ينقله القـرآن عنهـــم :

(أأنزل عليه الذكر من بيننا) (٢٠) ٠

يعنون بالذكر القرآن ، وكأنهم يقولون أليس فينا جميعا واحد أولى من محمد بتلقى القرآن عن الله ؟ مشيرين الى مزايا المال والسيادة فحسب ٠

وأحيانا يتابعون تفكيرهم ذاك فى المال والسيادة فيرون أن رجلين فحسب هما اللذان تتيح لهما منزلتهما الاجتماعية أن يحظوا بهذا الشرف الذىيحمله محمد ، وهما الوليد بن المغيرة فى مكة ، وعروة بن مسعود الثقفى فى ثقيف بالطائف، حيث كان كل منهما سيدا مطاعا غير منازع السيادة على قومه، ومن المعروف أن الوليد مات مشركا ، أما عروة فقد أسـلم وحسن اسلامه ، ومات شهيدا ، اذ رماه قومه بالسهام وهـو يدعوهم الى الاســلام ، وعن هــذه الدعوى من المشركين فى القــرآن ٠

(وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيـــم) ٠

٨ ــ والذين تجمعت لديهم هــذه المطاعن فى القــران أصبحت نفوسهم بعيدة عن الايمان به ، وأصبح فى نظرهم شيئا يستحق السخرية والاستهزاء ، لأنهـم أغلقوا عقولهم ومشاعرهم عن تأمله أو تذوق مضمونه ، فهم ينظرون اليه ، ويحكمون عليه من خلال سخطهم ونفورهم وليس من خــلال القرآن نفسه ٠

والقرآن يسوق كثيرا من سخريتهم ، كقوله تعــالى عن نموذج من هؤلاء :

(واذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا) (٢١) ٠

---

(٢٠) ٨ سورة ص ٠
(٢١) ٨ سورة الجاثية ٠

وأحيانا يصوغون سخريتهم فى أسلوب ملتو ، كقوله تعالى عن بعضهم :

(واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا) (٢٢) ؟

فهو لا يتحدث عن تأثيرها فى نفسه ، ولا عن احساسه بموضوعها ، وانما كأنه يسخر من الذين يدعون أن هذه السورة زادتهم ايمانا ٠

ومن طريف تصوير القرآن تصويره السخرية فى محض اشارات ونظرات بالعيون يتبادلها الساخرون مما ينزل من القرآن ، فحين ينزل شىء من القرآن يخبرهم النبى صلى الله عليه وسلم أنه نزل عليه الوحى بهذا ، ويتلو عليهم ما نزل من القرآن طالبا كتابته ، عندئذ يسخر بعض المنافقين من هذا ، ولكنهم يصوغون سخريتهم فى نظرات يصورها القرآن فى قوله تعالى :

(واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا) (٢٣) ٠

فبعد أن يتبادلوا النظرات الساخرة يشير بعضهم الى بعض أيضا بالنظرات هل اكتشف أحد نظراتنا أو ارتاب فى حركاتنا ، ثم ينسلون منصرفين ٠

وأخيرا فليس هذا كل ما سجله القرآن من مهاجمة خصومه اياه ، ومن طعنهم فيه وفى حامله ، ومن السخرية به وبمن يتلقاه ، وغير ذلك ، وانما هى نماذج لأهم ما وجهه أعداء الله الى القرآن من طعن وتشويه وتشكيك وتحقير ٠

---

(٢٢) ١٢٤ سورة التوبة ٠

(٢٣) ١٢٧ سورة التوبة ٠

فهل يستطيع الذين يتفننون اليوم فى حـــرب الاســـلام والقرآن ، ويخترعون من صنوف الحرب النفسية والفكرية ضدهما أن يضيفوا ضد القرآن شيئا آخر ؟ أو أن يجدوا حربا أخطر من هذه الحرب التى سجلها القرآن ضد نفسه ، ناقلا اياها عن خصومه ؟

وهل هناك انصاف للخصم يبلغ هذا الانصاف ؟

مهاجمة معالم الدين

والقرآن يسجل هجوم أعداء الله على كل معلم من معالم الدين ، ولا يوجد لدينا ولا لدى أحد غيرنا مصدر يسجل كل ما قاله أعداء الاسلام ضد الاسلام ، ولا ما فعلوه ضده كما سجل القرآن ، بل لم يسجل هذا أصلا فى مصدر غير القرآن، ففى أثناء الصراع الرهيب بين رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم وأعدائه طوال مدة الرسالة قال أعداؤه ضده وضد الدين كل ما استطاعت عقولهم وألسنتهم أن تنتجه ، وفعلت أيديهم كل ما استطاعت أن تفعله ، ومع ولع العرب بأساليب الكلام من شعر ونثر واعتمادهم عليها بوصفها أهم وسيلة اعلامية لديهم ، الا أنهم لم يسجلوا بشعرهم ولا بنثرهم ما قالوه وما فعلوه ضد الاسلام ، وانما الذى سجله كله هو القرآن ٠

ومع أن هذا فى ظاهر الأمر يبدو اعلاما ضارا بالاسلام والمسلمين خصوصا والقرآن كان يسجل هذا ويذيعه والصراع بين الاسلام وأعدائه من كل لون على أشده ، وكأن القرآن كان حينئذ ينوب عن أعدائه فى اذاعة ما يشيعه أعداؤه ضده ٠

ولكن القرآن لا ينظر الى الأمور من زاوية الضر والنفع، ولا من جهة المصلحة كما ينظر سائر الناس ، وانما ينظر اليها من مدخل المبادىء والعدل ، فالاسلام في خصومة مع أعدائه ، وهو واياهم اذن في قضية يختصمان فيها ، ومادام الأعداء طرفا في القضية فلهم اذن حقوق ، ومن حقوقهم بوصفهم خصما ان القرآن حينما يعرض القضية يعرض موقف كل طرف فيها كاملا بما في ذلك دفاع الطرف ووجهة نظره وحجته ، بصرف النظر عن أن تكون حجته ذات قيمة أو تافهة ، بل كثيرا ما يعرض القرآن عن خصومه مواقف وحججا تبلغ من حماقتها أو تفاهتها أن تثير الضحك، سواء أكانوا من أعداء الدين المعاصرين للقرآن أو السابقين، فكلهم عدو لله ولرسله ودينه ، وذلك كقول قوم لوط عن آل لوط ٠

(أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون) (١) ٠

فهم يريدون اخراجهم ليس لأنهم رجس أو نجاسة في القرية وانما لأنهم الطهارة الوحيدة فيها ، وكقول مشركي العرب فيما ينقله القرآن عنهم :

(واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) (٢) ٠

فبدل أن يقولوا ان كان هذا هو الحق فاهدنا اليه ، أو اغفر لنا اساءتنا اليه اذا هم يطلبون حجارة تمطرهم في الدنيا بدل الماء ، وعذابا أليما في الآخرة بدل الجنة ، وكقول قوم شعيب لشعيب عليه السلام ردا على دعوته اياهم الى الله :

---

(١) ٥٦ سورة النمل ٠

(٢) ٣٢ سورة الأنفال ٠

(قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) (٣) .

فهو يدعوهم الى الايمان بالله ، ويدعم كل قوله بالحجة ، ولكنهم بدل أن يقتنعوا بحجته ، أو بدل أن يردوا عليها بحجة مضادة اذا هم يجعلون سوء فهمهم حجة لهم ، ثم يتبعون ذلك بما أتبعوه من ميل الى البغى والعدوان مع أن الموقف ليس موقف عراك أو قتال ، وانما هو موقف لسان ، وكما ينقل القرآن عن المشركين قولهم :

(انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) ؟ (٤) .

فان الله لا يهلكهم بما فعل المبطلون ، ولا بمحض أتباعهم المبطلين وانما يمهلهم بعد رفضهم رسالة الله وهديه ، كما يقول تعالى :

(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) (٥) .

وكما أن القرآن يسوق ويسجل من كلام خصومه وحججهم ما يدل على الحماقة وتفاهة العقل فكذلك يسجل لهم ما يدل على نوع من الذكاء وقوة الحجة مهما يكن فى ذلك من مخادعة منهم وتحايل على الحق ، لأن الهدف كما سبق هو انصاف الخصم بذكر حجته ووجهة نظره كاملة بصرف النظر عن قيمتها ووزنها .

ومن الحجج التى يسجلها القرآن لأعدائه على أنها ذات قيمة عقلية ، بصرف النظر عن صغر هذه القيمة أو كبرها حجة ابليس فى رفضه السجود لآدم وهى أنه أفضل من آدم

---

(٣) ٩١ سورة هود .
(٤) ١٧٣ سورة الأعراف .
(٥) ١٥ سورة الاسراء .

لأنه مخلوق من نار ، وآدم من طين ، والنار فى رأيه أفضل من الطين ، فكيف يسجد الأفضل فى زعمه لمن هو دونه ؟ ورغم ان الادعاء بأن النار أفضل من الطين غير مسلم به ، لأن الطين بذاته مصدر حياة للنبات والشجر ، ومصدر الحياة لكل الأحياء بما يحمل من الماء ، بينما النار مصدر ابادة واهلاك ، والحياة ومصدرها أفضل من الهلاك ومصدره نقول مع ذلك فان النار لها فوائد عديدة واضحة فى حياة الناس ، فمن أجل ذلك كان الاحتجاج بتفضيلها على الطين له جانب من الوجاهة العقلية ولو فى ظاهر الأمر ، ولذلك لم يرفض القرآن هذه الحجة مفضلا الطين على النار ، بل لم يناقشها أصلا ، لأن جريمة ابليس ليس فى المفاضلة بينه وبين آدم ، وانما فى عصيانه أمرا صريحا من الله ، فقد كان يجب عليه طاعة أمر الله بالسجود ولو لأقل الأشياء شأنا اذا أمره بذلك ، ولكنه يتخذ من حجته ستارا لعصيانه فيقول :

(أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) (٦) .

وكذلك من الحجج التى ينقلها القرآن عن خصومه والتى رغم ما فيها من محاولة الخداع والتضليل الا أنها تدل على نوع من الذكاء والبراعة فى الجدل والخصومة حجة قريش فى هذه القصة التى تتضمن أن النبى صلى الله عليه وسلم حين تلا على قومه من القرآن قوله تعالى :

(انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم)(٧)

سأله عبد الله بن الزبعرى القرشى نائبا عن الملأ من قريش قائلا يا محمد أهذا خاص لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم فقال عليه السلام هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم ، فقال ابن الزبعرى قد غلبتك فى الخصومة ورب الكعبة ، ألست تزعم أن عيسى بن مريم نبى وتثنى عليه خيرا وعلى أمه وقد علمت

---

(٦) ١٢ الأعراف .

(٧) ٩٨ سورة الأنبياء .

ان النصارى يعبدونهما ، وعزيزا يعبده اليهود ، والملائكة يعبدون ، فان كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون معهم، ومن مفهوم حجتهم أيضا كأنهم يقــولون للرســول ولكنــك لا تقول ان هؤلاء فى النــار ، بل تثنى عليهــم خيرا مع أنهم يعبدون من دون الله ، فلماذا لا تكون منصفا وتثنى ايضــا على آلهتنا التى نعبدها من دون الله كما تثنى على الآخرين ؟ ورغم أنهم يعلمون أن السياق والملابسات كلها تدل على أن هؤلاء ليسوا من المقصودين بحصب جهنم الا أنهم يتمسكون بظاهر عموم الألفاظ ليتخذوا منهــا حجة مضـــللة خادعة ، والقرآن يردعليهم فى ذلك ، ولــكن رده يتضمن انصـــافهم بالشهادة لهم بالقوة فى المخاصمة والجدل ، حيث يقول تعالى :

(ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون ، وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون) (٨) .

مهاجمة الغيبيات :

والقرآن يسجل ألوانا شتى لا تكاد تحصى من أســاليب الهجوم والانكار والتسفيه من أعداء الله ضد كل ما هو غيبى غير مشاهد للعيان مما أخبر به الدين على أساس ألا يؤمنوا الا بما هو ماثل أمامهم وفى مقدمة الغيبيات ذات الله سبحانه وتعالى ، فقــد أنكر الــكافرون فى كل العصــور ذات الله سبحانه ، لا لشىء معين الا لأنهم لا يرونه مجسدا أمام أعينهم، ولذلك أصر فرعون عــلى ألا يعترف بوجــود الله الا اذا رآه بعينيه ، وطلب أن يبنى له صرح شــاهق يبلغ عنان الســماء ليتبين مدى صدق موسى فى ادعائه وجود الله .

(وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعــل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لأظنه من الكاذبين) (٩).

---

(٨) ٥٧ وما بعدها سورة الزخرف .
(٩) ٣٨ سورة القصص .

وأصر اليهود عـلى ألا يؤمنـوا بالله الا اذا رأوه جهرة بأعينهم ، فاذا لم يروه فلا وجـود له فى رأيهم ، والقـرآن ينقل عنهم :

(واذ قلتـم يا موسى لن نؤمن لك حتى نـرى الله جهرة) (١٠) ٠

واذا كان الكفر فى نتيجته ومؤداه واحدا فان أساليبه تتفاوت ، ومن وجوه تفاوتها سفاهة العقل ، وهذا اللون من الكفر يمثل قمة السفاهة فى التفكير ، فان كفر فرعون أقل سـفاهة وغبـاء من هؤلاء الـكافرين من اليهـود ، حيث ان ما يطلبه فرعون هو أن يتحقق من وجود الله بعينيـه ، لأنه لا يؤمن بوجوده ، بل يشك ويظن ظنـا ، والظن والشـك كلاهما يحتمل الأمرين ، الاثبات والنفى ، ففى حالة الاثبات وهى احتمـال وجـود الله فان فرعون لا يطلب من موسى أن يأتيه بالله كما فعل اليهود ، وذلك كما هو واضح فى تصور موقف فرعون لسببين :

١ ـ أحدهما أن الله فى حالة وجـوده بالصـفات التى ذكرها له موسى سيكون أجل وأعظم من أن يأتى الى أحد ، بل الآخرون هم الذين يسعون اليه ، وقد حاول فرعون على عظيم سلطانه أن يسعى اليه من خـلال الصرح الذى يريد بناءه ، ولعل وضع فرعون من السلطة ، ومعرفته بأصـول التعامل معها هى التى هدته الى هـذا القدر من تقـدير الله واحترام منزلته فى حالة افتراض وجوده ٠

٢ ـ والسبب الثانى أن موسى لم يقل انه قيم عـلى الله سبحانه ولا هو متحكم فى حركته ، بل قال انه عبد من عباد الله ، كل ميزته عن غـيره من عبيـد الله أنه رسـول منه الى هؤلاء ٠

---

(١٠) ٥٥ سورة البقرة ٠

ففرعون كان أذكى من اليهود عقلا على كفره ، وأحسن منهم أسلوبا وتقديرا لذات الله فى افتراض وجوده عنده ، أما اليهود فقد بلغ بهم سفه التفكير أنهم فى افتراض وجود الله يتصورون أن موسى متصرف ومتحكم فى ذات الله سبحانه بحيث يملك أن يأتى به كيف يشاء ومتى يشـاء ، والقرآن ينقل عنهم هذا :

(فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالـوا أرنا الله جهرة) (١١) ·

وفى هـذا المستوى من سـفاهة التفـكير كان مشركو العرب ، حيث تصوروا فى افتراض وجود الله سـبحانه أن محمدا صلى الله عليه وسلم يملك أن يأتى به أمامهم ليروه ، ومن ذلك فى القرآن أشياء كثيرة طلبوا من النبى أن يأتيهم بها ليصدقوه ، ومنها :

(·· أو تاتى بالله والملائكة قبيلا) (١٢) ·

ومن الغيبيات الملائكة ، وقد سجل القرآن أيضا انكار أعدائه وجودهم ، واصرارهم أيضا على ألا يؤمنوا بوجودهم الا اذا رأوهم ، ومن ذلك ما سبق من قول المشركين لمحمـد صلى الله عليه وسلم فيما قالوه وطلبوه :

(أو تأتى بالله والملائكة قبيلا)

ومن قبلهم طلب فرعون هذا من موسى فيما ينقله عنـه القرآن :

(فلولا ألقى عليه أسـورة من ذهب أو جاء معـه الملائكة مقترنين) (١٣) ·

هذا بالاضافة الى ما سبق حديثه من اساءتهم الى الملائكة

(١١) ١٥٣ سورة النساء ·
(١٢) ٩٢ سورة الاسراء ·
(١٣) ٥٣ سورة الزخرف ·

والى الله سبحانه فيما يتعلق بالملائكة كادعائهم أن الملائكة بنات الله ٠

ومن الغيبيات الوحى ، فقد سجل القرآن انكار كل الكافرين فى كل العصور وحى الله الى أنبيائه ورسله ، ومنه انكار مشركى العرب ما أخبرهم به النبى من الوحى اليه ، ومن القرآن الذى ينزل به الوحى ، وطلبوا أن تكون صورة الوحى الذى يمكن أن يؤمنوا به وبما ينزله هو أن يصعد النبى الى السماء أمام أعينهم ، وأن يأتيهم بالكلام الذى يوحى به اليه مكتوبا فى كتاب ينزل به من السماء أمامهم مكتوبا ، وقد كان هذا ضمن المطالب الكثيرة التى طلبوها من النبى ، ومنها مطلبهم هذا :

(٠٠٠ أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه)(١٤) ٠

وهكذا فى كل المغيبات التى أخبر بها رسل الله كان موقف الكافرين فى كل العصور من الانكار والسخرية والتسفيه للرسل ، وهذا ليس غريبا ، بل هو المتوقع من كل كافر بالله ، فما دام غير مؤمن بالله فلا ينتظر أن يؤمن بشىء يأتى من جهة من لا يؤمن به أصلا وهو الله سبحانه ، ولكن هذا ليس ما يعنى هذا الحديث ، وانما يعنيه أن القرآن بلغ من انصافه خصومه أن سجل كل دفاعهم ، وكل آرائهم وضد القرآن نفسه ، وضد كل ما أتى به الدين ومنه المغيبات مهما يكن من سوء هذه الآراء ، ومن اليقين ببطلان هذا الدفاع منهم ، لأن القرآن يعرض قضيته مع أعدائه ، فكان من الانصاف ذكر موقف الأعداء كاملا بصرف النظر عن الحكم على هذا الموقف ٠

انكار البعث :

وقد كان التصديق بالبعث أشد عقبة واجهت الأنبياء مع أقوامهم ، فقد كان حديث البعث بالغ الغرابة والنكر فى

(١٤) ٩٣ سورة الاسراء ٠

عقول كثير من شعوب الكفر وخصوصا العرب ، وذلك لأنهم لم تبلغهم رسالات سماوية قبل محمد صلى الله عليه وسلم كما يؤكد القرآن ذلك فى أكثر من موضع ، كقوله تعالى عنهم :

(وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير) (١٥) ٠

وكذلك قوله تعالى مخاطبا رسوله محمدا :

(لتنــذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهــم يتذكرون) (١٦) ٠

وكذلك :

(لتنــذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهــم يهتدون) (١٧) ٠

ولذلك نرى مشركى العرب يستبعدون فكرة الحياة بعد الموت استبعادا كاملا ، ولا يسمحون لعقولهم أن تضعها حتى موضع الشك ، والقرآن ينقل موقفهم هذا بكل الأساليب التى صاغوه بها ، ومن ذلك أنهم يقســمون بكل ما يعــرفون من أيمان أنه لن تكون هناك حياة بعد الموت ، ففى القرآن :

(وأقســموا بالله جهــد أيمانهــم لا يبعث الله من يموت) (١٨) ٠

وهم يؤكدون أنه لا توجد حيــاة الا هــذه الحيــاة فى الدنيا ، أما حياة الآخرة فلا وجود لها فى اعتقادهم ، وفى القرآن :

(وقالوا ما هى الا حياتنــا الدنيــا نموت ونحيــا وما يهلكنا الا الدهر) (١٩) ٠

---

(١٥) ٤٤ سورة سبأ ٠
(١٦) ٤٦ سورة القصص ٠
(١٧) سورة السجدة ٠
(١٨) ٣٨ سورة النحل ٠
(١٩) ٢٤ سورة الجاثية ٠

بمعنى أنه لا يوجد اله يميت ثم يبعث حياة بعد الموت ، وانما هى سنة الحياة ، أن يموت الأحياء ، ويحيا من يحيا بالولادة ، ثم يموت كغيره ، وهكذا ولادة وحياة ثم موت فى الدنيا ولا شىء بعد ذلك ، ولذلك فانهم يسخرون ممن يصدق بالبعث بعد الموت أو يقول به سخرية شديدة يصوغونها فى أساليب عدة ، منها ما ينقله القرآن عنهم مستنكرين ان يبعثوا بعد أن يصبحوا ترابا وعظاما بعد الموت ، وهم أشد استنكارا لبعث الأجيال السابقة لأن أجسادهم أصبحت أشد فناء :

(أاذا متنا وكنا ترابا وعظاما أانا لمبعوثون ، أو أباؤنا الأولون) ؟ (٢٠) ٠

ورغم أن العرب لم يبعث فيهم نبى قبل محمد صلى الله عليه وسلم يخبرهم بالغيبيات ومنها البعث ، الا أنهم لم يكونوا بمعزل عن أصحاب الديانات السماوية الأخرى ، فقد كان يجاورهم ويخالطهم اليهود والنصارى فى عصورهم الموغلة فى الجاهلية ، فلا شك أنهم سمعوا بالبعث ولكنهم كذبوه ، بل كأنهم بمقدرتهم التى شهد لهم بها القرآن فى الخصومة والجدل يحاولون أن يتخذوا من علم أجيالهم السابقة بالبعث دليلا على انكاره ، فكأنهم يقولون ان أجيالنا السابقة قيل لهم انكم ستبعثون ، ومع ذلك لم يبعث أحد منهم حتى اليوم ، والقرآن يشير الى نحو هذا المعنى فى قوله تعالى:

(وقال الذين كفروا أاذا كنا ترابا وآباؤنا أانا لمخرجون ، لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا أساطير الأولين) (٢١) ٠

بمعنى أن الأخبار عن البعث ليست من السماء ، وانما هى من الروايات التى سطرت فى الأمم السابقة ، وتبلغ

(٢٠) ١٧ سورة الصافات ٠
(٢١) ٦٧ وما بعدها سورة النمل ٠

سخريتهم من حديث البعث أن يتحدثوا عمن يقــول به وهو النبى صلى الله عليه وسلم وكأنه مجنون يهذى بكلام لا يصلح الا للتندر والتفكه ، وكأن بعضهم يقول لبعض هل تريدون أن تفكهوا أنفسكم بسماع شىء مضــحك ؟ اذهبــوا اذن الى محمد فسيحدثكم بأطرف ما تســمعه اذن ، وهــو أنكم حين تموتون ، وتتناثر أجسادكم فتصبح ذرات متفرقة تعودون بعد ذلك أحياء مرة أخرى ، والقــرآن ينقــل عنهم قولهــم فى هذا :

(هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد ، أفترى على الله كذبا أم به جنة) ؟ (٢٢) ٠

بمعنى أن من يقول بالبعث بعد الموت لا يخرج عن احدى حالتين ، أما انه يكذب على الله وينسب اليه قولا لا أساس له ، واما أنه مجنون يهذى بقول يجافى العقول ٠

ورغم أن القرآن يرد على قولهم ويتوعدهم عليه ، الا أن تسجيله فى القرآن الذى سيذاع فى كل وجه من وجوه الزمان والمكان ، وخصوصا حينما يصــاغ بهــذا التصوير البيانى البالغ التأثير فى النفوس والمشاعر ولو من زاويته البيانية وحدها ، أقول حينما يسجل القرآن كلامهم ضد البعث بهذا التصوير البيانى فان هــذا مما يوحى بأنه ليس من كــلام البشر ، لأن البشر حتى وان صدق بعضهم وأنصف خصمــه بعرض ما وجهه هذا الخصم ضده فانه لن يصوغ الهجــوم الموجه ضده اعلاميا بهذه الصياغة البالغة التأثير فى آذان السامعين ، ولكنه كلام الله ، وهو العدل المطلق ، الذى ينصف الخصم بعرض وجهة نظره كاملة بصرف النظر عن تأثيرها ٠

ومن أساليب سخريتهم بالبعث تصويرهم أنهم بعد موتهم ستذوب أجسادهم وتتحول الى تراب ، فلا يعود لهم وجود ،

---

(٢٢) ٧ سورة سبأ ٠

كالانسان الذى يضل فى الصحراء ، فلا يعرف له مكان أبدا ، فيصبح كأنه غير موجود ، أو كأنه لم يوجد أصلا ، وفى القرآن عن ذلك :

(وقالوا أاذا ضللنا فى الأرض أانا لفى خلق جديد ..) ؟ (٢٣) .

والقرآن يصور موقف فريق من المشركين الذين استخدموا عقولهم مرحلة من المراحل ، ففكروا فى ان الناس فى تفاوت أعمالهم ، وفى نزوع بعضهم الى الخير ، وبعضهم الى الشر ، لا يعقل حقا أن يتساووا بعد الموت ، فمن المعقول أن يكون هناك حساب يمتاز به أولئك عن هؤلاء ، ولكنهم ما ان وصلوا الى هذه المرحلة من التفكير حتى انتكسوا الى بدء آمرهم فادعوا أن ما دار فى عقولهم من تصور البعث ليس حقيقة ، وانما هو من وهم وخيالات السحر الذى يلقيه محمد فى نفوسهم بكلامه الذى يزعم أنه يوحى به اليه من السماء ، وفى القرآن من ذلك :

(ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) (٢٤) .

وانكار البعث قديم فى كل الأمم السابقة باستثناء النادر منها ، والقرآن يوضح أن موقف مشركى العرب من البعث ليس جديدا ، بل هو امتداد لموقف الأمم السابقة ، كقوله تعالى :

(بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أاذا متنا وكنا ترابا وعظاما أانا لمبعوثون) ؟ (٢٥) .

وينقل القرآن عن عاد قوم هود ما قاله بعضهم لبعض عن البعث ، وعن هود حين حدثهم عنه :

---

(٢٣) ١٠ سورة السجدة .
(٢٤) ٧ سورة هود .
(٢٥) ٨١ وما بعدها سورة المؤمنون .

(أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توعدون ، ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) (٢٦)

ومن آثار صدق القرآن وكونه وحيا من الله أنه عرض كفر فرعون وطغيانه وتكذيبه لموسى عليه السلام فلا نجد فى تكذيب فرعون أنه كذب بالبعث ، ويبدو أن موسى لم يركز فى دعوته على حديث البعث أصلا ، لأن الفراعنة كانوا يؤمنون بالبعث فى كل عصورهم السحيقة ، كما تنطق بذلك آثارهم الكثيرة التى مازالت ماثلة بذاتها وبما هو منقوش عليها من الكتابة والرسوم فى تصوير البعث والحساب والجزاء بعد الموت » .

انكار القرآن والكتب السماوية :

ويسجل القرآن تكذيبهم به هو أى بالقرآن ، وقد تكرر تسجيل هذا فى القرآن كثيرا بأساليب مختلفة ، حيث أنكروا باصرار شديد أن يكون القرآن كلام الله ، متهمين محمدا صلى الله عليه وسلم أحيانا بالكذب على الله فى ادعائه نسبة القرآن اليه ، وأحيانا بالجنون لأنه يسوق فى القرآن ما لا تقره العقول كالبعث بعد الموت ، وحين وجدوا ان بعض الناس ممن لا يتهمونهم بالغباء أو السذاجة قد صدقوا القرآن وآمنوا بنسبته الى الله ، ولم يعد اتهامهم النبى بالكذب أو الجنون يلقى ما كان يلقاه من قبول أخذوا يفكرون فى اتهام ينال شيئا من قبول لدى الناس فاهتدى مفكرهم كما سبق حديثه الى اتهام القرآن بأنه نوع من السحر ، من حيث ان القرآن والسحر كليهما يؤثر فيمن يوجه اليه ، ويغير من طبيعته ، وقالوا انه شعر من حيث ان

---

(٢٦) ٣٥ وما بعدها سورة المؤمنون .

الجودة البلاغية مراعاة فيهما ، وقالوا انه من سجع الكهان حيث وجدوا فى القرآن نوعا من السجع البيانى فأرادوا أن يخلطوا بينه وبين سجع يصـــدر من الكهــان بطريقة رمزية معينـــة .

وقد سبق شيء من هذا الحديث مما يغنى عن تكراره ، ولكن الالمــام به هنا ليس الا من زاوية اثبات انصاف القرآن خصومه ، بايراد كل ما يصدر عنهم ضـــد الدين ، ولو كان موجها الى القرآن نفسه ، وقد تغنى عن كثير من التفاصيل وعن كثير من الأمثلة هذه الآيات التى تجمع معظم ما وجهه المشركون والكافرون عموما ضد القرآن ، ففى هذه الآيات من سورة الطور نجد رد القرآن على اتهامهم اياه بأنه سجع كهان ، أو أنه نوع من الجنون ، أو أنه نوع من الشعر ، او أنه كذب تقوله محمد على الله ، وذلك فى قوله تعالى :

(فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنــون ، قـــل تربصوا فـــانى معـــكم من المتربصين ، أم تأمرهم أحلامهم بهـذا أم هم قـــوم طاغون ، أم يقولون تقـــوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحـــديث مثله ان كانوا صادقين) (٢٧) .

ولكنهم مهما عددوا احتمالات انتساب القرآن أو الحكم على نوعيته فان لديهم حكما ثابتا وهو نفى نسبته الى الله ، وتأكيد أنه كلام بشر ، سواء أكان من تلقاء نفس محمد صلى الله عليه وسلم أو من نقله أو اقتباسه اياه من أساطير الأولين وهى أخبـــارهم التى ســـطروها فى صحفهم ، ويعبر زعيم قريش عن ذلك بقوله بلسانهم جميعا :

(ان هذا الا قول البشر) (٢٨) .

---

(٢٧) ٢٩ وما بعدها سورة الطور .
(٢٨) ٢٥ سورة المدثر .

ولكن المشركين من العرب حين يجـدون القرآن يتحدث عن كتب سماوية سابقة لا يكتفون بالتكذيب بالقرآن ، وانما ينفون وجود أو حدوث أى وحى من الله الى أحد من البشر ، سواء أكان هو القرآن أم غيره ، والقرآن يسجل هذا فى قوله تعالى ناقلا عنهم :

(قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء) (٢٩) ٠

ومن الواضح أن موقف العرب من تكذيب نسبة القرآن الى الله انما هو امتداد لموقف كل الكافرين فى الأمم السابقة ، والقرآن يسـجل هـذا كثيرا سـواء فى التكذيب بالـكتب السماوية او الوحى مباشرة أو فى تكذيب الرسل انفسـهم فى ادعائهم أنهم رسل الله ، لأن تكذيبهم يتضمن تكذيب كل ما أخبروا به من وحى ، ومن ذلك ما سجله القرآن من تكذيب الكافرين برسل المسيح عليه السـلام الذين ارسلهم ليبلغوا عنه ما أوحى به اليه حيث واجههم اصـحاب القـرية التى توجهوا اليها بقولهم :

(ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء ان أنتم الا تكذبون) (٣٠) ٠

فهـم يكذبون بكل وحى من الله ، ومن الوحى الـكتب السماوية ٠

النفور من المؤمنين :

ويسجل القرآن نفور الكافرين فى كل الأمم والعصور من المؤمنين ، وهـذا النفور أساسه الـكراهية النـابعة من اختلاف الوجهتين وتناقضهما ٠

ولكن الكراهية لا تتشكل فى ثوب واحد ، وانما تتزيى بأشكال مختلفة ، ويعنينا من هذه الأشكال نوعان متضادان

---

(٢٩) ٩١ سورة الأنعام ٠

(٣٠) ١٥ سورة يس ٠

يخص الكافرون المؤمنين بأسوأ النوعين ليحقروهم به وينفروا الناس منهم بسببه ، وأحد النوعين هو أن الكراهية لاتتعارض مع التقدير والتعظيم النفسى ، بمعنى أننا يمكن أن نكره شخصا ولكن هذه الكراهية لا تعنى احتقارنا له أو تقليلنا من قدره ، بل قد نحمل له تقديرا أو نشهد له بفضائل ومزايا ولكننا نكرهه لعوامل أخرى قد تكون تعارض مصالح، وقد تنبع من ان هذا الشخص عقبة فى سبيل وصولنا الى أمل نتمناه او نحو ذلك كالكراهية التى تنبع من الحسد ، والنوع الآخر من الكراهية عكس هذا ، وهو ان تكون مصحوبة بازدراء الشخص المكروه واحتقاره والنفور منه تعاليا عليه واستصغارا لشأنه ، حيث لا يرى الكاره فيه ميزة أو فضيلة تستحق التقدير ٠

ومن الغريب أن الكافرين ينظرون الى المؤمنين من خلال هذا النوع الثانى الذى يفيض احتقارا وازدراء ، والكافرون لا يخفون هذا الشعور نحو المؤمنين ، ولا يخفون التعبير عنه بألسنتهم أو بأيديهم ، وانما يظهرونه بكل ما تتيحه لهم الظروف ٠

والكافرون فى احتقارهم المؤمنين يناقضون الحقيقة ، ويسلكون عكس ما ينبغى ، فالحقيقة أن المؤمنين كانوا انضج عقولا ، وكانوا أيضا أصفى وأنقى نفوسا من الكافرين ، حيث استخدم المؤمنون عقولهم فاهتدوا الى نور الايمان فولجوا فيه ، ثم لم تكن فى نفوسهم عوامل اجتماعية كالتعالى عن الانقياد لداع يدعوهم الى الله ، أو الحسد لهذا الداعى أو الخوف على منافع يفقدونها لو أعلنوا انحيازهم اليه ، أو الاستنكاف من مصاحبة فقراء من حول هذا الداعى أو نحو ذلك ، أما الكافرون فاما أن عقولهم كانت أضيق وأوهى من أن تدرك الفارق بين الايمان والكفر ، واما أنها أدركت ولكن العوامل النفسية أو الاجتماعية كانت أقوى فى نفوسهم من ادراكهم ومن ارادتهم ، فالمؤمنون اذن خير

من الكافرين عقولا ونفوسا ، فكان ينبغى للعقلاء ولو كانوا من الكافرين أن ينصفوهم وينظروا اليهم على أنهم فى المكان الأعلى والأفضل ٠

ولـكن النـاس فى مجمـوعهم جبلوا فى كل البيئـات والعصور عـلى أن يقيسوا كل شىء بالمقيـاس المـادى دون المعنوى ، فالغنى والسيادة والجاه عندهم هى محط الأنظار والتقدير والاكبار ، فمن لم يكن له منها نصيب فليس له فى نفوسهم من تقدير مهما يحمل من فضـائل خلقيـة أو مزايا عقلية أو أية ميزة معنوية ، بينما ذو الغنى أو السـيادة أو الجاه يحظى بتقديرهم واكبارهم مهما يحمل من رذائل أو نقائص ، ولم تتخلف هذه النظرة فى مجموعها فى بنى آدم منذعرفوا المجتمعات حتى اليوم ، وما أكثر ما تنـدر بهـا الفلاسفة والحكماء والشعراء فى كل العصـور ، والقرآن الكريم نفسه يتضمن كثيرا من نحو هذه المعانى مؤكدا أنها متغلغلة فى بنى آدم ، بل ان الله سبحانه يتخـذ من رسـوله صلى الله عليه وسلم فى هذا المجال مثلا لتحذير النـاس من هذه النظرة المادية الى الأمور والى النـاس مهما يكن الدافع اليها ، فقد حدث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مشغولا بدعوة بعض سادة قريش الى الايمان ، فاذا أحد المؤمنين وهو عبد الله بن أم مكتوم وكان أعمى جاء الى النبى وأخذ يستحوذ على اهتمام النبى غير مراع شغل النبى بدعوة هؤلاء السادة الذين لو اعتنقـوا الاسـلام لاندفع اليـه وراءهم كثير من الأتباع ، ولكن الله لم يرض لرسوله هذه النظرة المادية رغم أن الدافع اليها كان استهدافا لخير كبير ، ونزل فى القرآن عتاب للنبى على هذا الموقف ، وعلى استيائه من المؤمن الفقير الأعمى وعبوسه له من أجل ذوى الغنى والسيادة والجاه بل جعل عبوس النبى لهذا الأعمى عنوانا للسـورة التى نزل فيها العتاب ، وهى سورة (عبس) حتى يكون المعنى الذى يحذر منه الله واضحا وبارزا ، وذلك فى قوله تعالى :

(عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله

يذكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى، فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ، كلا انها تذكرة) (٣١) •

ولكن موقف النبى صلى الله عليه وسلم من واد غير وادى النظرة الشائعة فى بنى آدم ، والتى نتحدث عنها ، فان موقف النبى كان موقفا عارضا ، وفى مناسبة معينة ، ولا يمثل من قريب أو بعيد خلق النبى ، وانما يمثل مدى حرصه على انتهاز أدنى فرصة ليدعو فيها الى الله ، أما خلقه الثابت الذى لا يحتاج الى تدليل عليه لظهوره ، فهو أنه كان يقيس الناس دائما بجوهرهم وليس بمادياتهم ، وقد عاش حياته كلها فقيرا معرضا عن الغنى مع تيسره له ، وملازما للفقراء دون الآغنياء ، مع أن الأغنياء سلكوا كل سبيل ليستميلوه اليهم ويبعدوه عن محيط الفقراء فلم يستطيعوا ، وهذا مجال لو انساق فيه الحديث فلا نهاية له ، وهو أوضح وأوسع من أن ينوه به أو يشار اليه •

ولكننا لا ينبغى أن نغفل معنى مهما مما يدل عليه عتاب الله رسوله على هذا الموقف ، وهو أن هذا العتاب هو من باب الانصاف والعدل الذى يمثله القرآن ، فكما أن الله ينكر على كل من يحيد عن طريق الحق من عباده ، فانه لا يستثنى من هذا الانكار حتى خير خلقه وهو رسوله ، بل يحاسبه بأشد مما يحاسب به سائر عباده ، فان الله لا يعاقب ولا ينكر الا على ترك الواجب ، أمرا أو نهيا ، ولكنه بالقياس الى رسوله ينكر عليه حتى مخالفة الأولى ، فاذا فعل شيئا ولو كان مباحا وهناك ما هو أولى منه ، فانه ينكر عليه ترك الأولى ، وقد يأتى فيما نستقبل من هذا الحديث الملم أوسع بهذا المعنى •

---

(٣١) أول سورة عبس •

ولكننا نخرج من هذا كله بأن الكافرين فى كل العصور حتى اليوم ينظرون الى المؤمنين نظرة لا تحمل ما ينبغى أن تحمل من تقدير أو تفضيل ، وانما تحمل العكس ، وهو الاحتقار والازدراء ، وذلك لسبب واحد ، هو أن الغالبية العظمى من أتباع الأنبياء انما يكونون عادة من الفقراء الذين تجردت نفوسهم من العوامل الاجتماعية والنفسية التى تحول بينهم وبين الايمان والانقياد للأنبياء ٠

والقرآن يبرز الحقيقة المنطقية الغائبة عن أذهان الكثيرين ، وهى أن المستهزئين بالمؤمنين قلبوا الوضع ، فالمؤمنون الذين استخدموا عقولهم فى ادراك علة الوجود ، من حيث انه لا يعقل أن يكون هذا الكون كله قد وجد عبثا بدون هدف أو حكمة ، بصرف النظر عن أن تكون هذه الحكمة كلها أو بعضها واضحة للمخلوقين أم غير واضحة ، فان العبد أو المرءوس حين يكلفه سيده أو رئيسه مثلا تبليغ رسالة مكتوبة فان السيد أو الرئيس ليس مطالبا بأن يوضح حينئذ مضمون الرسالة أو هدفها ، وفى القرآن عن هذا المعنى :

(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون) ؟ (٣٢) ٠

وكذلك المؤمنون استخدموا عقولهم فى ادراك ضرورة أن يكون لهذا الكون ادارة ، وحيث كان الوجود منظما غير مضطرب ولا متناقض فلابد أن تكون ادارته من مصدر واحد غير متعدد ، هو ذات الله سبحانه ، فالمؤمنون اذن استخدموا عقولهم فوصلوا الى نتيجة منطقية ، أو عرض عليهم هذا المنطق ففهموه واقتنعوا به ، بينما الكافرون لا استخدموا عقولهم ، ولا حاولوا أن يفهموا ما تقضى به العقول ، فكان المؤمنون أولى بالتقدير والاحترام ، وكان الكافرون أولى بالاستخفاف والازدراء ، ولكن الكافرين قلبوا الوضع فى استخفافهم بالمؤمنين واستهزائهم بهم ، فالقرآن يبرر هذه

---

(٣٢) ١١٥ سورة المؤمنون ٠

الحقيقة فى أكثر من أسلوب ، كقوله تعالى فى سياق الحديث عن نوع من الكافرين ، هم المنافقون :

(واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) (٣٣) ٠

وتعبير (هم السفهاء فى مدلوله البلاغى يعنى أنهم هم وحدهم السفهاء دون المؤمنين ٠

ويوضح القرآن هذه الحقيقة المقلوبة بأسلوب آخر ، فيرسم صورتين ، احداهما فى الدنيا والثانية فى الآخرة ، فأما صورة الدنيا فهى التى تمثل الوضع المقلوب حيث نرى المجرمين بكفرهم من خلالها يسخرون من المؤمنين ، ضاحكين منهم ، مستخفين بهم ، متغامزين منهم ، متفكهين بالسخرية منهم فى مجالسهم وفى سهراتهم ، مدعين أن المؤمنين فى ضلال ، وأما الصورة الثانية فهى التى تعدل الحقيقة ، حيث نرى المؤمنين فى الآخرة يتمتعون بما يستحقون من تكريم ، ساخرين من الكافرين الذين ألغوا عقولهم فى الدنيا ، والصورتان فى قوله تعالى :

(ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون، واذا مروا بهم يتغامزون ، واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين ، واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون ، وما أرسلوا عليهم حافظين ، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك **ينظرون) (٣٤) ٠**

وبأسلوب آخر يعبر القرآن عن هذا المعنى فى صورة حوار مع الكافرين فى جهنم يوم القيامة ، حيث يتضح لهم من الواقع ، ثم يزيدهم الحوار توضيحا أنهم كانوا فى الدنيا

---

(٣٣) ١٣ سورة البقرة ٠

(٣٤) ٢٩ وما بعدها سورة المطففين ٠

يقلبون الحقيقة ، وأنها اليوم استقامت كما ينبغى ، فأخذ كل فريق المكان الملائم له والذى يستحقه ، وذلك فى قوله تعالى فى سياق هذا الحوار :

(قال اخسأوا فيها ولا تكلمون ، انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ، فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون ، انى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) (٣٥) ٠

واستخفاف الكافرين بالمؤمنين يتمثل فى صور شتى بالاضافة الى ما سبق ، ففى كل الأمم السابقة ممن عاصروا رسل الله نجد هذا الاستخفاف بالمؤمنين ، فقوم نوح يرون المؤمنين حثالة الناس ونفاياتهم ، والقرآن ينقل عنهم :

(فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا اللذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) (٣٦) ٠

والعرب يقيسون الوضع الدينى بالوضع الاجتماعى ، فحيث كان الكافرون هم السابقون فى المجتمع الى المال والجاه والمنزلة ، والمؤمنون هم المتأخرون فى كل ذلك ، فكذلك الوضع عندهم فى الدين ، فلو كان الدين ميزة أو فضلا لكانوا هم أسبق اليه فى رأيهم من هؤلاء الفقراء المتخلفين فى المجتمع ، ويجعلون من هذا المنطق حجة لرفض الايمان ، والقرآن ينقل عنهم :

(وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه) (٣٧) ٠

---

(٣٥) ١٠٨ وما بعدها سورة المؤمنون ٠

(٣٦) ٢٧ سورة هود ٠

(٣٧) ١١ سورة الأحقاف ٠

أى لو كان الايمان خيرا ما سبقنا اليه هؤلاء الضعفاء الساقطون فى المجتمع ، فنحن السباقون دائما الى كل خير وليسوا هم ، واللام فى (للذين) بمعنى عن الذين ، أو فى شأن الذين ، ومفهوم هذا المنطق أن الكافرين يرون أن المؤمنين يدينون بباطل وشر ، وأن الكافرين هم الذين على الحق والخير ٠

وذلك المنطق المطلوب غريب حين يقره ويؤيده مجتمع كامل كالمجتمع العربي ، ولكنه أشد غرابة حين يصدر من مجتمع ذى دين سماوى يفترض فيه أنه أقرب الى الدين من مجتمع مشرك لم يدن من قبل بدين سماوى كاليهود الذين يتحدثون عن الكافرين بأنهم أهدي سبيلا واقوم عقيدة من المؤمنين ، ففي القرآن عنهم :

(ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) (٣٨) ٠

أى يقولون عن الذين كفروا أنهم أهدى عقيدة وتدينا من المؤمنين ٠

والكافرون فى كل العصور والأمم يرون فى المؤمنين مصدر شؤم ، ويصوغ القرآن التعبير عن هذا الشؤم فى صورة عادة زجر الطير ، حيث كانوا يتفاءلون ويتشاءمون بالطير ، فاذا عزموا على أمر زجروا الطير بطريقة معينة عندهم ، فاذا انطلق الطير جهة اليمين تفاءلوا وقالوا هذا أمر خير ، ومضوا فيه ، واذا انطلق جهة الشمال تشاءموا وقالوا هذا أمر شر وانصرفوا عنه ٠

وقد أعلن قوم صالح الى صالح عليه السلام تشاؤمهم به وبالمؤمنين معه ، حيث :

(قالوا اطيرنا بك وبمن معك) (٣٩) ٠

---

(٣٨) ٥١ سورة النساء ٠

(٣٩) ٤٧ سورة النمل ٠

وكذلك تشاءم آل فرعون من موسى ، والمؤمنين معـه ، فكلما أصابتهم مصيبة ، أو حلت بهم نازلة قالوا هـذا من شؤم موسى والمؤمنين ، وفى القرآن :

(ولقـد أخـذنا آل فرعـون بالسنين ونقص من الثمرات لعـلهم يذكرون ، فاذا جاءتهم الحسـنة قالوا لنا هـذه وان تصبهم سـيئة يطيروا بموسى ومن معه) (٤٠) ·

وكذلك تشاءم أهل القرية التى توجه اليها رسل المسيح عليه السلام منهم ، حيث :

(قالوا انا تطيرنا بكم) (٤١) ·

والتشـاؤم من المؤمنين مرحلة أبعـد وأسوأ من محض ازدرائهم واحتقارهم ، فان الازدراء يتضمن اعتقاد الشـؤم والسوء في ذات المؤمنين ، أى ان شؤم المؤمنين محيط بهم هم فحسب ، حيث جعلهم موضع الاحتقار والتخلف ، أما التشاؤم بالمؤمنين فانه يتضمن في رأى الـكافرين أن شـؤم المؤمنين تعداهم الى المجتمع الذى يعيشون فيه ، فكلما أصابهم مكروه قالوا هذا من شؤم هذا النبى وشؤم المؤمنين ، فالشؤم فى هذه المرحلة في تصـور الكافرين قـابع في ذات المؤمنين ، وفـوق ذلك فـانه ينبعث منهم الى من حولهم فينشر فيهـم ما يكرهون ·

والأمور ينبني بعضها على بعض ، فحيث وضع الكافرون فى نفوسهم ، أن المؤمنين مصدر شؤم ، فان تألمهم مهما حل بهم ، وتخوفهم مما سيجلبه شؤم المؤمنين عليهم يجعلهم يحاولون جهدهم ابعاد المؤمنين عن مجتمعهم حتى تستريح نفوسهم ، ويأمنوا على أنفسهم مما يتوقعونه من شؤم المؤمنين مما يجره عليهم من مصائب ومكاره ·

---

(٤٠) ١٣٠ سورة الأعراف وما بعدها ·
(٤١) ١٨ سورة يس ·

والقرآن ينقـل عن الأمم السابقة حتى قريش مـوقف الكافرين فيها من محاولة طرد المؤمنين اتقاء لشؤمهم وما ينجم عنهم في راى الـكافرين من شر ، ومن امثلة ذلك قول قوم لـوط :

(أخرجوا آل لوط من قريتكم) (٤٢) ٠

وقال قوم شعيب :

(لنخرجنك يا شعيب والذين آمنـوا معـك من قريتنا) (٤٣) ٠

وهذا المعنى نفسه وهو محاولة التخلص من المؤمنين ، أو بمعنى أدق من وجـود المؤمنين في المجتمـع حـاوله كل الكافرين في كل العصور وان تعـددت أو اختلفت صـورة التخلص ، وكان من هذه الصور قتل الأنبياء بوصفهم أئمـة المؤمنين ، كما فعل اليهود في قتلهم أنبيائهم ، وكان من هذا القبيل ما فعله وما حاوله قوم فرعون مع المـؤمنين من قوم موسى ، وفي القرآن من ذلك :

(قـالوا اقتلوا أبنـاء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) (٤٤) ٠

ومن هذا القبيل مـا واجه به أهـل القرية التي توجه اليها رسل المسيح عليه السلام هؤلاء الرسل من محاولة قتلهم اذا أصروا على الايمان والدعوة اليه ، فقالوا لهم :

(لئن لم تنتهوا لنرجمنكم) (٤٥) ٠

ومن هذا القبيل أيضا موقف قريش من محمد صلى الله عليه وسلم بوصفه قـائد الايمان ، حيث كانوا متفقين على ضرورة التخلص من شره في رأيهـم ، ولكنهم اختلفـوا في

---

(٤٢) ٥٦ سورة النمل ٠
(٤٣) ٨٨ سورة الأعراف ٠
(٤٤) ٢٥ سورة غافر ٠
(٤٥) ١٨ سورة يس ٠

الوسيلة التى يتخلصون بها منه ، وكان من الوسائل التى أداروها فيما بينهم للتخلص منه اخراجه من بلدتهم ونفيه منها ، والقرآن ينقل مجمل هذه الوسائل فى قوله تعالى :

(واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) (٤٦) ٠

والقرآن يوضح أن هذا الموقف من محاولة التخلص من وجود المؤمنين فى المجتمع ليس موقفا خاصا بمجتمع أو عصر ، وانما هو موقف كل الكافرين من كل المؤمنين ، ومثل هذا التعميم نجده فى قوله تعالى :

(وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا) (٤٧) ٠

---

(٤٦) ٣٠ سورة الأنفال ٠

(٤٧) ١٣ سورة ابراهيم ٠

عموم المبادىء على أولياء الله وأعدائه

سبق الحديث عن بعض جوانب من هـذا الموضوع (١) ولكن هذا الحديث هنا ينصب على جانب واحد ، هو تساوى كل الأطراف أمام المبادىء العامة التى يضعها الله سبحانه ، يستوى فى ذلك أوليـاء الله وأعداؤه ، بل وكذلك رسـله وأنبياؤه ٠

وهذا انصاف واضح من القرآن لخصومه ، فان القرآن يتضمن كل المبـادىء والأحكام التى يريد الله من عباده أن يهتدوا بهـا ويلتزموها ، ولكن أعـداء الله قد ينظرون الى القرآن على أنه يمثل موقف أولياء الله وحدهم ، فلا يوجـه الى هؤلاء الأولياء شيئا يغض من قدرهم أو شيئا يتسـاوون فيه مع أعدائهم ، كشأن الاعلام البشرى الذى ينصب كـله على تمثيل طرف واحد هو صاحب هذا الاعلام ، ومهاجمـة الطرف الآخر ٠

ولـكن القرآن بوصفه كـلام الله ذى العـدل المطلق ،

---

(١) فصل المساواة الافتراضية بين الرسول والمشركين ٠

والانصاف غير المحدود يعلم الناس حتى أعداءه أن حقهم فى الانصاف محفوظ ، ومن الانصاف أن الناس جميعا أمام المبادىء والقانون سواء ، لا فرق فى هذا بين عدو وصديق

بل ان القرآن يبرز هذا الانصاف فى التساوى امام المبادىء بين أعداء الله ورسل الله ، وحيث ان رسل الله لا يعقل أن يهدموا مبادىء الله التى ينادون بها ، ولا أن يخترقوا حدوده التى يطالبون الناس الا يتعدوها فان القرآن يبرز الانصاف حينئذ من باب افتراض أن يحدث من رسل الله تجاوز لحدود الله ففى هذا الافتراض يتساوون مع أعداء الله ، ويطبق عليهم أيضا من باب الافتراض ما يطبق على أعداء الله ، وذلك أن أعداء الله قد يظنون أن هذا القرآن مادام فى رأيهم من كلام محمد فسيكون كله على الاطلاق كشأن الاعلام البشرى دفاعا عن محمد وتمجيدا له وهجوما عليهم هم ، وتسفيها لموقفهم ، ولن يكون فيه موقف اطلاقا يتساوى فيه هو أو أتباعه معهم ، ولكن القرآن يفاجئهم بان مبادىء الله وأحكامه التى يتضمنها لا فرق فيها اطلاقا بين الناس جميعا الا بمقدار التزام هذه المبادىء ، من باب قوله تعالى :

(ان أكرمكم عند الله أتقاكم) (٢) .

ويفاجئهم القرآن بأن يضرب برسول الله ذاته مثلا فى أنه على منزلته عند الله وعند المؤمنون لو تخطى حدود الله فسيكون مثلهم على حد سواء ، وسينال من عقاب الله ما ينالون هم حيث يتساوون فى العقاب كما تساووا فى الجرم ، وفى القرآن كثير من هذا القبيل نكتفى منه ببعض الأمثلة .

ولكن من الحق أن يقال ان الاستنتاج من هذا المعنى وهو تساوى الرسول مع أعداء الله ونزوله الى درجتهم لو أنه

(٢) ١٣ سورة الحجرات .

تخطى حدود الله وصدر منه ما يصدر منهم ليس محصورا في انصاف أعداء الله وخصومه ، بل هنـاك نتائج لهذا المعنى لا تقل أهمية عن أنصاف الخصوم ، ومنها :

١ ـ تعليم القادة وذوى السلطة ألا يجاملوا أحـدا في تطبيق المبادىء والأحكام ، وألا يميزوا أحدا من بطانة أو قرابة أو غيرهما عن غيره في الحساب والعقاب اذا أخل بمبدأ أو قانون ، وهذا باب من أخطر أبواب الفسـاد ، وكم كان سـببا في انهيـار أمم وممالك ، واحداثه مشهورة في كل عصور التاريخ •

٢ ـ تعليم الأتباع أن المبادىء فوق الأشخاص مهما علت منازلهم ، بل فوق أى مسئول مهما كان سلطانه ، وأن السلطة أوالقيادة لا تعطى صاحبها أى حق في الاخلال بالمبادىء ، بل هي زيادة في القيود عليه ، وفي الزامه أن يكون قدوة لغيره في التقيد بهذه المبادىء ، وقد كان ولا يزال التفريط في هذا المجال من أخطر أبواب الفساد ، فلا شىء أسرع بالفساد والانهيار من أن يرى صاحب السـلطة أو القيـادة أن لـه ما ليس لغيره في الاخلال بالمبادىء والخروج على القانون ، ومن هذا القبيل الحديث النبوى المعروف :

(انما أهلك من كان قبلكم من الأمم أنهم كـانوا اذا سرق منهم الضعيف أخذوه ، واذا سرق فيهـم الشريف تركوه) •

وليس المقصود بالقيادة هنا قيادة السياسة أو الزعامة ، وانما كل قيادة تلى شيئا من المسئولية ولو كانت قيادة الأسرة، فانه اذا فسد قـائد الأسرة وخـرج على شيء من الاعـراف والمبادىء فان فساده سيسرى في كيان الأسرة كلها ، ولـكن الخطورة الأشد أن يتصرف قائد الاسرة على أساس أن قيادته للأسرة تعطيه شيئا من الحق في سلوكه هذا ، وتتضح هـذه الخطورة حينما تكون في مجال دينى كبعض الزعماء والقادة

الدينيين لبعض الطوائف الذين يوهمون أتباعهم أن وضعهم القيادى يمنحهم حقوقا ليست لغيرهم من الاخلال بالمبادىء والخروج على الأحكام العامة ·

ولكن القرآن يغلق كل هذه الابواب اغلاقا محكما حين يبلغ من التوضيح أن يضرب برسول الله صلى الله عليه وسلم المثال ، بل الأمثلة العديدة فى مجالات ومواقف كثيرة ، فى أن منزلته على جلالها عند الله وعند المؤمنين لا تتيح له أن يحيد عن المبادىء التى يطالب الناس بها قيد أنملة ، وأنه لو حاد عنها مع استحالة ذلك عمليا فلن ينفعه جلال منزلته ، لأنه سيفقد حينئذ هذا الجلال ، ويحاسب كغيره أو أشد ·

فمن الأسس العامة أن كل الناس لابد أن يموتوا ثم يعرضوا على الله للحساب يوم القيامة ، وحيث كان رسول الله وأعداء الله خصمين فى الدنيا فسيقفان أمام الله يوم الحساب، ومنزلة رسول الله لا تعفيه من الوقوف فى هذا الموقف بوصفه طرفا فى الخصومة ، وهذا يتضمن فيما يتضمن ابعاد ما قد يتوهم من أن منزلة الرسول تجعل حجته ملغية لحجة خصومه ، أو أن مجرد العلم بحجته يعفيه من المثول فى الخصومة أو نحو ذلك ، وقد كان فى القرآن من هذا القبيل :

(انك ميت وانهم ميتون ، ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) (٣) ·

فالموت ثم الحساب قضية عامة على البشر جميعا ، ومن الانصاف لأعداء الله أن يشعروا بتساوى الناس فيها جميعا معهم ، لا يستثنى من ذلك أولياء الله ، بل ولا رسول الله ذاته ، بل زيادة فى الانصاف فان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون معهم فى الخصومة على قدم المساواة بوصف كل منهما طرفا فيها حيث يتبينون حينئذ من منهما يمثل الحق ، ومن منهما يمثل الباطل ؟

---

(٣) ٣٠ وما بعدها سورة الزمر ·

ومن المبادىء العامة ان الله لا يغفر أن يشرك به ، وقد توعد الله المشركين بالعقاب الشديد على شركهم ، ورغم انه من الواضح أن هذا الحكم يسرى على كل الناس على الاطلاق، ورغم أنه من الواضح أيضا أن الانبياء جميعا معصومون من تعمد أية معصية أو مخالفة لله فضلا عن الكفر والشرك فان القرآن يتخذ من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ومن اخوانه السابقين من الانبياء مثلا يبرزه للناس عامه ، وللمشركين خاصة ، فى أن الله لا يقبل الشرك ولا يرضاه ولا يغفره لأحد اطلاقا ولو كان من الانبياء ، بل ولو كان هو هذا الرسول الذى يدعوكم الى الايمان ويحذركم من الشرك، وهذا من باب الانصاف للمشركين ، وفى القرآن :

(ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ! (٤) ٠

ومن المبادىء العامة أن كل ما سيحدث من أمر على الاطلاق انما هو من قضاء الله ، وكل ما يصدر من شخص انما هو من مراد الله ، ومن آثار ذلك أن من الخطأ الذى يمس العقيدة أن يعتقد صاحب ميزة أو موهبة أن ميزته أو موهبته انما هى وليدة تفوقه على غيره بذكاء أو علم أو نحو ذلك كما قال قارون :

(انما أوتيته على علم عندى) (٥) ٠

أما الحقيقة التى ترتكز على الايمان فهى أن كل ميزة انما هى منحة من الله ، كما أن كل ضر أو سوء انما هو من مراد الله ، والأمر فى كل حال لا يعدو أن يكون ابتلاء من الله ، كما يقول تعالى :

(ونبلوكم بالشر والخير فتنة) (٦) ٠

---

(٤) ٦٥ سورة الزمر ٠

(٥) ٧٨ سورة القصص ٠

(٦) ٣٥ سورة الأنبياء ٠

وفى شىء من هذا القبيل يضرب الله سبحانه المثل برسوله على عصمته وعلى جلال منزلته فى أنه لولا فضل الله وتوفيقه وحفظه لكان الرسول كغيره ، ولسقط فيما يسقط فيه سواه ، فمن ذلك قوله تعالى :

(وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا ، اذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ، وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا)(٧)

ومما يضرب الله سبحانه فيه المثل برسوله وسوسة الشيطان ، فلا شك أن الرسول وكل الأنبياء معصومون من سيطرة الشيطان عليهم فى أى موقف أو مسلك أو تفكير ، ولكن وسوسة الشيطان ومحاولته اغواء بنى آدم مبدا من المبادىء العامة فى الدين ، كما تكرر ذلك فى القرآن من خلال قصة أمر الله ملائكته أن يسجدوا لآدم ، وتمرد ابليس واستكباره أن يسجد لآدم ، وقد أذن الله له أن يصب اغراءه واغواءه على بنى آدم ليكون ابتلاء واختبارا لهم ، حتى كانت النتيجة كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم (ان الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم) وحيث كانت وسوسة الشيطان أو محاولتها قضية عامة فى البشرية فقد كان من باب الانصاف أن يضرب الله برسوله المثل بوصفه أحد البشر ، وليعلم المؤمنين من خلاله كيف يتقون وسوسة الشيطان ، فيقول تعالى مخاطبا رسوله :

(واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم ، ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) (٨) •

---

(٧) ٧٣ وما بعدها سورة الاسراء •

(٨) ٢٠٠ وما بعدها سورة الأعراف

وقد سبق أنه من الانصاف أن الله سبحانه يضرب برسوله المثل للناس فى أنه كما يحاسب الناس على أعمالهم فانه لا يستثنى من الحساب أحدا ولو كان رسوله على جلال قدره ، بل يجعل حساب رسوله أشد من حساب سائر الناس ، حيث ان الله لا يحاسب الناس على فعل أى شىء مباح ، أما رسوله فانه يحاسبه على فعل المباح اذا كان هناك مباح أولى منه ، ومن ذلك قصة أسرى بدر المشهورة ، حيث كان المسلمون يومئذ فى حاجة الى اظهار قوة كيان الاسلام ، ومن وسائل ذلك أن يعاملوا أعداءهم بعنف وغلظة لاثارة الرهبة فى نفوسهم ، فحين وقع أسرى المشركين فى قبضة المسلمين استشار النبى صاحبيه فى أمرهم ، فأشار عمر بأن الأولى أن يقتلوا هؤلاء الأسرى ، وبسط وجهة نظره ، وأشار أبو بكر بأن الأولى أن يأخذوا من الاسرى فدية ويطلقوا سراحهم ، وبسط أسباب وجهته ، وكلتا الوجهتين تدور حول مصلحة الاسلام ، اما لاثارة الرهبة فى نفوس اعدائه ، واما للحصول على عائد مالى يبل به المسلمون ومق فقرهم ، وكانت مراعاة مصلحة الدين نفسه باعلاء راية قوته أولى (من) مراعاة مصلحة المسلمين ، ولكن النبى كان فى طبعه الميل الى الرحمة ، فاختار جانب الفداء لأنه أقرب الى الرحمة ، واذا الله سبحانه ينزل فى هذا من القرآن ما هو أشد من العتاب وأقرب الى اللوم فى قوله تعالى :

(ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) (٩) .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم قولته المشهورة :

(والله لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر) .

---

(٩) ٦٧ وما بعدها سورة الأنفال .

أى لأصاب العذاب النبى نفسه ٠

ومن جوانب العبرة الواضحة فى مثل هذا هو الانصاف للناس عامة ، ولاعداء الله خاصــة ، من حيث انه مادام الله يحاسب الناس فانه لا يستثنى من الحساب حتى رسوله ، بل يحاسبه بأشد مما يحاسب به سائر الناس ٠

وكذلك الوضع بالقياس الى رسل الله الســابقين ، فان كثيرا منهم يضرب القرآن أمثلة للناس بهم حيث كانت لهــم مواقف جعلتهم يخضعون للمبادىء العامة التى يخضع لهــا سائر الناس فى مجال المخالفة ٠

وأولهم آدم أبو البشر ، الذى خضع لوسوسة الشــيطان فعصى الله كما يعصى كثير من البشر ، ولكنه يثوب الى ربه كما يثوب المؤمنون حين تزل نفوسهم ، فيقبل الله توبته ويغفر له كما يقبل سائر التائبين ويغفر لهم ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ ٠٠٠ وعصى آدم ربه فغــوى ، ثم تاب عليــه وهدى ﴾ (١٠) ٠

ومن ذلك ما سبق حديثه عن نبى الله نوح ، وانذار الله اياه أن يكون من الجاهلين حين تغلبت أبوته على صفته الدينية فى لحظة احساسه بتعرض ابنه للهلاك بالغرق ٠

وقد ساق القرآن أمثلة كثيرة من هذا القبيل عن بعض رســل الله ، نكتفى ببعض ما ورد فى هــذا دون حاجة الى الافاضة فى ذكر القصص والملابسات التى دعت الى وضــع رسل الله فى هذا الموضع ، فان هذه الملابسات مدونة فى كل كتب التفسير ، وايرادها هنــا ســيدعو الى مناقشــة بعض الروايات التى تقبلهــا كثير من المفسرين عــلى أنها روايات تاريخية ، وهى فى حقيقتها من قبيل ما هو معروف فى كتب التفسير بالاسرائيليات ، التى وضعها اليهــود لأهــداف فى

(١٠) ١٢١ سورة طـه ٠

نفوسهم غير مراعين عدم توافقها مع مبادئ كل الأديان السماوية ، ولا مع عصمة الأنبياء ، ولا مع المنطق المعقول ، وليس من هدف هذا الحديث الاستطراد في شيء من ذلك ، حتى لا يخرج الموضوع عن مساره ، فكل ما يعنى هذا الكتاب هو أبرز الانصاف فى القرآن ٠

فمما ورد فى هذا الشأن عن داود عليه السلام :

(وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ، فغفرنا له ذلك ٠٠) (١١) ٠

فلا يعنينا كثيرا تفاصيل ما صدر من داود ، وانما يعنينا أن هذا الأسلوب صريح في أن داود قد صدر منه ما لا يناسب مقام المرسلين ، وأن الله سبحانه من عدله وانصافه يطبق عليه مبدأ حساب البشر فيحاسبه بمقياس حساب المصطفين من عباده ، وهو الحساب حتي علي ترك الأولى ، أو ما يعبر عنه بأنه من باب :

(حسنات الأبرار سيئات المقربين) ٠

ومن ذلك ما ورد فى شأن سليمان عليه السلام من قوله تعالى :

(ولقد فتنا سليمان وألقينا علي كرسيه جسدا ثم أناب ، قال رب اغفر لي) (١٢) ٠

وهذا مما خاض فيه اليهود بذكر ملابسات نسبوها الي نبيهم سليمان لا تليق بالأنبياء ولا بالمؤمنين العاديين ، لأنها لا تتفق أصلا مع الايمان ، ولكن الذى يعنينا أن تعبير القرآن صريح فى أنه قد صدر من سليمان مالا يليق بمقام النبوة ، فأناب الى الله مستغفرا مما صدر منه ٠

---

(١١) ٢٤ وما بعدها سورة ص ٠

(١٢) ٣٤ سورة ص وما بعدها ٠

ومن ذلك ما ورد فى شأن يونس عليه السلام من قوله تعالى :

(وان يونس لمن المرســلين ، اذ أبق الى الفلك المشحون ، فســاهم فكان من المدحضـين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون) (١٣) .

فيونس صـدر منـه مالا يتفق مع مكانه من الرســالة الالهية ، وقد ناله من الله هذا العقاب فى الدنيا ، ولكنه أناب الى الله فغفر له وعوضه عما أصابه فيضا من نعمته .

ومن باب أولى الذين هم دون الأنبياء من المؤمنين ، فان المشركين قد ينظرون الى المسلمين على أنهم ما داموا ينتمون الى حزب الله ، فان القرآن الذى يمثل هـذا الحزب أو يعبر عنه سيجاملهم ولا يتعرض لابراز أخطائهم ، ولا يسوى بينهم فى الحساب ، بصرف النظر عن ايمانهم بأن حزب المسـلمين عـلى حق او عـلى باطل ، فالمهم أنهم فى نظـرهم من حيث الخصومة حزب معاد ، وأنه يدعى أنه حزب الله ، وأن القرآن يمثلهم ويعبر عن وجهتهم ، ومن هـذه الزاوية ينتظـرون انحياز القرآن الى المسلمين ، وتحاشيه عرض شيء يسيء اليهم أو يضعهم موضع المساءلة والحساب .

ولكن كلام الله الذى يعلم النـاس فيما يعلمهم العـدل والانصاف يسوق أمثلة عديدة يبرز فيهـا أن المسـلمين او بعضهم وقفوا مواقف يستحقون من أجلها اللوم أو الانذار .

ومن ذلك أن القرآن يسجل على المسلمين أنهم لم يكونوا جميعا متحمسين أو مستعدين للجهاد فى سبيل الله حين وجههم الله ورسوله الى مواجهة أعداء الله يوم بدر ، بل خرج بعضهم كارها لهذه المواجهة أشد الكره ، محاولا بالجدال أن يتجنب التضحية يومئذ وأن يحصر همـه فى الغنيمة الضخمة التى

---

(١٣) ١٣٩ وما بعدها سورة الصافات .

تشتمل عليها قافلة قريش ، والله يلومهم على هــذا فى قوله تعالى :

(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون ، واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) (١٤) ٠

فقد وعدهم الله اما النصر على الأعداء ، واما الاستيلاء على قافلة الأعداء ، فاذا نفوس بعضهم تتجه بكل ما فيها من رغبة وحرص الى أمنية الاستيلاء على القافلة ، وتنفر بكل ما فيها من حــذر وخوف من فكرة القتال ، بينما كان ينبغى أن يكونوا كباقى المؤمنين الذين يدركون أن الاسلام حينئذ أحوج ما يكون الى التضحية والفــداء لأنهم يضــعون بهــذه التضحية أساس بناء أمة الاسلام ، بل أول لبنة فى كيانها ٠

ومما وجه الله فيه اللوم الى بعض المســلمين ، أن بعضا من عامة المسلمين كانوا ينشغلون عن النبى صلى الله عليــه وســلم وعن كلامه فى أثنــاء خطبة الجمعــة ، غير مراعين ما ينبغى أن يكون عليــه حسن الاســتماع ، ولا ما يصيب الخطيب من أذى وضيق حين يشعر بانشغال السامعين عنه ، وخصوصا اذا كان الخطيب هو شخص النبى صلى الله عليــه وسلم ، وفى هذا يقول الله سبحانه :

(واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) (١٥) ٠

---

(١٤) ٥ وما بعدها سورة الأنفال

(١٥) آخر سورة الجمعة ٠

ومما كان المسلمون جميعا فيه فى موضع العتاب الا بضعة نفر منهم موقفهم يوم حنين ، حيث أذهلت المفاجأة المسلمين عن واجب التضحية فى الجهاد ، وعن حماية شخص النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى قلب الموقعة ، فاذا هم يفرون عن النبى حتى لم يبق حوله من المسلمين الا بضعه نفر ، وهو حينئذ يواجه جحافل الأعداء واذا نفسه الشريفة تمتلىء بعزة الايمان وعزة الأصالة واذا هو ثابت الجأش فى موقفه هذا الرهيب ، واذا هو يبعث فيمن حوله الثقة والثبات ، بقوله :

(أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب) .

ولكن الله يلوم المسلمين على فرارهم من التضحية ، وتركهم النبى يواجه هذا المشهد الرهيب ، فى قوله تعالى :

(لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) (١٦) .

وكأن القرآن يعتذر عن المسلمين فى هذا الموقف بأنه كان فوق الاحتمال بقوله تعالى :

(وضاقت عليكم الأرض بما رحبت) .

ففرارهم لم يكن جبنا ولا هربا من التضحية ، وانما كان تحت عامل نفسى هو ذهول المفاجأة ، ولكن اذا كانت المفاجأة أذهلتهم عن القتال فما كان ينبغى لهم أن يذهلوا عن رسول الله فيتركوه فى هذا الموقف الرهيب ، فقد كانوا اذن فى جملة موقفهم ملومين ، والقرآن يسجل هذا اللوم عليهم ،

---

(١٦) ٢٥ وما بعدها سورة التوبة .

ولكنه يشير الى أن الله قد قبل ندم النادمين منهم ، وتاب عليهم في قوله تعالى :

(ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) ٠

والذى يعنى هـذا الحديث من ذلك هـو ابـراز جانب الانصاف فى مثل هذا حيث يشعر أعداء الاسلام أن الانصاف والعدل عند الله أجل من أن تستثنى فيه طائفة ولو كانت من أولياء الله ، أو فرد ولو كان من رسل الله (١٧) ٠

(١٧) تصادف أننى انتهيت من كتابة هذا الكتاب فى يوم كنت قد نويت فيه العمرة ولم تبق الا الأسطر الأخيرة ، فكتبتها بجوار الكعبة تيمنا ورجاء ٠



الأثر الاعلامى

تمهيـــد :

والمـراد بالأثر الاعلامى التأثير النفسى الذى يحـدثه القرآن فى نفوس سامعيه سـواء من الأوليـاء والأعداء بما يسلكه من تعدد أساليبه ، وفنون موضوعاته ·

ولم يكن مصادفة ولم يكن لهدف واحد أن يكون القرآن هو معجزة الاســلام الوحيدة ــ بالمعنى العلمى للمعجزة (١) وانما كان معجزة الاسلام الوحيدة لأنه يتضمن كل الحاجات الأساسية للاسلام من كل الوجوه ، وهذا من الوضوح بحيث لا يحتاج الى بسطة فى القول ولكننا نوجز أبرز زواياه وليس كلها فى **النقاط الآتية :**

---

(١) المعجزة فى حقيقتها هى أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى النبوة على وجه التحدى تصديقا له فى دعواه ، فليس كل خارق للعادة معجزة ، بل لابد أن يتحدى بها النبى مقدما بأن يقول ان الله سيظهر على يدى كذا تصديقا لى ، وهذا فى الاســلام لا ينطبق الا على القرآن ، أما الخوارق العارضة على يد النبى صلى الله عليه وسلم فكانت كثيرة ، ولكنها لا تعد معجزات ·

١ ــ القرآن هو دستور الاسلام الثابت من الناحية التشريعية ، وكونه ثابتا لا يقبل التغيير ولا التعديل له بالغ الأثر فى الاستقرار الاجتماعى من الناحية النفسية لكل المؤمنين به ، فان من عيوب التشريعات البشرية مهما بلغت جودتها أنها تتيح لمعتنقيها أن يغيروا ويبدلوا فيها ، وكثيرا ما يكون هذا التعديل أو التغيير ليس لمصلحة عامة ، أو لاعلاء مبدأ خيرى عام ، وانما لتيسير المنفعة لفئة معينة ، أو لنشر مذهب طارىء يحقق غالبا أهدافا ومطامع خاصة لفئة معينة، بينما الخير والشر كلاهما واضح ومحدد منذ بدء البشرية ولن يتغيرا حتى نهايتها ، وهذا ما تتضمنه كل الشرائع السماوية التى أنزلها الله ، ولن يحاول التغيير فيها الا ذو هوى معين ، ومصلحة خاصة ، وحين تتغير يحدث انقسام أو انقسامات فى المجتمع ، بين الذين يعتنقون الخير لذاته ، والذين يفتحون لأنفسهم ثغرات فى التعديلات الجديدة ليصلوا من خلالها الى أهدافهم ٠

ولكن القرآن بتشريعه الثابت يغلق المنافذ على كل الذين يريدون التسلل أو الالتفاف ، ومن يفعل ذلك منهم يكون واضحا فى ضوء التشريع انه مخالف أو مضلل ، والسكوت عليه حينئذ لا يكون عيب التشريع ، وانما عيب المسلمين الذين يرون الحق واضحا ، ثم يتركون بعضهم يتهجم عليه أو يعبث به ٠

ولو أن المسلمين تشبثوا بالحق ، وأقاموا تشريع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بصدق لظلوا جميعا يدا واحدة وتحت مظلة واحدة ، كما فعل الجيل الأول منهم ، ثم لظلوا خير أمة أخرجت للناس كما كان ذلك الجيل ٠

وانما بلغ ذلك الجيل تلك المنزلة حين أتاحوا لنفوسهم أن تتأثر بالقرآن فتتشبع بهديه ، فتلتزم مسلكه ٠

٢ ــ القرآن هو الحصن السياسى للمسلمين ، وليس

المراد بالقرآن التوسع فى مدلوله الى مدلول عقيدة الاسلام أو تشريعه ، وانما المراد بالحصن السياسى نص القرآن نفسه ، فمن النظرات التاريخية التى لحظها الباحثون أن كثيرا من الشعوب والأمم ذابت فى الأمم الغازية ، وذابت معها كل مقوماتها القومية والدينية والحضارية بما فيها معظم عاداتها وتقاليدها ، بحيث تنسلخ الأمة المغلوبة من كل هذه المقومات لتعتنق بدلا منها مقومات الأمة الغازية رضوخا للقوة من جانب ، وتقليدا للغالب من جهة أخرى كما يفصل ابن خلدون هذا المعنى فى فصل خاص فى مقدمته بعنوان (المغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب) ويعم هذا التقليد حتى يشمل كل مقومات الأمة المغلوبة فتنمحى معالم حياتها لتحل محلها معالم حياة الأمة الغالبة ، كما حدث فى الأمة الفارسية ذات الحضارة العريقة والديانة الوثنية ، والأمة الرومية ذات الحضارة العريقة والديانة المسيحية ، والامة المصرية ذات الحضارة العريقة والديانة الوثنية التى خالطتها المسيحية ، فكل هذه الأمم ذابت بكل مقوماتها العامة فى الاسلام ومقوماته ، وكما حدث فى شعوب كثيرة قديمة ذابت بكل مقوماتها فى الحضارة الهندية والصينية وغيرها .

ولكن الانتماء الوحيد الذى لحظ الباحثون أنه استعصى على الذوبان فى أية أمة وأية حضارة أخرى هو الانتماء الى الاسلام ، فلم تستطع أمة غازية على كثرة حدوث ذلك أن تسلخ شعبا ينتمى الى الاسلام من انتمائه لتذيبه فى مقوماتها ، وليست عقيدة الاسلام لذاتها هى السبب فى ذلك، فان بعض الشعوب التى ذابت فى غيرها كانت تحمل عقيدة سماوية ، ولكن السبب هو القرآن ذاته ، بوصفه نصا ثابتا ، فان المسلمين مهما بعدوا عنه ، أو انجرفوا فى تيار غيرهم ، فان شعورهم النفسى بأن هناك مرجعا لهم ، ونصا ثابتا بين أيديهم يجعلهم يتشبثون به ، لأن انفصامهم عنه معناه انفصامهم عن عقيدتهم التى هى حضارتهم وقوميتهم الحقيقية ، فمهما بعدوا فهناك خيط قوى يشدهم

الى القــرآن ، ليس من الناحيــة الروحيــة أو التشريعيــة وانما أيضــا من الناحيــة السياســية التى نتحدث عنهــا هنا ، فالانتماء الاسلامى بجانب انه انتماء دينى ، هو انتماء سياسى يربط الشعوب الاسلامية بالاسلام ، ولا يتيح لعدو ان يسلخهم منه ، والفضل فى هذا للقرآن بنصه الثابت ، وكونه مرجعا نفسيا لكل مسلم ، بمعنى أن كل مسلم مهما ضعفت مزاولته لعبادته الدينية فان نفسيته مرتبطة بالقــرآن من حيث الانتماء ، لأن وجود القرآن بثبوت نصه ، واليقين بأنه كلام الله لكل مؤمن به لا يتيح لعدو أن يضلل المؤمنين به أو يفصمهم عنه ، ولكل هذا لم تستطع أمة مهما بلغت قوتها أو غلبتها أن تسلخ شعبا مسلما من انتمائه الى الاسلام ، وهذه الأمثلة كثيرة اليوم لأقليات مسلمة تعيش داخل أمم كبيرة ، بل داخل قوى عظمى ، ولم تستطع كل هــذه القــوى رغم استماتتها فى سلخ المسلمين من الاسلام أن تنجح فيما تريد ٠

٣ ــ القران فوق كونه حصنا سياسيا هو أيضــا سلاح حربى ، وليس فى هذا الوصف تجوز ، بل هو حقيقة واضحه، فان الاسلام فى حرب مع خصومه منذ أول يوم عرف النــاس الاسلام ، والحرب من انواعها نوعان ، حــرب عســكرية ، وحــرب نفســية أو معنــوية أو باردة كما تسميها وســائل الاعلام الحديثة ٠

ولم يكن غريبا أن يواجه الاسلام بالنفور أو العداء منذ ولد ، ولا أن تظل هذه العداوة محيطة به الى ما شاء الله ، فيكفى أنه يمثل الحق الواضح ، واذا كان أحد الفلاسفــة يعلل نفور الناس منه بالتزامه قول الحق ، حيث يقول لــم يترك لى قول الحق صديقا ، فان الاسلام لا يكتفى باعــلان الحق ، وانما يدعو الى التزامه ، ويدعو الى الانكار على من يحيد عنه ، وقد واجهت كل الأديان السماوية على الاطــلاق نفور الناس منها منذ ظهورها ، ووجه الاختلاف بين الاسلام وسائر الاديان السماوية ، أن رسالة الأديان الاخرى كانت اعلان الحق فحسب ، فاذا اعترض الناس طريق حملة هذه

الأديان فعلى هـؤلاء الحملة أن يرجعوا الى الوراء ليعتزلوا الناس فاذا آذاهم الناس فى طريق رجوعهم فعليهم ان يتحملوا صابرين هذا الاذى مهما يكن لونه ٠

اما الاسلام فانه لا يبيح لحملته أن يرجعـوا الى وراء اذا اعترض الناس طريقهم ، وانما عليهم ان يفسحوا لدينهم طريق دعوته ، واذا لم يكن بد من قتال معترضيهم فعليهم ان يقاتلوهم بكل ما يملكون من عزم ومن عتاد ، فاذا رجعـوا حينئذ الى وراء كانوا آثمين مغضوبا عليهم من الله ، كقـوله تعـالى :

(يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفـا فلا تولـوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئـذ دبـره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) (٢) ٠

بمعنى أن من يتراجع عن القتـال حينئـذ فهو هـدف لغضب الله الشديد ووعيده ، الا اذا كان تراجعه عن خطـة عسكرية مرسومة لقتال أنجح ٠

ولكن أعداء الاسلام كانوا ومازالوا لا يريدون للاسلام أن يتقدم خطوة ، رغم أنه لا سـلاح له فى تقدمه بدعـوته الا الحكمة والموعظة الحسنة ، بل يحاولون بكل جهـد وكل وسيلة أن يدفعوه الى الوراء دفعا ، وأن يضيقوا عليه الخناق تضييقا ، وهم فى غير شك لن يتركوه وشـأنه مهما تراجع أمامهم ، بل لن تطيب نفوسهم الا اذا محوه من الأرض محوا واذا كان شعار حملة الأديان السماوية التى يفترض من أنهم أقرب الى الاسلام من الملحدين والوثنيين كما يصف القرآن

(ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) (٣) ٠

---

(٢) ١٥ وما بعدها سورة الأنفال ٠
(٣) ١٢٠ سورة البقرة ٠

أى حتى تترك الاسلام فلا يكون له وجود ثم تتبع ملتهم، فأولى بالملحدين والوثنيين أن يكونوا أشد نقمة على الاســلام وحرصا على محوه ٠

والذى يعنينا الآن من هذا أن الاسلام يقوم أساسا على افتراض مواجهة الأعداء ، حيث ان من أسس اهدافه التى يجب على المسلمين أن يحققوها ، ثم أن يحافظوا عليهــا ان يكون الحق ممثلا فى عقيدة الاسلام ظــاهرا فى الأرض عاليا بوضوح الحق فيه على كل عقيدة أخرى ، والقرآن يبرز هذا فى أكثر من موضع ، كقوله تعالى :

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) (٤) ٠

ومما يلفت النظر تكرار هذا التعبير بنصه فى القرآن ثلاث مرات فى سور مختلفة ، وهذا يعنى تأكيد هذا المعنى وزيادة الزام للمسلمين أن يحققوه بصفة دائمــة ، ومعنى ظهوره على الدين كله أن تبــلغ دعوته كل مكان فى الأرض بصورة واضحة ظاهرة ، ليكون وضوحه حجــة على كل من تبلغه هذه الدعوة ، فان من سنن الله ألا يحاسب الا من تبلغه دعوة الحق واضحة ، كقوله تعالى :

(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) (٥) ٠

وعقيدة الاسلام تتميز بوضوحها وملاءمتها لكل العقول المجردة عن الهوى ، ولا تستطيع عقيدة أخرى ان تنافسه فى هذا ، فالاسلام هو (لا اله الا الله محمد رسول الله) وبهذا الوضوح سيكون هو الظاهر العالى فى كل مكان يحل فيه ٠ ومادام من أسس أهداف الاسلام ان يعلو على كل عقيدة ، وان يظل عاليا فمعنى ذلك أنه لابد أن يدخل فى صراع مع

---

(٤) ٣٣ سورة التوبة ، ٢٨ سورة الفتح ، ٩ سورة الصف ٠

(٥) ١٥ سورة الاسراء ٠

الذين سيعلو عليهم وأن يظل فى هذا الصراع ، لأن كل عقيدة اذا لم تستطع أن تكون هى العالية فلا تريد أن تعلو عليها عقيدة أخرى ·

ومن هذه الزاوية زاوية الحرب نلمح جانبا من جوانب اعجاز القرآن ، وهو جانب شديد الوضوح فى القرآن حين نلقى عليه نظرة تأمل ، ويتمثل هذا الجانب فى أن القرآن فى مجموعه يمثل حربا متكاملة العدة لصالح الاسلام ، حيث يشتمل على أسلحة الهجوم وأسلحة الدفاع ، ويدير حربا عسكرية ، كما يدير أيضا حربا نفسية ، وهذه الجوانب ليست ضمنية ولا عارضة فى القرآن ، بل كل منها رغم تفرق آياته واضح ومحدد ومتكامل فى ذاته ، ويمكن أن يفرد بالبحث المستقل ، ولو أن المتخصصين من علماء المسلمين فى كل المجالات فرغوا جانبا من جهدهم العلمى للبحث فى القرآن من زاوية تخصصهم لاظهروا جوانب من اعجاز القرآن تبهر كل سامع ، ولأثبتوا أن تعبير (اعجاز القرآن) أكبر وأوسع واشمل من حصره فى أى نطاق ، وعلى سبيل المثال مما هو ملحوظ بوضوح فى هذا الجانب وحده ، وهو جانب الصراع مع الأعداء ، نشير الى هذه النقاط :

١ ــ يهاجم القرآن بكل شدة ، وبكل الأساليب كل العقائد الباطلة ، ومحور الصراع الأصلى يدور حول الألوهية ، فشهادة (لا اله الا الله) بالذات هى المحور فى الصراع ، وكل ما يخالفها فهو عدو للاسلام ، وشهادة (محمد رسول الله) تأتى تبعا ، ولكنها ليست فى محور الصراع ، ولذلك فان الاسلام استبعد أهل الكتاب اليهود والنصارى من الصراع ما لم يبدءوا بالعدوان والصراع رغم أنهم ينكرون علانية الاعتراف برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ورغم أن القرآن يسجل عليهم كفرهم بادعاء المسيحيين أن المسيح ابن الله ، وادعاء اليهود أن عزيرا ابن الله وغير ذلك ، ومع هذه العداوة الدينية فان الاسلام لايعدهم

أعداء حرب ، ويأمر المسلمين بأن يقروهم على عقائدهم ،وأن يسالموهم ، بل لا يمنعهم من اقامة المودة معهم فضلا عما دونها من وجوه التعامل ما لم يبدءوا العدوان ، وذلك مراعاة لان اهـل الكتاب أنزل الله اليهم الدين الصحيح وهو وحدانيـة الله ولئن كانوا قد شابوا ذلك بخلل كبير فى صلب العقيدة فـان الله يريد ترك أمرهم لـه ليحاسبهم يوم القيـامة على ما أحدثوه .

أما من سوى أهل الكتاب فهم على الاطلاق أعداء حرب غير أن الحرب في عرف الاسلام كما تكرر ذلك هى حـرب معنوية ، بمعنى أنها من جانب الاسلام لا تتجاوز الدعوة الى الاسلام وأنه الدين الوحيـد المقبول عنـد الله ، لأنه الدين الوحيد الذى ظل محتفظا بصحته بفضل القرآن (ان الدين عند الله الاسلام) (٦) ولا يجوز للمسلمين أن يحولوا هـذه الحرب المعنوية الى حرب عسكرية الا اذا بدأهم العدو بذلك بل لا يجيز القرآن للمسلمين أن يجعلوا فى دعوتهم الدينية وأسلوبهم المعنوى أى نوع من الاكراه والضغط :

(لا اكراه فى الدين) (٧) .

ولكن اذا أصر الاعداء على صد المؤمنين عن سبيل الله أو حالوا بينهم وبين تبليغ دين الله وجب على المسلمين الدفاع عن دينهم ولو بالحرب وبالنظرة الواقعية لابد أن تكون هناك حروب .

الدور الاعلامى والنفسى :

وحينئذ يتجلى الدور الاعلامى والنفسى للقرآن ، ففى ايجاز شديد نشير الى أبرز نقاط هذا الدور :

١ ــ فى مجال الحرب المعنـوية يمـلأ القـرآن نفوس المؤمنين بالقوة والثقة غير المتناهية ليس فى جانب واحد ،

---

(٦) ١٩ سورة آل عمران .
(٧) ٢٥٦ سورة البقرة .

وانما فى جانبين ، هما عنصرا القوة وأساس النصر عادة فى أية حرب ، وأحدهما اليقين بأنهم هم الذين يمثلون الحق ويدافعون عنه ، وأن عدوهم فى غير شك هو الممثل للباطل، والعنصر الآخر هو وعد الله بأن ينصر رسله والمؤمنين مهما طالت معاناتهم ، والمؤمن لا يداخله شك فى صدق وعد الله، وحينئذ يصبح موقنا بأنه لابد أن ينتصر على هذا العدو واذا لم ينتصر فى هذه الحرب فلا شك أنه سينتصر عليه فى حرب أخرى ، واذن فهو موقن بالنصر كما أنه موقن بهزيمة عدوه وما أكثر الآيات التى تؤكد هذا المعنى بأساليب مختلفة فى القرآن ، كقوله تعالى :

(انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا) (٨) •

وكقوله تعالى :

(قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم) (٩) •

ولكن القرآن لا يكتفى بوعد النصر ، ولا يكل المؤمنين أنفسهم ليواجهوا وحدهم قوة عدوهم وقد تكون أكبر بكثير منهم ، وانما يتدخل بوعد آخر يتكرر فى القرآن كثيرا بأساليب مختلفة وهو أن يملأ الله نفوس المؤمنين الصادقين قوة وثباتا فى الحرب ، بينما يلقى فى قلوب أعدائهم الرعب والخوف ، كقوله تعالى :

(اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) (١٠) •

---

(٨) ٥١ سورة غافر •
(٩) ١٤ وما بعدها سورة التوبة •
(١٠) ١٢ سورة الأنفال •

واذا كان المؤمنون يستطيعون بسماعهم القرآن تحقيق الشق الأول وهو امتلاء نفوسهم بالثقة والقوة المعنوية بصورة لا تخالطها ريبة لأنها نابعة من كلام الله ، فان القران يتكفل لهم بالشق الثاني وهو ملء نفوس أعدائهم بالشك فى النصر ، وذلك ان القرآن كان أكبر وأخطر وسيلة اعلام عربية على الاطلاق ، سواء للمؤمنين والكافرين على السواء ، فان المؤمنين كانوا يتلهفون على سماع كل ما ينزل من القرآن، وكذلك الكافرون لم يكن هناك حديث يطغى على حديثهم عن محمد ودينه الجديد وأهم ما فيه عندهم هو هذا القرآن العجيب الذى يتلوه ، واذا كانوا من حرصهم على سماع الكلام الجيد يتناقلون القصيدة من الشعر حتى تجوب أنحاء الجزيرة ، فان القرآن كان بالقياس الى كل كلام سواه كعصا موسى تلقف كلما يحاول أن يتشبه بها ، فلم تكن هناك وسيلة اعلام تنافس القرآن ، ولم تكن هناك أيضا وسيلة تثير فى النفوس من التأثير والانفعال ما يثيره القرآن ، سواء نفوس المؤمنين ، ونفوس أعداء الايمان .

والمشركون لا ينكرون وجود الله كما يسجل القرآن هذا ولكنهم يشركون معه عبادة غيره ، وهذا معنى الشرك ، فحين يقول محمد ان هذا القرآن كلام الله فقد يكذبونه ، ولكنهم لابد أن يبقى فى نفوسهم شك أو احتمال يسير لصدق محمد خصوصا وأن جودة هذا القرآن ستقوى فى نفوسهم هذا الشك ، وأن محمدا قد يكون صادقا ، فحين يسمعون فى هذا القرآن أن محمدا والمؤمنين به لابد أن ينتصروا ، وأنهم هم لابد أن ينهزموا فان هذا الشك الذى سيتركه القرآن فى نفوسهم هو فى الواقع بداية الايمان ، حيث تتزعزع عقيدة الشرك فى نفوسهم من اليقين بصحتها الى الشك فيها ، كما أنه بداية الهزيمة لهم فى حربهم النفسية أو العسكرية حيث تهتز ثقتهم فى قوتهم وصلابة موقفهم نتيجة اهتزاز يقينهم بالنصر ، فهذا الأثر النفسى لابد أن يحدثه القرآن

فى داخل نفوسهم رغم انهم فى الظاهر يعدون من المكذبين بالقرآن ، فان الشك الذى لابد أن يحدثه القرآن فى نفوسهم هو أول مراحل الوضع المضاد وهو الايمان فى العقيدة والهزيمة فى مصارعة الايمان ومنازلة أصحابه ٠

ولا يختلف الوضع كثيرا لو افترضنا أنهم ينكرون وجود الله أصلا ، فيكفى من تأثير القرآن أن ينقلهم من اليقين بصدق عقيدتهم الملحدة الى الشك ، ثم لابد أن تتوالى مراحل الشك حتى يصلوا الى الايمان ما لم يئدوا الشك أو يقطعوا عليه الطريق فى مرحلة من مراحله نتيجة تسلط هوى او مصلحة معينة على نفوسهم ، أما حين تكون النفس مجردة عن الهوى والعوائق فان كل الشواهد وفى مقدمتها وضوح الحق وملاءمة العقل لما يقوله القرآن بالقياس الى شركهم أو الحادهم كل ذلك سيتدرج بهم فى مراحل الشك حتى يصل بهم الى اليقين النير وهو الايمان ٠

وفيما يتعلق بموقفهم من الصراع والحرب ضد القرآن وأتباعه ، فانهم مادامو قد سمعوا القرآن فسيكونون فى أثناء الصراع فى مرحلة من مراحل الشك المشار اليه ، ولن يكون فى نفوسهم حينئذ يقين بصدق موقفهم فى الشرك ، ولا يقين بأملهم فى النصر على القرآن وأتباعه ، بينما عدوهم وهم المؤمنون نفوسهم مفعمة باليقين بصدق موقفهم فى الايمان وبأملهم فى النصر الذى يعدهم به القرآن ٠

واذا كان هذا بعض ما يحدثه القرآن من تأثير نفسى ، سواء لدى المؤمنين والكافرين ، فانه أيضا لا يحتاج الى من يوظفون ويخصصون ليكونوا وسائل اعلام تنقل مصدر هذا التأثير وهو القرآن وتنشره كما تفعل الصحافة اليوم ، وتذيعه كما تفعل الاذاعة ، وانما يتكفل القرآن نفسه بأن يؤدى كل أدوار وسائل الاعلام مجتمعة فى أكمل صورة مرجوة أو متخيلة ، وليس هذا عن هوى للقرآن أو تعصب له وانما هى الحقيقة التى تبهر كل دارس بشرط أن يكون

متأملا وأن يكون منصفا ، وليس نجـاح القـرآن فى دوره الاعلامى قاصرا على المجتمع العربى بحكم ولعه بجيد الكلام وانفعاله به ، بل هو دور حيوى عام ملازم للقران لداته ، والدليل على ذلك انه مازال وسيظل هو الرابطه بين المسلمين فى كل بقاع الارض ، على اختلاف لغاتهم وبيئاتهم ، وتباعد أوطانهم ، وهو الوحيد الذى تلتف قلوبهم حوله دون تنازع أو اختلاف ، واذا أردنا أن نتصور تأثيره الأكبر فعلينـا ان نتمثل هذا التأثير فى بدء أمره ، أى حينما يكون تناقله او انتشاره جديدا لأول مرة ، فان الذى يتفهمه سواء بنفس مقبلة عليه أو بنفس مدبرة عنه فلابد أن يجد فيـه التأثير النفسى العميق ، سواء أيضا تأثر الانجذاب والميـل أو تأثر النفور والرفض ، فان النفور والرفض انما يكون للشعور بأن هذا القرآن يصطدم بميول أو أهداف لدى هذا الرافض، واذن ففي كل حال لن يكـون الشعور عنـد سـماع القرآن وتفهمه لأول مرة شعور استخفاف أو شعورا سلبيا يتمثل فى أنه لا يحوى شيئا جديد أو مثيرا ، بل على العكس سيجد فيه طرفا الميل والرفض كل جدة واثارة ٠

وليس هذا معنى تاريخيا يقال عنه انه كان فى الماضى ، أو كان فى بيئة أو مجتمع معين ، بل لازال هذا التأثير وسيظل ملازما للقـرآن ، لـكل من يتفهمـه عن تأمل ، وآية ذلك ما توافينا به الأنباء كل حين عن الذين يعتنقون الاسـلام بسبب القرآن ، وعن الذين يهاجمون الاسلام أيضا بسببه ، ومع أننى لست من المولعين بموازنة القرآن بأى مسـتحدث من مستجدات الحياة ، ولا بتلمس شبيه فى القـرآن لـكل مجال من مجالات العلوم أو الأنشـطة البشرية لأن القرآن فضلا عن كونه ذا هدف محدد فانه أكبر وأبقى وأثبت من أن يوازن بأى عمل بشرى الا أن ابراز جوانب الاعلام فى القرآن ليست تكلفا ولا تزيدا ، وانما هى من طبيعة القرآن ذاته ،

فالقرآن ليس الا دعوة الى الله ، والدعوة ليست الا اعلاما ، فمن صلب الحديث عن القرآن ابراز جوانب الاعلام فيه ·

واذن فالقرآن فى أحد جوانبه هو وسيلة الاعلام للاسلام ، هذا بالاضافة الى جوانبه الأخرى العديدة المتنوعة ·

على أن وصف القرآن بأنه وسيلة اعلام لا يعنى أنه يمثل أو يماثل لونا واحدا من ألوان الاعلام ، بل الواقع أنه يتضمن كل وسائل الاعلام المختلفة ، وقد يبدو هذا الاطلاق فى التعبير تجوزا أو تحيزا غير دقيق ، ولكننا لو درسنا القرآن عن طريق العلماء المتخصصين كل فى مادة تخصصه كما سبقت الاشارة ، ووجدنا العلماء المخلصين ذوى الثقافة الدينية الكافية لكان الأمر مختلفا ، ومن ذلك جانب الاعلام، الذى لا نتحدث عنه الآن حديث علم أو تخصص ، وانما حديث استنباط من واقع القرآن ، فمن هذه الزاوية نستطيع فى ايجاز شديد أن نلمح بوضوح وضع القرآن من كل وسائل الاعلام ، سواء المكتوب ، والمسموع ، والمرئى ، كما يلى :

الاعلام المكتوب :

وأبرز وسائل الاعلام المكتوب المعروفة تنحصر فى ثلاثة أنواع ، هى الكتب ، والصحافة ، والمنشورات ، وفيما يتعلق بوضع القرآن من كل منها نجد :

الكتاب :

١ ـ بالقياس الى مفهوم الكتب فى وسائل الاعلام ، فمن الواضح أن القرآن فى مجموعه كتاب متكامل ، وتتحقق فيه قمة ما ينتظر من أى كتاب فى أى جانب وذلك :

(أ) من حيث التوثيق التاريخى واثبات نسبته الى مصدره فلا شك اطلاقا فى أنه النص الذى أملاه النبى صلى الله عليه وسلم بصفته وحيا أوحاه الله اليه ، ودون هذا النص

أمامه متفرقا فى صحائف بحسب نزول الوحى ، ولكنــه فى التلاوة جمعه النبى فى ســور ، بحيث أصــبحت كل ســورة معروفة ومحددة بترتيب آياتها فى حياته، وحين جمعه أصحاب النبى فى كتاب واحد بعد وفاته صلى الله عليــه وســلم لم يحدثوا فى الترتيب شيئا ، وانما جمعوا الصحائف المتفرقة لتكون آياتها مرتبة حسب ترتيب التلاوة التى أقرها النبى، ومع أن أصحاب النبى كانوا فى مجموعهم يحفظون القرآن حفظا جيدا وكاملا ويستطيعون أن يملوه شــفاها ، الا أنهم التزموا النقل من الصحائف التى أملاها النبى نفسه كلمــة كلمة ، حتى جمع القرآن كله فى مصحف واحد ، على مشهد وعلم من جميع أصحاب النبى الذين يحفظونه حفظا جيــدا وكاملا من النبى شفاها ومباشرة ، ولم يحدث اختــلاف بين حفظهم وبين المصحف الذى نقلوه من الصحائف ٠

ثم كانت كل المصاحف بعد ذلك منقولة من هذا المصحف على مشهد وعلم من المسلمين والعلماء الذين يحفظون القرآن ويعونه وعيا كاملا ، ويســتطيع الآلاف منهم أن يتبينوا أى خطأ يحدث فى النقل ٠

وهذا التوثيق التاريخى والعلمى لا يتــوافر لأى كتاب قديم على الاطلاق ٠

(ب) من حيث الموضوع والشــكل المنهجى لا شــك أن القرآن على ضخامته ينحصر فى موضوع واحد ، هو الدعوة الى عقيدة معينة ، هى عقيدة الاسلام ، ولكنه فى اســتيعاب جوانب الموضوع وفروعه وعناصره ، تتفرع من موضــوعه عدة فروع لتتكامل بها شريعة العقيدة التى يدعــو اليهــا ، ومن ذلك :

(أ) فرع العقيدة التى ينصب عــلى تحــديد العقيدة الصحيحة ، وهو وحدانية الله الذى لا اله الا هو ، ولا شريك له اطلاقا فى شىء من الألوهية ، وكل ما فى القرآن من هذا الباب لا يخرج عن هذا الإطار ، ولا يتناقض مع شىء منه ،

وانما هو على تعدده وتكراره توضيح وشرح وترغيب بأساليب مختلفة ، يتضح من اختلافها مراعاة اختلاف طبيعة الناس واختلاف أمزجتهم ونزعاتهم ، فضلا عن اختلاف مستوياتهم العقلية ، فبعض الناس من نضج الادراك العقلى بحيث يكفى أن يوجه الى التفكير فى الموازنة بين الله وغيره من الآلهة ليدرك العقيدة الصحيحة ، وبعضهم يحتاج الى اطالة فى الشرح والبسط والأدلة ليصل الى هذه الحقيقة ، وبعضهم عقليته كقالب جامد مصبوب من الواقع الاجتماعى الذى نشأ وتربى فيه ، ولا يكاد يدرك قوة مسيطرة سوى قوة السادة وأصحاب السلطة ، فيصل أسلوب القرآن من تنزله الى مثل هؤلاء أن يوازن لهم بين صفات الله وصفات السادة الذين يدينون لهم ولا يدينون لغيرهم بالطاعة ، فاذا كانت تبهرهم قوة السادة الذين يعلو بأسهم فوق بأس السادة الآخرين ، فان بأس الله لا يوجد بأس آخر يقاومه أو يرده :

(ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) (١١) .

وفى مقابل هذا اذا أراد الله ايصال خير الى أحد فلا توجد قوة تستطيع أن تقطع الطريق على هذا الخير كما يرون فى واقعهم الذى يرون الناس يتخطفون فيه من حولهم ولكن الله لا يستطيع رد فضله أحد :

(وان يردك بخير فلا راد لفضله) (١٢) .

واذا كانت تبهرهم قوة الأقوياء الذين يملكون أن يجيروا الضعفاء فيحمونهم من قوة الآخرين ، فان الله يتميز بأنه يملك أن يجير من يشاء فيحميه بينما لا يستطيع أحد مهما بلغ من القوة أن يجير أحدا أى أن يحمى أحدا منه :

(وهو يجير ولا يجار عليه) (١٣) .

---

(١١) ١٤٧ سورة الأنعام .

(١٢) ١٠٧ سورة يونس .

(١٣) ٨٨ سورة المؤمنون .

وذلك اشارة الى عادة الجوار المعروفة عند العرب ، واذا كانت تثير مشاعرهم وعواطفهم عادة الاطعام التى تفرضها على السادة مظاهر السيادة فان الله يتميز عن كل المطعمين بأنه هو الذى يبذل بره واطعامه دون أن يحتاج من أحد مقابل ذلك شيئا :

(وهو يطعم ولا يطعم) (١٤) ٠

اشارة أيضا الى عادة من عاداتهم ٠

وهكذا فان تعدد الآيات والمعانى فى موضوع معين فى القرآن ليس فى حقيقته تكرارا أو تعددا ، وانما هو تنويع فى الأسلوب ، واضافات الى المعانى لتلائم كل نوعيات العقول والمدارك ، وتلائم أيضا طبيعة النفوس فى مشاعرها وتكوينها ، كما يحدث فى استجابة بعض النفوس لداعى الخير والترغيب ، بينما بعضها لا يستجيب الا تحت الخوف والوعيد ، فالقرآن فى تنوع أساليبه يأتى لكل النفوس من الأبواب التى تلائمها ، حتى يستنفد كل الحجج ، ويغلق كل الأعذار التى يمكن أن يعتذر بها ظالمو أنفسهم يوم القيامة ومثل هذا الجانب فى القرآن يمكن أن يوصف فى عرف الكتب بأنه (باب العقيدة) ٠

غير أنه من الواضح فى القرآن أن أبوابه أو فروع موضوعه غير مجتمعة فى مكان واحد ، بل هى متفرقة فى أثناء القرآن ، وهذا التفرق جاء من أمرين كانا من أساس نجاح القرآن فى بلوغه ما بلغ من الدعوة والاعلام وهما :

١ ــ أن القرآن لم ينزل جملة واحدة ، وانما نزل متفرقا حسب حاجة الناس وحسب مقتضيات الأحداث فى خلال ثلاث وعشرين سنة هى مدة بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبالتالى كانت كل فروع موضوعة متفرقة خلال ذلك ٠

---

(١٤) ١٤ سورة الأنعام ٠

٢ ـ هذا التفرق ميزة فى الدعوة والاعلام ، فان السامع للقرآن قد يستمع الى بضع آيات من القرآن لا يستغرق سماعها لحظات فيجد فيها كل معالم الاسلام مجتمعة بحيث يشعر كأنه سمع قرآنا كاملا ، ولا يحتاج الى السؤال عن مزيد الا لتفصيل ما سمع ، ومثال ذلك :

(والعصر ، ان الانسان لفى خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) •

ففى هذه الآيات ذات الكلمات المعدودة كل معالم الاسلام ، فيها تأكيد التحذير والوعيد من الضلال ، وفيها أسس الدين الكامل ، الايمان والعمل الصالح ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلا يحتاج ذو العقل فوقها الى مزيد الا أن يسأل عن تفصيل شىء منها فيجده فى مكان آخر من القرآن •

بينما لو كان القرآن أبوابا محددة كالمألوف فى الكتب لاحتاج السامع الى التفرغ لسماع باب كامل طويل فى فرع واحد ليدرك ما يريد ، فاذا احتاج الى فرع آخر فعليه أن يتفرغ لسماع باب كامل آخر وهكذا •

(ب) فرع العمل بما يشتمل عليه من متطلبات العمل الدينى من حقوق الله كالعبادات أو العمل الدنيوى من حقوق الناس كحق المجتمع (١٥) أو ذوى الأرحام وغيرهم وحق النفس كعدم القسوة عليها أو عدم حرمانها ، فان النفس مخلوقة لله وهى ملك لله وليست ملكا لصاحبها ، ولها حقوق تزيد عن حقوق الغير بمقدار قربها قياسا على حقوق ذوى الأرحام فى زيادة حقوقهم عن غيرهم ، ومن هذا القبيل الحديث الشريف (لبدنك عليك حقا) ولذلك كان قتل النفس

---

(١٥) انظر كتاب جوهر الاسلام للمؤلف طبع الهيئة العامة للكتاب •

أشد جرما من قتل الغير على عظم جرمه كزيادة جرم قتل أحد الوالدين على الجرم فى قتل غيره لما له من قرابة ٠

وهذا الفرع يشتمل على جوانب وفروع لا داعى للخوض فى حديثها ، فان الهدف ليس التفصيل وانما الاشارة الى أهم الأسس والاتجاهات التى يدور حولها الحديث وعلى سبيل المثال فان العلاقات الانسانية لها جانب واضح، وكذلك العقوبات وهكذا ، وكل منها يمكن أن يوصف بأنه باب فى كتاب الله ٠ واذن فالقرآن فى جانبه الاعلامى تتوافر فيه كل مواصفات الكتاب كاملة ٠

وأما من حيث التأثير النفسى فان القرآن يتمتع بمزايا تجعل له تأثيرا لا يدانيه تأثير آخر ، ليس للسبب الأعظم وحده وهو كونه كلام الله ، بل لذاته ولطبيعة صياغته ، من حيث الايجاز والتركيز ، ومن حيث التنوع والتشويق ، ومن حيث تجسيد المعانى والمشاهد ، وغير ذلك مما تحاول البحوث المتعلقة باعجاز القرآن أن تبرزه ٠

٢ ـ الصحافة :

والدور الأصلى الذى تؤديه الصحافة هو اعلام الناس بالأخبار فى مختلف الشئون السياسية والاجتماعية والعسكرية وغير ذلك ، ثم من تتمة فائدتها اشتمالها على أبواب ومقالات أدبية أو علمية أو نحو ذلك، على أساس أنها فى حكم ما تنقله الصحيفة من أخبار ومن مستجدات ٠

والقرآن حين نزل مصحوبا ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ومتضمنا عقيدة جديدة ، وشريعة محددة لم يسمعوا بمثلها من قبل ، وكل هذا كان أكبر حدث تحمله الأرض حينئذ ، وكان الناس فى شوق ، بل فى لهفة لسماع كل ما يتعلق بهذا الحدث الجديد من قريب أو بعيد ، لا حبا له ، وانما تلهفا على معرفة كل ما هو جديد ، خصوصا اذا كان هذا الجديد يمس صلب حياتهم الدينية والاجتماعية ، فكان

القرآن هو الذى تكفل بهذه المهمة لتنتقل كل آية أو آيات منه يتلقفها الناس ويتناقلونها ، وليس فى مجالسهم أو أسمارهم حديث أهم من حديثها ، ولم يكن لسان يجرؤ على الثناء عليه علانية حينئذ ، لأن فى هذا مساسا بتقاليدهم وزعاماتهم بل وبآلهتهم أساسا ، وهى التى يرتبط بها كيانهم الاجتماعى ، حيث كان من المعروف أن لكل قبيلة الها صنما يميزها عن غيرها من القبائل فى العبادة والانتماء ، فيصبح الصنم رمزا للكيان الاجتماعى قبل ان يكون عقيدة روحيه ، ومعنى ذلك أن للأصنام عندهم أهمية أبعد وأوسع من الدين، والثناء على القرآن أو اظهار الميل اليه معناه ضمنا الطعن فى الأصنام والاتجاه الى الانسلاخ من الانتماء اليها ، وفى هذا اصطدام بأهم مقومات الكيان للمجتمع المحيط بهذا الشخص.

ولكن مع هذا التحرج من الثناء على القرآن ، بل حتى مع السخط عليه فان مضمونه لن يفارق النفس بسهولة ، وليس الاسترسال فى هذا المعنى هدفا للحديث، وانما الهدف أن القرآن كان يؤدى حينما نزل دورا من حيث الاعلام اهم مما تؤديه أية صحافة ، ولازال بالقياس الى الذين يبلغهم لأول مرة وتكون نفوسهم مجردة من التشبث بعقيدة أخرى يؤدى أيضا هذا الدور مهما تفاوتت درجات التقبل أو التلهف لسماعه حسب الاستعداد النفسى أو اللغوى ، ولذلك فان ترجمات القرآن تنتشر فى العالم انتشارا كبيرا لرغبة كثيرين فى كل أنحاء العالم فى معرفة شىء عن هذا القرآن ومضمونه .

على أن القرآن فى محتواه يتضمن من التنويع والتشويق أكثر وأعمق مما تتضمنه أية صحيفة ، فهو حافل بأخبار كثير جدا من الأمم السابقة وحياتهم وعقائدهم وما آل اليه حالهم بعد مواقفهم مع أنبيائهم ، وحافل بقصص كثيرة متنوعة ومشوقة ، وبعضها يصل الى حد من الطول لو صيغ بأسلوب الاسهاب والوقوف عند كل ملحوظة أو خاطرة نفسية

لتحليلها وبسطها لاستغرقت القصة وحدها مجلدا ضخما أو عدة أجزاء ،كقصة يوسف ، هذا فضلا عما يشتمل عليه القرآن من مواقف لا تكاد تحصى من مشاهد النعيم ، ومشاهد العقاب ، ومشاهدالانذار والوعيد وغير ذلك ٠

٣ ـ المنشورات المكتوبة :

ومن وسائل الاعلام المعروفة المنشورات ، سواء أكانت فى كتيبات صغيرة أم فى ورقة صغيرة ، أم نحو ذلك ، وسواء أكان الهدف منها اعلانا عن شىء جديد ، أم اخبارا بخبر يهم صاحب المنشور نشره أم دعوة الى أمر يهم صاحب المنشور تحقيقه ، ففى كل ذلك يحاول صاحب المنشور أن يبلغ مضمون منشوره الى اوسع نطاق يمكن أن يفيده ٠

والقرآن حين نزل لم ينزل كتابا كاملا ، ولا أجزاء كبيرة ، وانما نزل فى صورة أجزاء صغيرة تتكون غالبا من بضع آيات تتراوح بين ما يعادل سطرا واحدا كسورتى الكوثر والصمد وبضعة أسطر مثل كثير مما نزل من القرآن بهذا الحجم الصغير الكم ، ليسهل على السامع استيعابهوتأمله وحفظه ، ويسهل فى الوقت نفسه تناقله بين الناس ٠

ومن هنا كان وجه الشبه الاعلامى بين هذه الأجزاء القصيرة من القرآن وبين المنشورات فان هذه الأجزاء القصيرة من القرآن كان العرب لاعتمادهم على ذواكرهم وقوة حفظهم نتيجة لأميتهم يعونها مهما تزايد حجمها ويحفظونها حفظا جيدا ثم يتناولونها لطرافتها بالقياس اليهم وجدة موضوعها وخطورة دعوتها ، وكان ناقلها يشعر بأهميته فى كل مجتمع ينقلها اليه حيث يسارع اليه الناس متلهفين على سماع هذا الكلام منه ، فيتيه عليهم عجبا بأنه يحمل اليهم أنباء هذا النبى الجديد ، بل والكلام الذى يزعم انه أوحى به اليه من السماء ، ويستطيع أن ينال أقصى حظوة لديهم اذا أصحب هذا القرآن بشىء من السخط عليه وعلى نبيه الذى يمثل

خطرا على آلهتهم وعلى كيانهم الاجتماعى ، عندئذ ينال عندهم حظوة أنه غيور على آلهتهم وعلى كيانهم ، وهذه الميزة لا تتوافر فى أى نوع من المنشورات الاعلامية البشرية ، فان حامل أى منشور لا يستطيع أن يبرىء نفسه من أنه أجير لصاحب المنشور اذا كان المنشور اعلانا أو شريك أو عضو من أعضاء الدعوة اذا كان المنشور يتضمن دعوة الى أمر وهكذا ، أما القرآن فان مبلغه غير متهم بمنفعة مادية من وراء تبليغه ، ثم انه يستطيع أن يصطنع العداوة والسخط على ما يحمله من القرآن صادقا فى سخطه ، أو متقيا به المكروه ، ولكنه فى كل حال يؤدى فى تبليغه مهمته وهدفه كاملين •

ومن أمثلة الأجزاء القصيرة التى لا تتجاوز ما يعادل سطرا واحدا فى القرآن ، والتى لا يكاد اعلان أو منشور أن ينافسها فى القصر ، على البون البالغ البعد بينها وبين أى مكتوب آخر :

(قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد) (١٦) •

فهذه السورة ذات الكلمات المعدودة توصف بأنها تساوى القرآن كله ، لأن هدف القرآن كله ، بل هدف الأديان السماوية كلها الدعوة الى وحدانية الله فى ألوهيته ، وهذه الكلمات القصيرة تبرز هذا الهدف كاملا •

فأى منشور أو اعلان يستطيع أن يوجز كتابا كاملا يشبه حجم القرآن ليصوغه فى كلمات قليلة مثل سورة الاخلاص هذه فيؤدى بهذا الايجاز كل ما يهدف اليه الكتاب الكامل ؟ وأى فن فى الاعلان أو النشر يستطيع أن يستخلص لب أية دعوة أو موضوع ليصوغه فى كلمات قصيرة ، ولكنها فى انتشارها ودويها تزلزل العقول ، وتستحوذ على الأفئدة ؟

---

(١٦) سورة الاخلاص وأحد يعنى هو الاله الواحد ، والصمد يعنى هو مقصد كل محتاج . والكفو هو المماثل يعنى لا يماثله ولا يشابهه أحد •

الاعلام المسموع :

ومن وسائل الاعلام المتعددة الاعلام المسموع ، وأشهره نوعان ، البث الاذاعى المباشر ، والبث المسجل فى شرائط ٠

١ ـ فأما البث الاذاعى المباشر فانه يعتمد على توجيه مواد معينة يراد نشرها واذاعتها على نطاق واسع ، وبطبيعة الحال فان جهة معينة هى التى تتحكم فيما يوجه ، وفى طريقة توجيهه ، أى فى الموضوع ، وفى أسلوب صياغته ومنهجه ، ومنذ اخترع جهاز الاذاعة وهو يؤدى دورا من أهم أدوار وسائل الاعلام ، بل لعله أهمها على الاطلاق ، ولم تقلل كثيرا من أهميته مزاحمة وسائل الاعلام الأخرى على بريقها وتشويقها كوسائل الاعلام المرئى :

والقرآن لذاته ، وبصرف النظر عن بثه فى وسائل اعلام ، هو وسيلة اعلام مسموع ، بالاضافة الى كونه وسيله اعلام مكتوب ، فانه نزل فى مجتمع أمى لا يقرأ ولا يكتب منه الا أفراد معدودون فى كل منطقة أو مدينة لا يكادون يمثلون أية نسبة ذات قيمة فى المجتمع ، ومع ذلك فالمجتمع كله سمع القرآن وتناقله لا عن طريق الكتابة ، وانما عن طريق السماع ، ولم تكن مهمة المصاحف أو الصحف المكتوبة تتجاوز أن تكون مرجعا اذا اختلفوا فى لفظ أو ترتيب آية أو سورة ٠

وكون القرآن اعلاما مسموعا ليس أمرا تاريخيا فى الماضى فحسب ، وانما هو اعلام مسموع لذاته فى كل عصر ، وكل مجتمع ، مهما تفاوتت أو اختلفت الظروف والملابسات من حوله ، ومهما انتشر التعليم ، مما يترتب عليه انتشار القرآن عن طريق الكتابة والقراءة فان ذلك لا يقلل كثيرا من أهمية انتقال القرآن وانتشاره عن طريق السماع ، سواء بالتلقين فى الحفظ ، أو ببثه فى وسيلة اذاعة ، أو بسماعه من التالين المرتلين ٠

وهـذا من حيث الوسيلة نفسـها ، أما اذا انتقلنا الى الموازنة الموضوعية بينه وبين غيره مما يذاع بأية وسـيلة فان القرآن يتمتع بمزايا لا تتوافر فى وسيلة أخرى ، منهـا الثقة فى المصدر ، فليس هناك مصـدر يدانى ان يقال ان مصدره هو الله ، وأن مبلغه هو رسول الله ، وحتى بالقياس الى الذين لا يؤمنون به ، فان هذه الصفة أو هذا الادعاء يضفى عليه أهمية فى الاستماع اليـه لا يحققها الانتسـاب الى اى مصدر آخر ، بل كلما اشتدت عداوة المعادى او المنـكر له كان اهتمامه واصغاؤه فى الاستماع اشد ، فأنت اذا استمعت الى عـدو بالغ العـداوة فانك تصغى اليـه بكل جـوارحك لا حبا فى كلامه ، وانما استيعابا لما يقول ، حيث انك تتوقع أن ما يقوله لابد أن يعنيك وأن يتوجه شىء منه ضدك ، فقد يكون استماع الأعداء حينئذ أشد اصغاء من استماع المسلمين العاديين فى اسلامهم ، ومن المزايا التى تتـوافر فى القرآن بصورة لا تتوافر فى غيره الصدق ، ويكفى القرآن من ذلك أن اعداءه رغم حرصهم الشديد على أن يتلمسوا له أى مطعن مهما صغر لم يستطيعوا أن يكذبوه قط فى شىء مما قاله ، مع أن كثيرا مما قاله يتعلق بحياتهم وتاريخهم ، ومن مزايا القرآن التى تساعد عـلى سرعة ذيوعه وانتشـاره الاعلامى تنوع موضوعه وأسلوبه ، فما أكثر تنقـل آيات القرآن بين أساليب متعددة الموضوع والصياغة معا ، فمن تنوع الموضوع التنقـل بين معـان عـدة من الـوعد والوعيـد والقصص والمحاورات والمشاهد الطريفة فى جدتها وغرابتها سواء فى الدنيا وفى الآخرة وغير ذلك ، ومن تنوع الصياغة التنقـل بين أساليب الحقيقة والمجاز والتهكم وكثير مما تفيض فيـه الكتب والبحوث التى تدور فى محيط أساليب القرآن ونواحى اعجازه (١٧) ٠

---

(١٧) انظر على سبيل المثال اسلوب السخرية فى القرآن واسلوب المحاورة فى القرآن واسلوب القرآن فى كشف النفاق والتصوير الساخر فى القرآن للمؤلف طبع الهيئة العامة للكتاب ٠

٢ ـ وأما البث المسجل فى شرائط فهو نوع من الاعلام المسموع ، وهو يماثل فى الاعلام المكتوب المنشورات الصغيرة الحجم ، أو القليلة الكلام نسبيا ، فان الشريط المسجل يقصد منه اذاعة مضمون معين ومحدد ، وهذا المضمون هو المسجل فى الشريط أيا كان نوعه ، وهو فيما عدا شرائط الترفيه والتسلية كشرائط الأغانى ، فيما عداها فان أغلب الشرائط انما تكون لتسجيل حديث أو موضوع هادف ، وأغلب من يحرصون على ذلك هم أصحاب الدعوات والمبادىء الخاصة ، سواء أكانت دينية أو سياسية حزبية ، ولكن الذى يعنينا من ذلك هو أن مضمون هذه الشرائط محدد بكلام معين هو مضمون الموضوع المسجل .

وحيث كان هذا النوع من الاعلام المسموع يماثل المنشورات المكتوبة ذات الموضوع المحدد الموجز فقد سبق القول بأن الأجزاء القصيرة والسور القصيرة من القرآن تؤدى من حيث الاعلام الدور الذى تؤديه المنشورات المكتوبة، وكذلك الدور الذى يؤديه البث الاذاعى المسجل فى شرائط مع الفارق الجوهرى فى الموضوع وفى أسلوب العرض ، وفى التأثير ، ولا يختلف الوضع من حيث التأثير بين أن تكون وسيلة نقل هذا النوع الاعلامى هى آلة اذاعة وأن تكون الوسيلة هى شخص ينقل الموضوع ويتلوه على من يسمعه ، فالنتيجة واحدة ، وهى نقل الموضوع عن طريق السماع ، والأثر النفسى والاعلامى أيضا واحد كما هو واضح .

الاعلام المرئى :

قد يبدو أيضا من التكلف الشديد الحديث عن القرآن فى مجال الاعلام المرئى (التلفزيون ـ الفيديو ـ السينما المسرح ـ الكاريكاتير) من حيث التباعد الشديد فى الظاهر بين طبيعة هذه الوسائل الاعلامية فى أسلوب عرضها ، وطبيعة القرآن فى أسلوب عرضه ، ولكننا حين نلقى نظرة متأملة نجد أن الأمر بالعكس ، وذلك أن أهم ما يميز وسائل الاعلام

المرئى هو نقل الموضوع من اللفظ المسموع أو المكتـوب الى الصورة المرئية ، سواء أكان ذلك فى نقل الخبر ، كمـا فى الأخبار المصورة أم كان فى القصص ، كما فى معروضـات (السينما أو التلفزيون أو المسرح) حيث تصاغ القصة فى (فيلم أو تمثيلية أو مسرحية) ، وقد كانت هذه الصور فى مرحلة ما فى السـينما تؤدى صـامتة أى فى صـور غـير مصحوبة بكلام مما يعنى أن الهدف الأصلى هو نقل القصة من الألفاظ الى الصور ، ثم مصاحبة الألفاظ لها بعد ذلك ليست الا لزيادة التوضيح ، وكذلك أيضـا نقل أى موضـوع مهما كانت طبيعته ثقافية أو وعظية أو غير ذلك ، حيث ينقل من نصه اللفظى فى طبيعته الأصلية الى صور مجسدة لتعرض فى وسيلة اعلام مرئى ٠

واذا تأملنا أسلوب القرآن من هذه الزاوية نجد عجبا ، حيث نجد أنه مما يشيع فى القرآن بكثرة واضحة أنه يعمـد الى نقل المعانى المجردة الى صـور مجسـدة ، بحيث يتمثلهـا القارىء أو السامع للقرآن وكأنها مشهد مرئى أمامه ، غاية الأمر أنها ماثلة فى خيال بصيرته المعنوية ، وليس أمام بصره الحسى ، وهذا لا يقلل من وضوح الصورة أو تأثيرها النفسى ، بل العكس هو الصحيح ، فان تأثير الخيال أكبر بكثير من تأثير الحواس ، والحواس انما ينبع تأثيرها الأكبر من خلال الخيال، فأنت مثلا حين ترى منظر شخص بائس أو مظلوم يحتاج الى عون ، فليست رؤية عينيك هى التى تدفعك الى عونه ، وانما ارتسام صورته فى مخيلتك ، وتأثيرها فى مشاعرك هو الذى يدفعك الى ذلك ، وما لم يحـدث وضـوح الصـورة وتأثيرها الوجدانى فلن يكون لها أثر ، بدليـل أنه ليس كل من يرى المنظر البصرى يتأثر به ، ويصدق هذا على كل المرئيات ، ولو كان البصر الحسى وحده هو الذى يدرك الصور لما كان للعمى أن يعبروا أو يدركوا تصور شىء عن المرئيات ، بينما نجـد فى واقع الأمر أن بعض العمى قد يكونون أكثر وأدق ادراكا

للصور المرئية والتعبير عنها من المبصرين ، وما ذلك الا لأنهم من خلال ما سمعوه يرسمون فى خيالهم صورة لهذه المرئيــات ثم ينقلونها الى غيرهم فى ألفاظ ، فكثيرا ما تبلغ من دقتهــا وجمالها مبلغا لا يستطيع أن يبلغه المبصرون ، وعلى ســبيل المثال فلازال البلغاء يتعجبون من مقدرة بشار بن برد الكفيف على تصوير كثافة غبار الحــرب فوق رءوس المتقاتلين حتى كأنه ظلام ليل ، والسيوف تلمع فى خلاله كأنها نجوم تتهاوى وسط الظلام حيث يقول :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا

وأسيافنا ليــل تهــاوى كواكبــه

فمن الواضح أن بشارا وهو أعمى قد تمثل هذه الصورة فى خياله ثم نقلها فى ألفاظ ، وعلى سبيل المثال أيضــا فان طه حسين وهو أعمى كان فى أدبه النثرى أجود وأدق فى وصف المرئيات وتصويرها من الأدباء المبصرين •

ومن هنا نصل الى أنه لا فرق فى النتيجة بين التصــوير الحسى الذى تؤديه وســائل الاعلام المرئى ، وبين التصــوير المعنوى أو الخيالى الذى ترسمه الألفاظ ، فالمهم النتيجة ، وهى أن تصل هذه الصورة سواء من خلال تجسيد حسى كما تفعــل وسائل الاعلام ومن خلال تصوير بالألفاظ كما فى القــرآن الى خيال السامع بصورة واضحة ومحددة •

أما كيف أن القرآن يرسم صورا مجسدة بالألفاظ فهــذا هو العجب الرائع الذى يبهر كل ذى ذوق بيانى أدبى ،وهــو جانب من جوانب اعجاز القرآن •

وذلك أن المتــأمل فى أســلوب القــرآن يلحظ أنه عادة ما يورد المعنى الواحد فى عدة أساليب مختلفــة ، لتلائم كل مستويات الادراك ، وكل ميول النفوس ، فالدعوة الى العقيدة الصحيحة مثلا يوردها فى ألفاظ مجردة مثل لا اله الا الله ، لأن العقول السليمة يكفيها ان تتأمل هذا المعنى فتستجيب له دون

حاجة الى وعيد أو اغراء او اتعاظ بقصص قوم سابقين أو اثارة خيال وصور سواء فى الدنيا أو الآخرة عن الذين استجابوا لهذه الدعوة أو الذين لم يستجيبوا لها ، ولكن بعض العقول أو النفوس غير السليمة ، أو الناقصة السلامة لا يكفيها المعنى المجرد ، فتحتاج الى وسيلة أخرى لتوصيل هذا المعنى الى أعماقها ، على اختلافهم فى الوسيلة التى توصله •

فكان من أبرز هذه الوسائل وأبدعها تجسيد هذه المعانى المجردة فى صورة محددة ، وهذا مجال بالغ السعة والتنوع فى القرآن ، بحيث لا يستوعبه كتاب واحد أو كتب محددة (١٨) فضلا عن حديث عارض كهذا الحديث ، وانما نكتفى بأمثلة قليلة لمجرد اثبات وجود هذا المعنى فى القرآن وتنوعه •

فمن هذه الأمثلة النهى عن صفة الكبرياء والخيلاء والتنفير منها ، فان القرآن كثيرا ما يصوغه فى ألفاظ مجردة نحو :

(ان الله لا يحب كل مختال فخور) (١٩) •

ولكنه فى أسلوب آخر يصوغ ذلك فى قصة عن شخص أو طائفة من المتكبرين وكيف كانت نهايتهم ، وفى أسلوب آخر يجسد هذا المعنى فى صورة كأنها حسية مرئية أمام السامع، كقوله تعالى :

(ولا تصعر خدك للناس) (٢٠) •

فان من أبرز معانى الصعر (بفتح الصاد مشددة وفتح العين) عند العرب أنه مرض يصيب الابل فى أعناقها فيلويها، فيمشى الجمل بصدره الى أمام وعنقه معوج مائل الى جهة أخرى

---

(١٨) انظر على سبيل المثال كتاب التصوير الساخر فى القرآن للمؤلف طبع الهيئة العامة للكتاب •

(١٩) ١٨ سورة لقمان •

(٢٠) ١٨ سورة لقمان •

بسبب هذا المرض ، وهو مرض معروف عندهم يعرفه حتى أصغر راع للابل ، فالقرآن يأخذ هذا المظهر ويرسم منه صورة للانسان المتكبر المغرور بخيلائه ، الذى يمشى بين الناس مزهوا بنفسه ، شامخا بأنفه ، مشيحا عنهم بوجهه ، فالقرآن يسلخه من كل هذا ويرسمه فى خيال السامع فى صورة جمل مريض بمرض الصعر ، والهدف من هذا واضح ، وهو تنفير السامع من أن يخدع بمظهر هذا المغرور فيحسب أن هذا المظهر ميزة أو دليل على ميزة فى صاحبه ، ومن باب أولى هو تنفير لمن يصطنع هذا المظهر من أن يظن أن هذا المظهر تميز وعلو عن الناس ، بينما هو فى الحقيقة نوع من المرض ، ولو ذهبنا الى علم النفس لوجدنا فعلا أنه مرض ، ولا يختلف عن مرض الابل المذكور الا فى أن هذا مرض عضوى ، وذاك مرض نفسى .

ولكن المهم أن القرآن فى لفظ واحد هو (تصعر) يرسم هذه الصورة المجسدة وكأنها صورة حسية ماثلة أمام السامع ، وبصرف النظر عن أية موازنة بين منهج القرآن ومنهج وسائل الاعلام المرئى ، فان هذا التجسيد والتصوير الذى يصوره القرآن بما يهدف اليه من تأثير فى نفس السامع هو أقصى ما تتمناه أية وسيلة اعلام مرئى فى تصويرها وفى تأثيرها فى نفس المشاهد ، فان أية وسيلة اعلام مرئى قد تحاول مثلا معالجة نزعة الكبرياء والتعالى عند بعض الناس ، فتصوغ الآثار السيئة لهذه النزعة فى تمثيلية تضخم هذه المبادىء المرئية ، أو ترسم له شخصية مسرحية ساخرة من مظهره وحركاته ، أو ترسم له صورة يدوية بالرسم التعبيرى (الكاريكاتير) مبرزة مظهره المتكلف فى صورة مضخمة ساخرة أو نحو ذلك ، ولكنها مهما وصلت من الجودة الفنية ، أو التأثير النفسى فلن تبلغ مبلغ الرسم الخيالى الذى تصوغه الألفاظ ، خصوصا اذا كان هذا الرسم فى القرآن ، فان رسم الألفاظ هو صورة معنوية تتغلغل فى نفس السامع دون أن تحدها حواس معينة ، وللخيال قدرة على

التضخيم والتشكيل والاختراع والغرابة فى صوغ الصورة لا تتوافر لأية وسيلة حسية كالوسائل التى تزاولها وسائل الاعلام المرئى ، وهذا ينطبق على التصوير اللفظى الخيالى بصفة عامة ، وعلى كل تصوير القرآن بصفة خاصة ، ومثال مقدرة الخيال على ما لا يتاح للوسائل الحسية أن تبلغه تصوير شجرة الزقوم فى جهنم ، ففى القرآن :

(انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين) (٢١) ٠

فتشبيه طلعها برءوس الشياطين تشبيه خيالى لا وجود لعناصره فى الواقع المحسوس ، لان رءوس الشياطين لم يرها أحد ، وليست لها فى الواقع المحسوس أية صورة يقاس عليها أو يشبه بها ، وهذا هو المقصود من التشبيه ، فان الهدف هو تصوير بشاعة كل ما فى جهنم بأقصى ما يتاح للخيال من تخيل ، فهذه الشجرة وسيلة تعذيب ليس فى تذوق طعمها أو فى أكلها فحسب ، وانما مجرد رؤية طلعها مخيفة مرعبة ، كرعب من يفاجأ بشيطان يتمثل له فى صورة مخيفة ، وخصوصا رؤية الرأس والوجه الحافل بأعضاء كثيرة كل منها مصدر رعب ، فالهدف حينئذ افساح المجال للخيال أن يرسم فى المخيلة للسامع أقصى ما يستطيع من صور البشاعة وأنواعها ، ليكون ذلك نوعا من العذاب النفسى لجهنم فوق عذابها البدنى ٠

وهذا المجال الفسيح أمام الخيال فى التصوير والتنويع والاختراع لا يتاح للوسائل الحسية التى تعتمد عليها وسائل الاعلام المرئى ، فلا تستطيع وسيلة حسية أن تصور رءوس الشياطين كما يصورها الخيال ٠ ولكن النتيجة المهمة أن التأثير النفسى للصورة انما يكون بمقدار مقدرة المصور على ابراز عوامل التشويق فيها ان كان الهدف فيها الترغيب ، وعوامل التنفير ان كان الهدف التحذير ، واذن فستكون صور الخيال

---

(٢١) ٦٤ وما بعدها سورة الصافات ٠

أشد تأثيرا من الصور المحسوسة لأنها أقدر بغير حدود على ابراز عوامل التشويق أو التنفير فى أية صورة ·

والمثال السابق عن الكبرياء والخيلاء هو مثال تصوير الصفات نفسها فى صور مجسدة فى القرآن ، وهو مثال لكثير جدا مما يشيع فى القرآن من هذه الصور البالغة الابداع والتأثير النفسى ·

واذا كانت الصورة السابقة هى صورة الصفة الماثلة فى شخص واحد ، فان القرآن يرسم الصفة او الحدث الماثل فى جمع من الناس ، ويشيع هذا أيضا فى القرآن كثيرا ، ومثاله تصوير القرآن نفور المشركين من دعوتهم الى الله ، فالصورة الحقيقية الواقعية أنهم حينما يسمعون دعوتهم الى الدين يعرضون أو ينصرفون ساخطين ، بل الأقرب الى الواقع ان يرفضوا هذه الدعوة رفضا منكرا أو ساخطا دون أن ينصرفوا من أماكنهم لأنهم لم يكونوا حينئذ ضعفاء ليتركوا المكان لمن هو أقوى اجتماعيا ، بل كانوا هم الأقوى ، واذن فرفضهم دعوة الدين أو اعراضهم عنها لا تستطيع وسيلة اعلام حسى أن تبرزه ابرازا واضحا أو مجسدا لأن صورتهالحسية لا تكفى للتعبير عن حقيقة رفضهم ، ولذلك نجد القرآن يعمد الى المجال النفسى لأنه هو الذى تتمثل فيه صورة الرفض على حقيقتها ، فقد يستمع المرء الى شىء ينكره انكارا شديدا أو يسخط عليه سخطا شديدا، ومع ذلك لا يظهر هذا السخط عليه فى مظهره ، أو لا يظهر بالدرجة التى هى نفسه ، وحيث كان رفض المشركين دعوة الدين بالغ الشدة والعنف وخصوصا سادتهم ، فان القرآن ينقل هذه الشدة وهذا العنف فى صورة بالغة الطرافة والتأثير النفسى ، حيث يصورهم فى صورة قطيع من حمر الوحش كان مجتمعا فى مرعى أو مورد ماء ففوجىء هذا القطيع بأسد يدهمه من حيث لا يشعر ، فاذا هو ينطلق هاربا مذعورا بأقصى ما لديه من قوة وجهد ، ومن سيطرة الذعر والخوف عليه لا يلوى أحد منه على أحد أو على شىء ، بل ينطلق

كل حمار فى الوجه الذى يليه بأقصى سرعته ، وهكذا يجعل القرآن منظر القطيع فى ذعره وتفرقه فى كل وجه مثالا لنفور المشركين من دعوتهم الى الله (كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة) ، والصورة من الناحية النفسية كأنها حقيقة ، فان نفوسهم نافرة من الدين بكل ما لديها من قدرة على النفور ، فكان الصورة التقطت لهم من داخل نفوسهم ، ولكن طرافتها وابداعها فى أنهـا نسبت اليهم من الظاهر ، أى الى ظـاهر أشخاصهم، وكأنهم نفروا هذا النفور وهذا الهروب بأجسادهم كما تفعل الحمر الوحشية وليس بنفوسهم وقلوبهم ، ومن دقـ اختيـار العنـاصر فى التشبيه أن هـذه الصورة من هروب الحيوانات الوحشية من الأسد أو من مصدر الخوف تزاولهـا كل اجناس الحيوانات الوحشية غير المفترسة كالغزال والنعام والزرافة والبقر وغير ذلك ، وقد كان يمكن التشبيه بنـوع آخر غير الحمر ، أو بجنس الحيوان الوحشى عامة ، ولـكن اختيـار الحمير بالذات عنصر مقصـود لتشبيه عقول هـؤلاء النافرين بالحمير التى يضرب بها المثل فى الغباء ، كما أن لفظ (مستنفرة) يعنى الحمر الوحشية دون الأهلية المستأنسة، لأن الوحشية لديها غريزة توقع الخطر دائما ، وبالتالى لديها التدريب الكافى على الهروب من مصدره ، فكانت صورة هؤلاء المشركين فى القرآن :

(فمالهـم عن التـذكرة معرضين ، كأنهـم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة) (٢٢) ٠

فأى اعلام مرئى يستطيع أن يبلغ فى تصـويره أو فى تأثيره النفسى شيئا من هذا المبلغ ؟ ٠"

وهذا النوع وما يماثله من التصـوير فى القرآن انما يقصد منه تجسيد الصفة نفسها بصرف النظر عن تحـديد شخص من يحملها أو يزاولها ، فتجسيد مسـاوىء الكبرياء مثلا يقصد لذاته ، ويستوى فى سوئه كل من يحمـل هـذه الصفة ، وكذلك الشأن فى النفور من الدعوة الى الله ، وهكذا٠

(٢٢) ٤٨ وما بعدها سورة المدثر ٠

ولكن القرآن فى بعض الصور يجسد الصفة أو الصفات السيئة الماثلة فى شخص بعينه معروف ، كما فعل فى تجسيد صفات أم جميل امرأة أبى لهب عم الرسول صلى الله عليه وسلم التى كانت من أسوأ أعداء النبى ، ليس فى درجة العداوة ، فان كثيرا من أعدائه امتلأت قلوبهم عداء وحقدا ، ولكنهم لم ينزلوا فى التعبير عن عداوتهم الى درجة الاسفاف والسفاهة فكان النبى والمسلمون يحتملون منهم وخصوصا فى مكة ما يصدر عنهم ، ولكن امراة أبى لهب نزلت فى أسلوب عدائها لشخص النبى الى مستوى الحطة والاسفاف الشديد ، واذا القرآن بوصفه فى جانب من جوانبه قلعة الاسلام فى الهجوم وفى الدفاع كما سبق ينبرى لام جميل فيصوب اليها بداتها سهما من سهام دفاعه فيحطم كل مقومات شخصيتها ، حيث يرسم لها القرآن صورة مجسدة ، هى صورة دابة مما يحمل عليه الحطب ، والحطب من الأحمال الخفيفة التى لا تحتاج الى الابل فى حملها ، ومع ذلك فهم فى حاجة دائمة الى الحطب ، سواء للطبخ أو التدفئة ، فكانت الدواب المؤهلة لأداء هذه المهمة هى الحمير والبغال ، ومن المألوف أن ترى هذه الدواب ذاهبة وجائية فى هذا العمل ، فالقرآن يجعل امرأة أبى لهب لا تعدو أن تكون احدى هذه الدواب (٢٣) بغلة أو أتانا ، ويؤكد المعنى بأن يصورها وعليها حمل الحطب ، وقد ربط فى جيدها الحبل الذى تقاد به أية دابة تحمل حملا ، فقد نتصور الدابة لا تحتاج الى مقود حينما يكون صاحبها راكبا عليها حيث يستطيع أن يسوقها أو يحثها بعصاه وهو راكب ، أما حينما يكون عليها حملها فانها تحتاج الى مقود تقاد به ، وهو الحبل الذى يربط فى عنقها ، وأم جميل فى عنقها الحبل وعلى ظهرها حمل الحطب ، فهى اذن احدى دواب مكة ، ولا شىء غير ذلك ، ففى القرآن هذه السورة :

---

(٢٣) الأتان هى أنثى الحمار .

(تبت يـدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنـه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد) (٢٤) .

وكأن الله يقول لرسوله لا ينبغى أن تقلقك سفاهة هذه المرأة فانهـا لا تعـدو أن تكـون دابة كأية دابة ، ولو كان لها عقل ادمى ، أو خلق انســانى لما كانت فيما هى فيـه ، فالقرآن حين يصور مثل هذه الصورة انما يصورها أيضا من الداخل ، أى من داخل نفسيتها وليس من مظهرها ، فهى فى المظهر آدمية لا نقص فيها ، ولكن هذا الكيان الآدمى لا يحمل فى جوهره مقومات الآدمية السوية ، وانما يحمـل مقومات الحيوان الأعجم ، سواء فى عقليتها أو فى انقيادها لأوضاع الجاهلية ومظاهرها الاجتماعية .

فأية وسيلة اعلامية تسـتطيع أن تصـور غبـاء امرأة أبى لهب أو حماقتها أو تنكرها للآدمية السوية كما يصورها القرآن ؟

من مزايا اعلام القرآن :

وحيث كان موضوع الحديث يدور حول الخصومة ومنهج القرآن فى مزاولتها ، فنحن فى حاجة فى كل حين اذن الى القـاء نظـرة على موقف الآخـرين فى مزاولتهم الخصومة الاعلامية ، أو الحرب النفسية بالقيـاس الى موقف الـقرآن من ذلك ليتضح شىء من الفارق بينهما .

ومن تكرار القـول أن الخصومة الاعلاميـة أو الحرب النفسية بين القرآن وخصومه ليست تاريخية بحيث يقـال انهـا كانت ، وانمـا هى قائمة ومستمرة ، بل انها تزداد اتساعا وانتشارا بمقدار نجاح القـرآن فى تغلغله فى أى

---

(٢٤) سورة المسد .

مجتمع غير مسلم ، وقـد بلغ القرآن بذاته مع ذلك مبلغـا كبيرا ، وكل ما فى أنحاء العالم اليوم من انتشار للاسلام أو حتى من اهتمام به أو حوار معه انما سببه القران بانتشاره الاعلامى ، وليس المسلمون ، فان المسلمين بسـوء مسلكهم وأخلاقهم أصبحوا مصدر تنفير من الاسلام وليس دعوة اليه •

ولكن الذى يعنينا هنـا آن نعود الى منطلق الموضوع ، وهو أن القرآن قلعة الاسلام الحربية دفاعا وهجوما ، ومن تكرار القول أن كل أسلحة القرآن اعلامية ، وأنه لا يحيد عنها الى الأسلحة العسكرية الا اذا أجبره الخصـم على ذلك اجبـارا •

وما دامت كل أسلحة القرآن اعلامية فأول ما ينبغى هو القاء نظرة على الفوارق الجوهرية بينه وبين الاعلام البشرى لابراز المميزات التى ينفرد بها أو التى تجعل له طابعا مميزا عن غيره من وسائل الاعلام •

وليس الهدف من ذلك استقصاء تلك المزايا ، كمـا أن الحديث عن الاعلام ليس على مسـلك المصطلحات العلميـة المتعارف عليها فى علم الاعلام ، وانما الهدف هـو الحديث من الزاوية العـامة التى تبـدو من خلالهـا الملامح المميزة لاعلام القرآن وتأثيره النفسى عسى أن يكون ذلك مجرد حافز أو موجه الى دراسة هذا المجال البالغ الأهمية ، والذى أحسب أن الدارسين المتخصصين فى الاعلام من المسلمين لم يتجهوا اليه اتجاها يتناسب مع واقعه فى القرآن ، ومعنى ذلك أن دراسة القرآن من جانبه الاعلامى فى حاجة الى جهد واهتمام، بل أرى كأنها لم تبدأ بعد بداية حقيقية لأن البداية الحقيقية هى دراسـة القرآن ، والثقـافة الاسلامية أولا ثم استنباط المنهج الاعلامى منـه ولـكن معظم المتخصصـين فى الاعلام تنقصـهم الثقـافة الاسـلامية العميقـة وأكـرر القـول

بأن هـذا الحـديث ليس حديث عـلم اعلامى ، ولا حديث استقصاء عن منهج القرآن الاعلامى ، وانما هو محض رغبة في التوجيه الى هذا المجال بالاشارة الى بعض الأمثلة والنقاط، واحسب أن كل مثال يصلح أن يكون بحثا مستقلا ، ومن هذه الأمثلة والنقاط : الصدق ولكن قبل أن ينصب الحديث على هذا المعنى فنحن فى حاجة الى شىء من بسطة القول لمحـاولة تحديد ملامح هذا المعنى فنقول :

انه فى مجال الخصومة ــ كشـأن القرآن مع خصومه ــ ينتظر من اعلام كل طرف أن يحـاول جهده اضعاف موقف خصمه ، بمقدار ما يحاول تقوية موقفه هو ، وهذا من حيث المبدأ اتجاه مشروع ، فان الخصـومة لذاتهـا ليست جـرما ولا اثما فى أى دين أو تشريع ، لانهـا من طبيعة الحيـــاة نفسها ، ليس بين الناس فقط ، وانما بين الحيوانات العجماء أيضا ، فان اســاس الخصومة فى الواقع هـو التنافس على وسـائل الحياة وحفظ الكيان وهـذا يؤدى بالضرورة الى الخصومة بين كل من تجمعهم وسيلة من وسائل العيش نتيجة لتنافسهم عليها ٠

فالخصومة لذاتهـا لا تثريب عليهـا ، وانمـا التثريب والحساب على أسلوب مزاولتها ٠

والواقع المشاهد فى كل العصور حتى اليوم أن حرص كل طرف على اضعاف موقف خصمه يجعله يتجاوز حـدود الحق والصدق موغلا فى الباطل والكذب قليلا أو كثيرا ، ثم يكون حرص الأذكياء منهم ليس عـلى تجنب الكذب ، وانما على اخفاء معالمه أو الباسه بشىء من الصدق حتى لا ينكشف فيعود وبالا على صاحبه ، وعلى سبيل المثال فقد رأينـا فى العقود الزمنية القريبة السابقة كيف كانت الحرب الاعلامية العاتية بين الشيوعية والرأسمالية فى معسكرين متصارعين

على مستوى العالم كله ، كل منهما تحاول جهدها تنفير الناس من الاخرى بما تلصقه بها من عيوب ، وما تتلمسه لهـا من مساوىء ليكون ذلك هدما صريحا لكيان الأخرى وتقـوية ضمنية لكيانها هي ، وقد رأينا كيف أن الشيوعية تلمست ما لا يكاد يحصى من المساوىء للرأسمالية ، ثم عاد أبناؤهـا يطعنون فيها هي وينسلخون منها متبرئين من كل من دعاهـم اليها ، وليس معنى ذلك أن الرأسمالية بمفهومها القائم حاليا هي التي انتهى اليها الحق ، بل معناه أن الشيوعية لم تكن لهـا قواعد من الحق ليرتكن اليها باطلهـا فانهارت في أمد قصير بالقياس الى حساب الدهر ، ولكن الذى يعنينا من هذا المثال ان كلا من طرفي الحرب الاعلامية حينئذ كان يكيـل للآخر المساوىء ، محاولا تغليف الباطل في جانبه بالحق ، وتغليف الحق في جانب خصمه بالباطل ، حتى التبس الحق بالباطل على كثيرين في شتى شعوب العالم ، لأن كلا الطرفين لم يلتزم المبـدأ الخلقي الثـابت وهـو الصدق ، أو الحـق الصريح الذى لا يلابسه باطل .

ومن هنـا تبدو ميزة من القواعد الراسخة التي يرتكز عليها اعلام القرآن ، والتي كانت من أهم أسباب نجاحه ، وهي التزام الصدق وابرازه واضحا للطرف الآخر ، حتى تمتلىء نفسه يقينـا بأن هـذا القـرآن رغم لدد الخصـومة وعنفوانها لا يحيد عن الصدق قيد شعره ، ولا يسمح للباطل أن يلابسه مهما تكن الظروف .

ولنأخذ جانبا واحدا من هذا المجال ليكون مثالا لتوضيح هذه الحقيقة ، فمن الواضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الطـرف المثـل أساسا للقـرآن في خصومته مع سـائر الخصوم ، ولذلك كان اعلام الخصوم موجها بصورة مركزة ضد شخص الرسول بصفته ليس قائد الخصوم فحسب ، بل

هو نفسه طرف الخصومة فى نظرهم ، وهذه النظرة لا تخلو من الحق ، فلو كان مجرد قائد لأمكن بقاء جبهته قوية فى الخصومة مع زوال شخصه ، أو استبدال قائد آخر به كما فى سائر الحروب والخصومات ، ولكن شخص الرسول بصفته مرسلا من الله هو طرف الخصومة ، فاذا ثبت أنه على الحق فقد نجح ، واذا استطاع خصومه أن يثبتوا أنه على باطل ، أو أن يشككوا الناس فى صدقه فقــد نجحوا فى خصومتهم وفشل هــو ، ومعنى فشــله نزع الثقة فى دعوته فلا يقبل عليها أحد ، بل ينفض أتباعها عنها ، واذن فقد كان شخص الرسول بوصفه رسولا هو طرف الخصــومة ، وكل أعــدائه طرف آخــر ٠

ومن هنا ندرك أن الحرب الاعلامية التى وجهها أعداء الرسول اليه لم تكن عفوية أو ساذجة ، وانما كانوا يديرونها عن وعى كامل بأساليبها وأهدافها معا،فقد استطاع المشركون أن يلبسوا الباطل ثوبا من الحق ثم يريشــون منــه ســهاما توجه الى شــخص الرســول أصــلا ، ثم الى كل ما يقــول تبعا ، ومهما يكن ثوب الحق لديهم رقيقا يشف عما تحته من باطل فان عيون المجتمع المنكر لهذا الدين المفاجىء له ولمقومات حياته كانت فى بدء أمرها مهيأة للتغــاضى أو التعامى عن رؤية الباطل الذى تعتمد عليــه أسلحتهم ، ولو من بــاب قول الشاعر ٠

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

كما أن عين السخط تبدى المســاويا

فقد استطاع المشركون أن يأخذوا من واقعهم حقيقــة ليجعلوها حقا ، وهى ان لكل قبيلة الها معينا تعرفه وتعبده ، فيصوغون من هذه الحقيقة دعاية اعلامية ضد النبى وهــو أنه ينكر حقيقة ماثلة فيدعى أنه لا اله الا الهه هو ، واذن فهو كذاب ، وكأن القرآن يتولى عنهم نشر اعلامهم وتبليغــه

الى الناس فينقل عنهم هذه الدعاية عن كذب النبى :

(وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد) (٢٥) ٠

فقد جعلوا انكار تعدد الآلهة كذبا ، وجعلوا صوغ الآلهة المتعددة الها واحدا نوعا من السحر ، وبصرف النظر عن أى سبب مباشر لنزول هذه الآيات فان المهم هو المعنى لذاته ، حيث يتضمن أن الذين صاغوا هذه الدعاية ليجعلوا منها حربا اعلامية ضد الرسول هم سادة القوم ومفكروهم وهو معنى (الملأ) فقد كانوا هم قادة الحرب ، وهذا يعنى أن هذا المعنى لم يجيء عفوا خلال حديثهم ، وانما دبروه بتفكيرهم تدبيرا مقصودا ، ليكون سلاحا من أسلحة حربهم الاعلامية التى بذلوا كل جهدهم قصدا ليذيعوها وينشروها فى كل الوجوه ، ويدل على هذا تعبير (أن امشوا) بمعنى انشروا هذا وأذيعوه بين الناس ، ومن تدبيرهم فى حربهم الاعلامية أن يحاولون أن يجعلوا لموقفهم قاعدة ثابتة تمثل أنهم على حق ثابت من وجهة نظرهم ، وهذه القاعدة هى أن لهم آلهة تعارف آباءهم وأجدادهم بمن فيهم من سادة وأعلام على عبادتها فكيف يكونون جميعا ومعهم آباء المجتمع كله وأجداده على باطل ومحمد وحده على الحق ؟ فعليهم اذن أن يتشبثوا بهذه القاعدة ليعلم الناس أنهم على حق يتمسكون به ويدافعون عنه ، ويدل على هذا تعبير :

(واصبروا على آلهتكم) ٠

أى تشبثوا بها بكل ما لديكم من قوة ، وكأنهم بهذا

---

(٢٥) وما بعدها سورة ص ٠

يشعرون أن موقف محمد أقوى وأنهم فى حاجة الى قوة وصبر ليصمدوا أمامه ٠

واذن فنحن أمام تفكير مقدر ومدبر ليكون حربا اعلامية ذات نظام فى مزاولتها ، وذات هدف ترمى اليه ، وليس موقفا عدائيا عفويا أو ساذجا ، وليس هذا استنتاجا وانما هو صريح تعبيرهم فى ختام الآيات السابقة حيث يقولون (ان هذا لشىء يراد) بمعنى أن هـذا شىء مقصـود بتدبير ، وحتى ان كان المعنى أن هذا الموقف من محمد مقصود أن يكون حربا ضـد آلهتنا ، فمن البدهى أن شعورهم وادراكهم أنهم أمام حـرب اعلامية لابد أن يدفعهم الى مقـاومة هـذه الحرب بحرب من جانبهـم ٠

وعلى سبيل المثال أيضا كان من الدعايات التى أطلقوها ونشروها لتكون حربا اعلامية ضد الرسول ادعاء أنه مجنون ، على أساس يقينهم بأن من يموت يرون جسده يتحلل ويتحول الى تراب وعظام مبعثرة ، فكيف يتصورون أن يعود مرة أخرى الى الحياة ان من يقول ذلك فى نظرهم ليس بعاقل ، انما هو مجنون ، وينقل القرآن عنهم :

(ويقولون انه لمجنون) (٢٦) ٠

وقد كانت أخطر الدعايات التى اخترعها زعيم مكة حينئذ بعد تفكير طويل عميق ، وتقدير منطقى خطير ، والتى ساق القرآن حديثه عنهـا كمـا سبق فى أسلوب التعجب من عمق عقلية هذا الزعيم وخطورة تقديره ، وهى أن هذا القرآن الذى انتشر ذكره كالبرق فى كل الأرجاء ، والذى يأخذ بألباب سامعه فيحول اتجاهه ، ويقلب كل ما فيه من تفكير ومشاعر رأسا على عقب ، فاذا هو يهجر آباه وأمه وأصدقاءه وأقاربه اذا لم يوافقوه على تصديق هذا القرآن والايمان به ، فانتهى

---

(٢٦) ٥١ سورة القلم ٠

هذا الزعيم الى أن هذا القرآن لن يكون الا سحرا ، لأن المجتمع يعرف أن السحر هو الذى يفعل بالانسان هذا ، واذن فسيكون ادعاء أن القرآن سحر صنعه محمـد مقبـولا من المجتمـع ، وستكون دعاية ناجحة فى حربهم ضده ، وكانوا قبل ذلك قد صنعوا دعاية نشروها فى أرجـاء القبائل ، هى أن محمـدا يقول شعرا هو القرآن ، ولكن المجتمع استخف بهذه الدعاية واستنكرها ، لأن كل فرد فى المجتمع يستمع الى الشعر ويعرفه ان لم يكن يقرضه ، فلا يجدون وجها للشبه بينه وبين القرآن ففشلت هذه الدعاية من تلقاء نفسها ، ولكن دعاية السحـر استطاعت الباس الباطل ثوب الحق ، فانطلت فى بدء أمرها على كثيرين ٠

وليس يعنينا من ذلك الاستطراد فى الأمثـلة ، وانمـا يعنينا مجرد التمثيل لكون القرآن واجه من خصومة حربـا اعلامية منظمة وهادفة ، ليس من جهـة واحـدة ، وانما من جهات عدة بلغت قمة العداء ، وقمة الحرص على تحطيم دعوة الاسلام ومن ثم بذلت كل جهدها فى شن الحرب على الرسول ودعوته ، وكانت أخطر هـذه الجبهات اليهـود والمشركـون والمنافقون ، وقد رأينا فيما سبق من الفصول نماذج كثيرة من حروبهم وأسلحتهم ضد الاسلام ٠

والذى نريد أن نصل اليه هو كيف استطاع اعلام القرآن أن يدحر كل هذه الجبهات مجتمعة ، وأن يحطم كل أسلحتهم على تعددها وخطورتها ؟

ويمكن أن يجاب عن ذلك فى اجمال بأن السبب هو أن اعـلام القرآن اسـتطاع أن يكتسب ثقـة سامعيه ان كانوا سامعين ، وقارئيه ان كانوا قارئين ، وحيث كان اعلام القرآن واعلام أعدائه على طرفى نقيض فان الثقة فى أحدهما نزع

للثقة فى الآخر ، فحين يشعرون بصدق القرآن مثلا فمعناه أن اعلام الآخرين كاذب وهكذا ٠

واذا أردنا شيئا من التفضيل لهذا الاجمال نقول ان من أبرز أسس كسب القرآن ثقة كل من يبلغه :

١ ــ الصــدق :

الصدق محور الثقة فى أى اعلام وبالتــالى فهــو محور تأثيره ومدى نجاحه ٠

والقرآن من وجهة نظر أعداء الاسلام هو من كلام محمد صلى الله عليه وسلم ، ومحمد فى نظرهم ليس الا انسانا يريد أن يكون زعيما بغير حدود ، بحيث يبسط زعامته أو مذهبه على كل شىء ، ولذلك فهو يريد أن يحطم ويمحو كل الأديان والمذاهب والزعامات لينفرد هو ومذهبه بكل ذلك ، والقرآن نفسه ينقل عنهم مضمون ذلك ، بل ما هو أسوأ من ذلك بكثير فى نظرتهم الى الاسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم ٠

واذن فهم يرون القرآن ليس الا وســيلة اعلام لخصمهم محمد ، ومن هنا يتوقعون بداهة أن يكون منهج القرآن هــو المنهج المألوف فى اعلام الخصــوم ، أو كمــا يفعلون هم فى اعلامهم ضد الاســلام من الغاء فضيلة الصــدق فيــه الغاء ، وسلوك كل وسيلة تنفر من خصمهم محمد ودينه بصرف النظر عن أن تكون تلك الوسائل صادقة أو كاذبة ، والواقع أن هذا هو المنهج المألوف فى الاعلام المتبــادل بين الخصــوم فى كل العصور والمجتمعات ، فالتركيز كله منصب على الهدف وهــو التأثير المطلوب ، أما الانصاف أو الصدق فى الوسيلة فليس هدفا ، ولا مانع من الكذب حينئذ أو التضليل والتمويه وأية وسيلة منكرة ، غاية الأمر أن الأذكياء كما سبق يحاولون أن يغلفوا الباطل والكذب بغلاف خادع يخيل الى سامعه أنه نوع

من الحق أو الصدق ، وقد يجعلون اعلامهم صـــادقا اذا كان هذا لمصلحتهم ، ولكن اذا كان فى الصدق مساس بهم فانهـــم يتحاشونه ، ويلجأون الى الكذب محاولين تغليفه بأية وسيلة للتضليل والتمويه وهم يتوقعون بالضرورة أن يكون اعـــلام خصمهم محمد يسير على هذا النهج ، نهج كل اعلام ولـــكنهم يفاجأون بأن القرآن عكس ما يتوقعون ٠٠٠

يفاجأون مثلا بأن محمدا الذى هو فى رأيهم طالب زعامة دينية ولابد أن يحيط نفسه بهالة ضخمة من الثناء على نفسه ومن تمجيد شخصه ، ومن ادعاء أن له من الخوارق أكثر مما للأنبياء السابقين ، وما دام القرآن هو وسيلة اعلامه فلابد أن يكون حافلا بهذا التمجيد ، وبنسبة كل انتصار لحزبه الى مواهبه وبطولته هو ، ونسبة كل وسيلة ناجحة الى عبقريته وبراعته هو ، كما يفعل الزعماء فى تسخير اعلامهم لتمجيد أشخاصهم حتى تزداد علوا وثباتا فى نفوس أتباعهم وتزداد ارهابا وتخويفا لخصومهم ، وحتى الذين يكونون فى مرحلة الشك بين الايمان والالحاد بحيث لا يجزمون بكذب هذا النبى بل يضعون فى نفوسهم احتمال أن يكون صادقا فان أصحاب مثل هذا الشك يتوقعون أن محمدا مادام يدعى أنه مرســـل من الاله العظيم وهو الله فلابد أن تكون له صفات تختلف عن صـــفات ســـائر البشر ، وأن تكـــون له مقـــدرة عـــلى فعـــل مالا يستطيعه سائر البشر فى اى وقت يشـــاء وبأية صـــورة يريد لأنه سيكون حينئذ فى نظرهم نائبـــا عن الاله يفعـــل ما يستطيعه الاله أو قريبا منه ٠

ولكنهم يفاجأون بما يتـــكرر كثيرا جـــدا فى القـــرآن بأساليب مختلفة من انه مثلهم عبد من عباد الله وكل ما يزيده عنهم أنه يحمل رسالة من الله تبلغ اليـــه عن طريق الوحى ، ولكن ذلك لا يغير من مماثلته اياهم فى البشرية والعبـــودية لله شيئا نحو :

(قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى) (٢٧) ٠

ولئن كانت الحرب الاعلامية البشرية بين الخصوم تعتمد فيما تعتمد عليه على تخويف الطرف الآخر من قائد الاعلام الذى يصدر منه التخويف، وهم يعتقدون أن محمدا هو صاحب هذا الاعلام ، ويتوقعون أن يكون شخصه مصدر تخويف لهم، فانهم يفاجأون بأن اعلام محمد يؤكد لهم أن محمدا نفسه لا يملك أن يضرهم أو أن ينفعهم فى شىء اطلاقا ، بل الأوغل من ذلك فى العجب أنه يؤكد لهم أنه لا يملك حتى لنفسه منفعة ولا ضررا ، وذلك نحو :

(قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون)(٢٨)

بل الأشد ايغالا فى العجب عندهم أن يجدوا الوعيد الموجه اليهم فى القرآن موجها الى محمد نفسه لو جاراهم فيما هم فيه ، وذلك نحو :

(ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين)(٢٩)

وكذلك يجدون فى القرآن نحو :

(فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين)(٣٠)

ان من بدهيات الاعلام فى الحرب النفسية تضخيم صاحب الاعلام ودعوته وقوته وكل ما يتعلق به ، فكيف يلجأ اعلام محمد فى نظرهم الى تصغيره وتهوين شأنه وشل مقدرته بل الى النزول به الى مستوى أصغر شخص من

(٢٧) آخر سورة الكهف ٠

(٢٨) ١٨٨ سورة الأعراف ٠

(٢٩) ٦٥ سورة الزمر ٠

(٣٠) ٢١٣ سورة الأعراف ٠

خصومه فيما لو انحاز اليهم ؟ ولا يحتاج الوضع الى ذكاء أو مقدرة عقلية خاصة فى موقف خصــوم القرآن ليــدرك كل منصف أو متجرد من الهوى منهم أن هذا القرآن لا يمــكن أن يكون اعلام محمد ، ولا يعقل ان يكون كلامه هو ، فليس من المعقول او المألوف أن يصغر الانسان نفسه أو يعلن عن عجزه أو غير ذلك مما يحفل به القرآن فى هــذا المجــال ، فلابد اذن أن يكون صــاحب هــذا الاعلام احــد غير محمــد فيتذكرون عندئذ أن القرآن نفسه يقول لهم ان هذا الكلام ليس كــلام محمــد ، وانما هــو كــلام الله اخــالق لمحمــد ولهم ولكل مخلوق ، وكانوا قد استبعدوا هذا المعنى ولكن صدق القرآن فى كل ما يصدر عنه يعيده الى نفوسهم للتفكير فيه مرة أخرى ، ولكنه تفكير الانصاف والتعقــل والحــكم الموضوعى غير المتحامل ، وكلما استمعوا الى القرآن وجدوا فى صدقه تأكيــدا للثقة فيه وتصــديقا له ، فاذا تخيلوا أو توقعوا كما يتوقع كثير من الناس حتى من بين المؤمنين منهم ايمانا سطحيا أن من له صلة خاصة بالله يمكن أن تكون له مزايا من صفات الله أو خصــائصه ، كعلم شىء من الغيب مثلا ، فكيف بالمرسل من الله وهــو فى قمة الصلة البشرية بالله ، ولكنهــم يفاجأون بأن القــرآن يؤكد لهــم كثيرا أن الرسول لا يعلم الغيب ، وأحيانا يقيم لهم الدليل على عدم علمه الغيب وعلى أنه أحيانا يصيبه السوء كما يصيبهم لأنه يجهل أن الغيب يخبىء له هذا السوء ، كما فى الآية السابقة (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) وهو أيضا بهذا يؤكد لهم ان كثيرا مما يتمناه لا يســتطيع ولا يملك تحقيقه ، وكذلك حين يتــوقعون ويطلبون منــه معجزات كالأنبياء السابقين فاذا هــو يعلن لهم فى اعلامه وهو القرآن أنه لا يملك ذلك نحو :

(وقالوا لــولا أنزل عليــه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين) (٣١) ٠

---

(٣١) ٥٠ سورة العنكبوت ٠

وما أكثر ما طلبوا من الرسول من مطالب لا تدخل في استطاعة البشر ، لأنهم يتوقعون أن صلته بالله كما يدعى تتيح له كثيرا من خصائص الله ومما لا يملكه البشر ، كقولهم الذى ينقله القرآن عنهم :

(واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم الا أن قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين) (٣٢) .

فهم يطلبون من الرسول ان يحيى لهم اباءهم واجدادهم حتى يكون صادقا في انه رسول الله ، وطلبوا كثيرا سواء مما في الارض أو السماء ، فحيث كانوا في بيئة وواد غير ذى زرع ولا ماء الا الندرة فقد طلبوا منه ان يفجر لهم فى أرضهم الينابيع والأنهار ، وان يكسوها بالخضرة والفاكهه التى لا ينازعونه فيها ، وانما يستفيدون بالانهار والينابيع ليجعلوا لهم جنانا فى الأرض ، ثم يرتفعون بمطالبهم الى السماء فيطلبون منه أن يريهم آية تدل على أن الله اختصه بما لا يستطيعه البشر ولو كان فى هذه الآية هلاكهم مثل أن يجعل السماء تسقط عليهم ، أو يصعد هو الى السماء أمام أعينهم ولابد حينئذ أن يفعل ما يطلبونه منه ليصدقوه ، وكأنهم بعد ذلك عادوا من خيالهم المحلق فنزلوا الى الأرض قائلين فاذا عجزت عن ذلك أفلا تستطيع بصفتك التى تدعيها أن توجد لنفسك قصرا يبهر الناظرين اليه بدل مأوى الطين الذى تسكن فيه ؟

وهم يتوقعون اذا لم ينفذ ما يطلبون أن يلجأ الى الحجج التى يتهرب بها من تنفيذ ما يتحدون به ، كما يتوقعون فى كل اعلام منهم أو من غيرهم ، فلابد فى تصورهم أن يؤكد لهم مقدرته على ذلك ، وعلى ما هو أكبر منه ، ولكنه لا يريد هذا ، أو يرى أنه لا ضرورة له ، أو أن الوقت غير ملائم له ، أو أنه يخشى عليهم أن تصرعهم المفاجأة من هول

---

(٣٢) ٢٥ سورة الجاثية .

هذا أذا صنعه أو نحو ذلك ، ولكنهم يفاجأون بأنه يرد عليهم في وضوح قاطع غير ملتو بأنه لا يملك شيئا من هـــذا ولا يستطيعه ، ومن ذلك في القرآن :

(وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا)(٣٣) ٠

وهكذا مطالب كثيرة شديدة التنــوع ســجلها القرآن ، واذا تأملنا هذه المطالب نجد ان طلبهم اياها يدل على توقعهم امكان حدوثهـا من النبي أو توقعهم ان يجعلهـا النبي مادة اعلام له ، بأن يركز اعلامه وهو القرآن جهده في اثبـات أو ادعاء استطاعة محمد أن يفعـل مالا يسـتطيع غيره من البشر أن يفعله ، من نحو هــذه المطالب التي يطلبونهـا ، ولكنهم يفاجأون بأن القرآن يؤكد لهم ليس عجز محمد عما يطلبون فحسب، وانما عجزه عن أي شيء يخرج عن نطاق البشر جميعا ، لأنه ليس الا فردا من البشر ، وكل ما يمتـاز به عنهم أنه يحمل رسالة توحي اليه من الله ، بل ان القـرآن يتعجب من أن ينسبوا الى محمد أي شيء غير هاتين ، البشرية والرسالة :

(قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا) ؟

ومن هذا القبيل ما يرد عليهم به القرآن فيما يطلبونه أو يتوقعونه من أن يكون لمحمد وضع خاص يستمده من الله، بمعنى أن يكون كالنائب عن الله يسـتطيع أن يفعـل ولو بعض ما يختص به الله ، حيث يقول رادا عليهم :

---

(٣٣) ٩٠ وما بعدها سورة الاسراء ٠

(قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لـكم انى ملك ان اتبـع الا ما يـوحى الى) (٣٤) ٠

وفى كل رد من هذه الردود التى يحفل بها القرآن يصابون بما يشبه الصدمة النفسية التى تتركز فى مناقضة القرآن لما يتوقعـونه ، ففى كل موقف هم متصورون أن هـذا اعلام خصمهم محمد ، وبطبيعة التخطيط والتدبير الحربى ، فان كل طرف كما يقدر مدى تأثير سلاحه ، فانه لابد ان يتوقع رد الفعل من خصمه ، وكيف يكون ، وكيف يؤثر ، وعندئذ لابد أن يتوقعوا رد فعل القرآن (بوصـفه فى نظرهم كلام محمد واعلامه) ـ من نوع تفكيرهم ، فمن صلبه أن يكون تمجيدا لمحمد فيما يتعلق بادعائه الدينى ، ومن هذا التمجيد أن يوهم الناس بمقدرته على مالا يتاح لبشر غيره ، خصوصا وأن السابقين ممن ادعوا دعواه كانت لهم خوارق عـديدة متنوعة ، بل ان الذين يدعون أى ادعاء يتعلق بالغيبيـات والروحانيات كالكهنة والسحرة يدعون لأنفسهم ما لا يتاح لغيرهم ، وبعضهم قد يصدر منه فعـلا ما ليس مألوفا لدى سائر الناس ٠

ولكن اعلام محمد يصيبهم بما يشبه الصدمة النفسية ، حيث يناقض كل توقعلهم فى مجالات عديدة متنوعة ، أحدها ما يتعلق بشخص محمد وحدود مقدرته ، فان كل هذا الذى يثيرونه يرد عليه القرآن بمعنى واحد مهما اختلفت أساليبه هو أن الله وحده هو الذى بيده وبمقدوره كل شىء ، وليس بيد محمد أو غيره على الاطلاق شىء ومن هنـا تبرز الحقيقة أمام أعينهم وتفرض عليهم رؤيتها ، بل والتسليم بهـا ، وهى أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون كلام محمد ولا اعلامه ، فلا يوجد اعلام بشر يلتزم الصدق بهذه الصورة ٠

وفى القرآن أمثلة عديدة مشهورة من العتـاب واللوم

---

(٣٤) ٥٠ سورة الأنعام ٠

الشديد للرسول بل والتخطى له كقصة فداء أسرى بدر التى قال النبى بعدها والله لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر(٣٥)، وكقصة عبوسه للأعمى التى كان النبى بعدها يقول لعبد الله أهلا بما عاتبنى فيه ربى (٣) ، وتحريمه على نفسه ما أحل الله وهو العسل (٣٧) وكذلك ما هو اكثر بالقياس الى المسلمين كفرارهم يوم حنين وخوفهم الذى زلزلهم يوم الأحزاب وقولهم مالا يفعلون وانقضاضهم عن الرسول وهو يخطب الجمعة وكثير غير ذلك .

ومن هنا أيضا يتجهون بداهة الى التساؤل عن صاحب هذا الاعلام حيث لم يكن محمد صاحبه ، والقرآن نفسه يوضح لهم الجواب فى غير لبس ، وهو أن صاحب هذا الاعلام وهذا الكلام هو الله ذاته وليس محمدا ، عندئذ يبدأون فى الشعور بانهيار موقفهم فى الخصومة ، لأن اعلامهم بكل ما ألصقه بمحمد ، وبكل ما ادعاه من صدق لهم وكذب لمحمد قد أخذ يتكشف كذبه على أنفسهم وعلى أتباعهم ، فكل درجة تتكشف عن صدق اعلام محمد يتكشف معها كذب اعلامهم وباطله .

وهذا الجانب الذى يبرز فيه صدق القرآن بوصفه اعلاما ليس الا مثالا ، فان كل اعلام القرآن التزام للصدق ودعوة اليه .

فالفارق الدقيق بين صدق القرآن وصدق اعلام البشر ، أن الاعلام البشرى قد يكون صادقا أحيانا ولكنه لا يستطيع أن يصدق اذا كان فى الصدق مساس بالجهة التى يمثلها ، أما اعلام القرآن فأنه يلتزم الصدق مهما كان فيه من مساس بمن يمثله وهو الرسول والمسلمون .

٢ ـ صدق الخبر وحرية التعليق :

قد يبدو مضمون هذا العنوان من تطورات الاعلام فى العصر الحديث ، أو من مزايا بعض وسائل الاعلام الحديثة

(٣٥) ٦٧ سورة الأنفال .
(٣٦) سورة عبس .
(٣٧) سورة التحريم .

التى تعتمد على ايراد الخبر صادقا دون تدخل فيه ، ولكنها تخص نفسها بالتعليق عليه ، فتبيح لنفسها حينئذ أن تعقب عليه بما تشاء ، وأن تبدى رأيها فيه بما تريد

والواقع أنها ليست ميزة حديثة أو مبتكرة ، وانما هى طابع اعلام القرآن كله ومنهجه الثابت ، غير أن هناك بطبيعة الحال حساسية شديدة فى الحديث عن القرآن ؛ فليس كل ما يلائم غير القرآن يصلح للحديث به عن القرآن وان كان الموضوع واحدا ، بمعنى أن الشىء الواحد اذا كان مشتركا بين القرآن وغيره ، نستطيع أن نعبر عنه فى غير القرآن بأية ألفاظ مناسبة ولكن هذه الألفاظ نفسها قد لا تصلح للتعبير عن موضوعها فى القرآن ، ومثال ذلك ما نحن بصدده الآن ، فتعبير صدق الخبر يصلح لوصف القرآن به كما يصلح لوصف الاعلام الآخر به ، ولكن تعبير حرية التعليق وان لاءم الاعلام الآخر الا أنه لا يلائم القرآن ، ولكن المعنى نفسه يمكن أن يصاغ بتعبير آخر ، هو ما يمكن أن يدور حوله خلاف أولا يدور ، بمعنى أن صدق الخبر لا يدور حوله خلاف فحيث كان الخبر صادقا مطابقا للواقع فلا يختلف عليه طرفا الخصومة سواء أكان فى القرآن أم فى اعلام الآخرين ، لأن هذا هو ما حدث فعلا، والذى يخالف هذا يعرض نفسه للمقت ، والازدراء ومن ثم للهزيمة الاعلامية ولكن التعليق على الخبر ليس هو الحادث الذى حدث ، وانما هو رأى المعلق ووجهة نظره فيما حدث ، وكما أن موقف الجميع يتفق اذا كان الخبر صادقا فلابد أن تختلف مواقف الأطراف فى التعليق ، لأن تعليق كل طرف يمثل رأيه وموقفه هو وحيث كان موقفه مخالفا أساسا لموقف الطرف الآخر ، فان تعليقه لابد أيضا أن يكون مخالفا فى اتجاهه لتعليق الطرف الآخر ، ومن هنا يمكن أن يصاغ العنوان السابق بنحو هذا التعبير (الاتفاق حول الخبر ، والاختلاف حول التعليق) •

وقد سبق القول بأن الفارق الجوهرى بين صدق القرآن وصدق أى اعلام آخر انما يتضح عندما يكون فى الصدق

مساس بموقف الطرف الذى يمثله فان كل اعلام حينئذ يتهرب من الصدق ليخفيه أو يغلفه أو ينكره حفاظا على موقفه ومركزه فى الخصومة الا اعلام القرآن فانه يلتزم الصدق لذاته فى كل الأحوال ، ومهما كان صداه من نفع أو ضر ، بالقياس الى الرسول والمسلمين كما رأينا فى الأمثلة السابقة وفيما أشرنا اليه من أمثلة عديدة متنوعة فى القرآن لم تكن هناك ضرورة للاستطراد فيها ٠

وعندئذ نتبين بوضوح أن خصوم القرآن لا يستطيعون أن يلتزموا الصدق ، لانه ليس مساسا بموقفهم فى الخصومة فحسب ، بل هو هدم له من الاساس ، لان موقفهم ليس له نصيب من الحق ولو كان واهيا ، وانما هو فى العقيدة باطل كله ، بدليل أن كل العقائد التى صارعت الاسلام وأنكرته وخاصمته فى بدء أمره اعتنقته فيما بعد طواعية واختيارا عن اقتناع ويقين كاملين ، كما فعل عبدة الأصنام فى الجزيرة العربية ، وعبدة النار فى بلاد فارس ، وعبدة الشمس فى مصر ، ومعتنقو المسيحية فى بلاد الروم ، ولم يتشبث أحد بما هو عليه الا اليهود فى غالبيتهم ، ومعنى ذلك اعتراف كل هؤلاء الذين اعتنقوا الاسلام مختارين أن عقائدهم التى كانوا عليها باطلة ، وفى أثناء صراعهم وخصومتهم مع الاسلام لابد أنهم أحسوا ببطلان عقائدهم حين استخدموا عقولهم، ولكن الموانع الاجتماعية من العادات والتقاليد ، والموانع الشخصية من العناد والتعالى عن الانقياد للغير هو الذى صدهم عن الحق الواضح فى نفوسهم، وهذا ما نريد أن نصل اليه ٠

فان شعورهم بأنهم على باطل كما أنه لا يتيح لهم مجالا لادعاء الصدق فى اعلامهم ، كذلك لا يتيح لهم مجالا واسعا لحرية التعليق الموضوعى على أخبارهم ، فأخبارهم لا تعتمد على أساس من الصدق ، وما بنى على أساس ضعيف لابد أن يكون ضعيفا ، فتعليقهم على أخبارهم لابد أن يكون ضعيفا غير ذى أثر ٠

ومثال ذلك أن يقولوا ان محمدا شاعر لما يقوله من

القرآن أو مجنون لما يقوله عن البعث أو كاذب حيث يجعل الآلهة المتعددة الها واحدا ، فكل هذا خبر ، ولكنهم يحسون في قرارة نفوسهم بأنه خبر كاذب ، بدليل أنهم هم اعترفوا فيما بعد طواعية بأن هذا كذب ، وقد جعلوا من هذه الأخبار اعلاما يحاولون جهدهم أن ينشروه في كل وجه والى أبعد مدى ، وقد فعلوا حيث أبلغوه جنوبا حتى وصل الى ملك الحبشة ، وأبلغوه شمالا حتى وصل الى قيصر الروم كما في قصة اسلام النجاشي ، وقصة قافلة قريش التجارية بزعامة أبي سفيان وحوار قيصر معه حول نبوة محمد ، وأبلغوه بقوافل تجارتهم الى كل مكان تصل اليه ٠

والخبر عادة يكون مصحوبا بالتعليق عليه، حيث ينبرى السامعون لمزيد من الاستفهام وطلب التفاصيل عن مضمون هذا الخبر ، وعن رأى مبلغ الخبر فيه وهكذا ، وحينئذ تنتاب الحيرة صاحب كل خبر كاذب فانه سيجد عنتا شديدا في أن يعقب على خبر هو أعلم بكذبه ، ومهما حاول أن يوجد من علل أو وجهات نظر أو تحسين للخبر فلن يجد ما يحفظ به ماء وجهه وما يحفظ عليه احترام السامعين له ، ولن يجد مهربا في أغلب الأحيان الا أن يترك صلب الموضوع الى جوانب فرعية ليست من جوهر ما يدور حوله الخبر أو التعليق ، فان جوهر الموضوع في صراع القرآن مع خصومه هو العقيدة التى ينادى بها القرآن وهى (لا اله الا الله محمد رسول الله) هل هى صحيحة أم باطلة ، وكذلك عقيدة خصومه وهى الشرك ، هل هى صحيحة أم باطلة ٠

ومن اليسير على القرآن وعلى من يحمله ليبلغه أن يفيض في التعليق ، وأن يبسط القول في وجهة نظره لأنه ملىء باليقين من صدق خبره وهو (لا اله الا الله محمد رسول الله) فيبسط القول في الوهية الله ووحدانيته وخلقه في السموات والأرض وما بينهما وعدم مناقشة أحد له في ذلك ، ثم عن رسالة محمد بل يضطر الى الايجاز والتصد لسعة الموضوع وتشعبه ٠

أما اعلام الخصم الذى أجهد نفسه ليختلق خبرا كاذبا

كجنون محمد أو شاعريته فلن يستطيع التعليق على الخبر تعليقا مقنعا أو مقبولا ، لأن اختلاق الخبر أيسر من اقامة الدليل المقنع ، على صدقه حيث أن بعض الناس لديهم مقدرة على اختلاق الكذب ، وبعضـــهم يحـــاول أن يموه فى هـــذا الكذب ليجعله مقبولا أو مقنعا ولـــكن هـــذا التمويه أصعب بكثير من الكذب نفسه لان الاقناع بالـــكذب ايسر من اقامة الدليل عليه ، فقد يقال لك مثلا وانت سائر فى الطريق ان امامك شخصا مقتولا فتصدق لأنه ليس هناك ما يدعوك الى عدم التصديق، والأصل فى الاخبار الصدق، ولكنك حين تصل الى المكان الموصوف فتجد شخصا نائما وليس مقتولا، فليس من اليسير اقناعك بأن هذا النائم مقتولا كما اقنعت بالخبر اولا، لانك فى حالة الخبر ليس أمامك مجال واسع لاستخدام عقلك، أما فى اقامة الدليل فالمجال كله عقلى ، بل قد يبلغ الكذب من وضوحه أن يكون محســـوسا كهـــذا المثال فليس فى حاجة ملحة الى الدخول فى عمليات عقلية من مقـــدمات ونتـــائج وموازنات وملابسات ونحو ذلك لكشف الكذب أو الوصـــول الى الحق ٠

وحين نسلم بأن كل ما أثاره خصوم الاسلام من اعلام نحو القرآن ومصدره ومبلغه والمؤمنين به هو كذب وافتراء بدليل أنهم هم شهدوا على أنفسهم بعـــد ذلك أنهم كانـــوا كاذبين وذلك حين اعتنقوا الاسلام طواعية واختيارا ، حين نسلم بذلك يتعين علينا أن نسلم بأنهم فشـــلوا فى التعليق على أخبارهم ، لأنهم لن يجدوا لها أساسا من الحق ، وبالتالى لن يجدوا لها سندا من الحجة والعقل ، وهذا ما حدث فعلا فى مواقف كل مجتمعات الكفر ازاء رسل الله فى كل العصور فكلهم اتفقوا على أن كل رسول من رسل الله اما ســـاحر أو مجنون أو كلاهما معا ، كما فى القرآن :

(كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون) (٣٨) ٠

---

(٣٨) ٥٢ سورة الذاريات ٠

وغير ذلك كثير مما وجهوه الى رسل الله ، وكان أكثرهم نصيبا من هذا السوء محمدا صلى الله عليـه وسـلم وحينئذ نتبين أمرين مترابطين :

١ ــ أحدهما ان كل ما وصفوا به رسل الله هو نوع من الأخبار ، فحين يقولون فلان ساحر أو غير ذلك فهذا خبر ، وهو خبر اعلامى لانهم بطبيعة الحال كانوا يحرصـون كل الحرص على نشر هذا الخبر بين الناس حتى لا يصدقوا هذا الرسول أو يؤمنوا به ٠

٢ ــ الأمر الثانى أنه حيث كانت هذه الأخبـار كاذبة فانهم لم ينجحوا فى الاقناع بها او التعليق الناجح عليها ، ولذلك لم يلجاوا فى أغلب الآحيان الى الحوار العقلى المقنع ، وانما يهربون الى مسائل فرعية بعيدة عن صلب الموضوع ، كالاحتجاج فى عبـادة الأصنام بأنهم متمسـكون بعـادات آبائهم فى هذا ، مع ان صلب الموضـوع هـو هل عبادتهم الأصـنام حق أم باطل ؟ فيهربون من هـذا الى الاحتجـاج بآبائهم ، وهكذا من سبل التهرب ، حتى اذا أعياهم التهرب العقلى لجأوا الى العنف المادى والبدنى ، كما هدد قوم شعيب شعيبا بالرجم ، وكما فعل قوم ابراهيم فى القائه فى النار ، وكما قتل اليهود أنبياء كثيرين ، وكما حاولت قريش أن تفعل مع الرسول نحو قوله تعالى :

(واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) (٣٩) ٠

وكل هذا من جانب خصـوم الأنبياء اعلان ضمنى عن فشلهم فى الحوار العقلى أى فشلهم فى التعليق على أخبارهم وعلى أخبار خصومهم أيضا لأن التعليق على الخبر نـوع من مناقشـته والحـوار المفترض حـوله ، ومعنى المفترض أن التعليق وان كان من جهة واحدة أو شخص واحد ، الا أنه يراعى فيه عادة كانه يرد على أفكار خصمه ويحـاوره فى موضوع خبره ٠

---

(٣٩) ٣٠ سورة الأنفال ٠

ويصور لنا القرآن صورا كثيرة متنوعة الأساليب عن عجزهم عن التعليق والحوار ، ومن ذلك هذه الصـــورة عن صدى سماعهم القرآن :

(واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجـوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ...) (٤٠) .

فكان رد الفعل عند سماعهم اعلام القرآن ووضـــوح الحق فيه ليس حوارا ولا تعليقا وانما هياج بدنى يظهر أثره منكرا فى وجوههم ثم محاولة البطش بوســيلة الاعلام التى نقلت اليهم القرآن ، بينما كان المفروض منطقيا أن يعلقوا بما يشاءون من تعليق معقول على هذا الاعلام بالرد عليــه أو تكذيبه تكذيبا مستندا الى حجة ومنطق ونحـو هـذا ، ولكنهم لم يجدوا لديهم مقدرة عــلى التعليق ، لاحســاسهم الداخلى بصدق هــذا الاعلام ، وكذب اعلامهم الذى يدعى أن العقيدة الصحيحة هى عبادة الأصنام ، فليس لديهم تعليق موضوعى ذو قيمة لا على اعلامهم ولا على اعلام خصمهم وهو القرآن ، حيث ان كل ردودهم وتعليقاتهم كانت اما تكذيبا بدون حجة مثل انكارهم ذات الله أو صــفاته كقــولهم فيما ينقله القرآن عنهم :

(واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تامرنا) ؟ (٤١) .

أو كانت خروجا عن الموضــوع باللجوء الى الشــتائم والسباب أو التهديد والوعيد مما يحفل القرآن بأمثلته .

أما القــرآن فانه ليقينه من الحق نجــد فيه التعليق المنطقى الباهر على كل خبر أو حكم يستحق التعليق ، ومن أمثلة ذلك :

---

(٤٠) ٧٢ سورة الحج .

(٤١) ٦٠ سورة الفرقان .

(ـ الرد على ادعاء ان لله ولدا ، وهي دعـوى اشترك فيها اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصـارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، والمشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله ، وهي اسوأ ما يوجه الى الله سبحانه من سباب ، لأنهـا تتناقض مع طبيعة الألوهية اساسا ، فمن البداهة ان احتياج المخلوقات الحية الى الولد غريزة فيها للمحافظة عـلى بقـاء جنسها وحمايته من الانقراض ، حيث يتعرض الكبار منها دوريا للموت فيخلفها الصغار في استمرار الحيـاة ، ولذلك فان المخلـوقات التي لا تتعرض للموت لا تحتـاج الى الولد كالملائكة وكالجماد ، واذا كانت هـذه المخلوقات بطبيعتهـا لا تحتاج الى الولد ، فمن باب أولى يكون الله سـبحانه ، لأن احتياجه الى الولد يتضمن أنه فى حاجة الى من يخلفه أو من يعينه وكل هذا ونحوه يتناقض مع طبيعة الألوهية ، ولكنهم مع ذلك يدعون أن لله ولدا ، ومن زاوية هذا الحديث نقول :

(أ) القرآن يورد هذا الخبر كما هو من باب الصـدق الذى يمثله القرآن ويدعو اليـه ، فيسوقه مجردا من أية اضافة أو أية عوامل كالتأكيد أو التعجب أو الاستفهام أو غير ذلك بتعبير :

(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا)

حيث ان الصدق يقتضى ايراد الخبر كما هو دون تدخل من المخبر ، والتدخل فى هـذا الخبر متـل أن يقال وقالوا لعنهم الله كذا ، أو بلغوا من الكفر أن قالوا كذا ونحو ذلك

(ب) ثم يورد القرآن التعليق على الخبر ، وكما أنه من المعروف فى وسائل الاعلام أن التعليق يتيح لصـاحبه من الحرية والسعة فى الرأى والتصور مالا يتيحه الخبر فكذلك تعقيب القرآن على الخبر ، ولكنـه ليس من باب الحـرية بمفهوم وسائل الاعلام ، وانما حرية من جانبين ، جانب حشد الحجة والمنطق العقلى ، وجانب براعة التصوير البـلاغى ، وهذا هو منهج القرآن ، غاية الأمر اننـا فى حاجة الى جمع عناصر كل تعليق من المواضع المتفرقة فى القـرآن حيث ان القرآن نزل متفرقا فى أجزاء وآيات صـغيرة الـكم ليسهل

تأملها واستيعاب معانيها من جهة ، وليسهل انتشارها وتنقلها في أوسع مدى ممكن ، ولو نزل جملة واحدة ، أو في أجزاء ضخمة لما توافرت له هاتان الميزتان ، وترتب على ذلك تكرار المعاني والمبادىء الجوهرية في دعوة القرآن ، ولكنه ليس تكرارا بالمعنى المفهوم ، بل تجده في كل مرة يعاد فيها يكتسى أسلوبا جديدا مؤثرا ، أو اضافة جديدة تضفى على المعنى أهمية جديدة ، أو مراعى فيه التنوع في العرض بما يلائم مختلف الأذواق والطبائع وغير ذلك مما سبقت الاشارة اليه ٠

والذى يعنينا من هذا الآن أننا حين نجمع التعليقات المتفرقة في القرآن حول المعنى الواحد سنجد من ذلك فيضا يملأ العقول يقينا ، ويملأ النفوس انفعالا ، ولم يكن هذا الا بعض ما تترى به الروايات من امتلاء نفوس سامعى القرآن لأول مرة من انفعال بل ومن ذهول حتى ولو كانوا من المشركين ، ومن الواضح أن مصدر التأثير الى هذه الدرجة لن تكون الأخبار في القرآن مهما تبلغ غرابتها عن السامع ، وانما مصدر التأثير هو الأسلوب الذى تصاغ به وجهة نظر القرآن وأدلته وعرضه لمعانيه ، وكل ذلك انما هو من التعليق على الأخبار صراحة أو ضمنا ، فالقرآن يقول مثلا لا اله الا الله ، فهذا خبر وهو مسوق كالمنهج السليم للأخبار في ألفاظ مجردة من التدخل في صياغتها بأى أسلوب مجاز او صناعة لفظية لأن ألفاظ الخبر ينبغى ألا تتجاوز دلالتها الأصلية في اللغة ، حيث ان اضافة أى أسلوب بلاغى أو مجازى اليها هو نوع من التعليق وهو زيادة عن الخبر ، ثم يورد القرآن بعد هذا الخبر أدلة عديدة على مضمونه من وحدانية الله في خلقه السموات والأرض والموت والحياة وغير ذلك كثير ، وهذا نوع من التعليق الصريح والمباشر على الخبر ، وقد يضرب القرآن أمثلة عن الطغاة الذين أهلكهم الله ، أو الأقوام الذين دمرهم الله نتيجة كفرهم بالله وتحديهم رسله وهكذا ، فهذا أيضا نوع من التعليق على ذلك الخبر وهو (لا اله الا الله) ولكنه تعليق ضمنى غير مباشر ، حيث يتضمن اشعارا وتنبيها الى صفات الاله الواحد وتحذيرا من

معاندته حتى لا يتعرض المنكر لهذا الخبر لما تعرض له السابقون ممن أهلكهم الله ·

فكل ما يدور حول وحدانية الله فى القرآن من أدلة اثبات ، أو وعيد للمنكر ، أو وعد للمؤمن ، أو قصص عن كفار سابقين ، أو نحو ذلك انما هو من محيط التعليق على خبر واحد هو (لا اله الا الله) غير انه متفرق فى انحاء القرآن ·

وهكذا كل ما أورده القرآن من أخبار ·

ومن أمثلة منهج القرآن فى الخبر والتعليق عليه ما يأتى :

١ ـ المثال الأول (خبر عن النصارى) :

(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) (٤٢)

فهذا خبر ولذلك سيق بألفاظ مجردة من أية صياغة بيانية أو مجازية ، فألفاظه لا تتجاوز دلالتها فى أصل اللغة وفى لغة التخاطب ·

أما التعقيب على هذا الخبر فيأتى عقب ذلك فى فيض عميق من الأدلة العقلية المقنعة من جهة ، وفى ثوب باهر من روعة الصياغة البيانية من جهة أخرى ، حيث كان التعقيب

(لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) (٤٣) ·

وفى شىء من تأمل نتبين فيضا من الجهتين المشار اليهما آنفا وهما :

(آ) من الناحية العقلية نلحظ أن القرآن يتجاوز الحديث عن البشر فى هذا التعقيب ، بمعنى أنه يتجاوز

---

(٤٢) ٨٨ سورة مريم ·

(٤٣) ٨٩ وما بعدها سورة مريم ·

الحديث عن صدى هذا المنكر من القول فى البشر ، وانما يلجأ الى صداه فى المخلوقات الكبرى من الجماد ، فى السموات على عظمها وجلالها ، وفى الارض على سعتها وعمقها ، وفى الجبال على ضخامتها وصلابتها ، فكل هـذه المخلوقات وهى التى تتمثل فيها كل معالم الكون المحسوس حين سمعت ادعاء الكافرين أن لله ولدا بلغ بها الفزع والغضب والانفعال وكل عوامل الاثارة أن أوشـكت السموات أن تنهار وتسـقط ، واوشكت الأرض على التصدع والتشقق ، وأوشكت الجبال أن تندك وتنهار ، وليس هذا التصوير لحالة هذه المخلوقات فى حاجة الى تأويل أو مجاز بالقياس الى الله ، فمن البدهى لدى كل مؤمن بالله أن وضعه سبحانه بالقياس الى مخلوقاته يختلف اختلافا كاملا عن وضعنا نحن بالقياس اليها ، فكل شىء لدينا نحن نوعان أو أنواع ، نوع مثلا مرئى كالمحسوسات البصرية ، ونوع غير مرئى كالملائكة والجن ، ولكنها عنـد الله جميعا نـوع واحـد مرئى ، وكذلك كل شىء قريب فى نطاق سمعنا مسموع ، ومنه ما ليس مسموعا لبعده عنـا ولكنه جميعا عند الله مسموع ، وأمامنا نوعان ضعيف وهو الذى أقل منا قوة وقوى وهو الأقوى منا ولكنه جميعا عنـد الله نوع واحد هو الضعيف لأنه أقوى من كل شىء وهكذا ، فالجمادات كالأرض والسماء والجبال هى جمادات بالقياس الينا ليست لها حواس ولا ادراك ، ولكنها يقينا بالقيـاس الى الله ليست جمادات ، وانما هى مدركة ولها حواس وان كانت تختلف عن مداركنا وليس لدينا علم أو تصور عنها ، فلا يعقل أن يخلق الله شيئا منعدم الصلة بينه وبينه ، وقد ضرب الله فى القرآن أمثلة غير قليلة لتأكيـد هـذا المعنى عمليا كجبل موسى الذى تجلى له الله فاذا هو ينهار دون أن يأمره الله بالانهيار ، بل كان الانهيار نابعا من مجرد احساس الجبل وشعوره بجلال الله حين تجلى وانكشف له ، ففى القرآن

(ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ولكن أنظر الى الجبـل

فان استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ٠٠) (٤٤) ٠

فالله لم يأمر الجبل بشيء وانما انهار الجبل واندك من تلقاء نفسه عند رؤيته جلال ذات الله ، والفاعل فى لفظ جعله دكا ليس لفظ ربه بمعنى أنه ليس الله هو الذى جعله مندكا بأمر منه وانما الفاعل هو الضمير العائد على التجلى أى أن التجلى والانكشاف من الله له هو الذى جعله ينهار ، كما يحدث للانسان حين يفاجأ برؤية شيء غريب أو مخيف او رهيب فقد يبلغ به الانفعال مبلغا متفاوتا لدى الناس ولكن بعضهم قد يصل به ذلك الى الاغماء أو الى الموت ، وموسى فى هذه القصة أغمى عليه وصعق من مجرد رؤية الجبل وهو ينهار ، فكيف لو رأى المصدر الذى جعل الجبل ينهار وهو رؤية الله ؟ وهذا ما حدث للجبل فانه بالقياس الى الله له استجابة وادراك واحساس ، فحين انكشف له جلال الله بلغ به الانفعال من الرهبة والخشوع حد الانهيار ، واذن فالجبل بالقياس الى الله ليس جمادا وانما هو كائن حى كامل الحياة ، مدرك كامل الادراك ، وان اختلفت حياته واختلف ادراكه عن حياتنا وادراكنا ، ومن هذا القبيل حديثه تعالى عن السماء والأرض فى قصة خلقهما فبعد أن خلقهما يتحدث سبحانه فى قوله :

(ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) (٤٥)

فالحديث المتبادل بين الله والسموات والأرض مجاز بالقياس الينا ولكنه حقيقة بالقياس الى الواقع لدى الله ، فلابد أن تكون بين الله وجميع خلقه وسيلة تفاهم وان كنا نحن نجهلها ، والقرآن يضرب لذلك أمثلة تقربه من الواقع

---

(٤٤) ١٤٣ سورة الأعراف ٠

(٤٥) ١١ سورة فصلت ٠

لدينا ، فسليمان عليه السلام مثلا كان يتخاطب مع الجن والطير بل ويتسلط عليهم ويستجيبون له ، وكثير من الناس يعرفون ذلك ولا ينكرونه ، فكيف ينكرون تخاطب الله تخاطبا حقيقيا مع أى نوع من مخلوقاته دون حاجة الى تأويل أو مجاز ؟ ومن هذا القبيل ٠

(وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) (٤٦) ٠

ونعود من هذا الحديث الى منبع الموضوع ، وهو ان القرآن فى تعقيبه على خبر ادعاء بعض الناس أن لله ولدا كأنه يعقد موازنة بين انفعال الكون كله بهذا الادعاء البالغ النكر والشناعة وانفعال بنى آدم به ، موضحا أن معالم الكون المحسوسة لنا وهى السموات والأرض والجبال كلها اضطرب اضطرابا بلغ حدا يوشك على الانفجار والانهيار ، بينما كان الانسان أولى بادراك نكر هذا القول ، واولى بالفزع والنفور منه ، وأولى أن يكون انفعاله بهذا النكر أشد من انفعال ما يرى من مخلوقات يحسبها لا تدرك وتحس لأنها جامدة ، بينما الانسان الذى منحه الله العقل ، ومنحه الاحساس والشعور لا يدرك بعقله بشاعة هذا المنكر ، ولا يحس بوجدانه نكر هذا الادعاء :

(تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعو للرحمن ولدا) ٠

وذلك أن هذه ليست اساءة الى الله وحسب ، فقد أساء بعض الناس الى الله بالكثير من السباب كاتهامه سبحانه بالبخل وبالفقر ، ولكن ذلك لا يراد به مناقضة صفة الألوهية فيه ، أما ادعاء الولد له فهو يتناقض مع طبيعة الالوهية ويتضمن لونا من الشرك لأن الولد اما أن يكون خليفة الله فى الالوهية أو معاونا وشريكا له فيها بالقياس على حاجة الناس للولد بخلاف الاساءة الى الله باتهامه بالبخل مثلا، ومع أن كل هذا فى النتيجة أنواع من الكفر الا أن صورة الكفر تتفاوت كما

(٤٦) ٤٤ سورة الاسراء ٠

تتفاوت صورة جريمة القتل مثلا وهى فى كل الحالات ازهاق الروح حيث ان بعضها قتل عادى وبعضها يبلغ من بشاعة منظره درجة تقشعر منها الأبدان، وكذلك بعض الكفر تقشعر منه السموات والأرض والجبال كادعاء الولد لله ، وقد كان ينبغى لمن يدعون عـدا من الناس أن يدركوا بعقولهـم ان كانوا مؤمنين أن الله خالق كل شيء ، فكل مخلوقاته تتساوى فى العبودية له لأنها من صنعه وان تفاوتت فيما بينهـا ، فرئيس العمل مثلا تحت رئاسته موظفون وعمال يتفاوتون فى درجاتهم ولكنهم جميعـا مرءوسـون له ، وكذلك الملك وهكذا ، ولذلك يشير القرآن فى تعليقه على الخبر بهـذا المعنى :

(ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا) .

أى أن كل مخلوقاته تتسـاوى فى العبـودية له مهما تفاوتت منازلهم وأوضاعهم فيما بينهم ، وفى سياق التعقيب العقلى على هذا الخبر يشير القران الى قدرة الله وجلال علمه الذى يحصى به كل مخلوقاته ليست جماعة جماعة ، او شعبا شعبا ، أو جنسا جنسا رغم ان هذا او بعضه يعجز البشر ، وانما يحصيهم فردا فردا :

(لقد أحصاهم وعـدهم عـدا ، وكلهم آتيه يـوم القيامة فردا) .

(ب) وأما من ناحية صياغة التعقيب فى ثوبه البيانى الأخاذ الذى يتميز به القـرآن ، والذى كان أهـم وأبـرز جوانب اعجاز القرآن على الاطلاق فنجد من ذلك فى هـذا التعقيب شيئا عجيبا ، ومن ذلك الجانب البيانى فى التعقيب العقلى السابق ، فانه مع العمق العقلى الذى يتضمنه يتضمن أيضـا صياغة بيانية آسرة ، من أبرزها تصـوير أثر هـذا الخبر — وهو نسبة الولد الى الله — فى كل معـالم الـكون وأركانه ، من السموات الى الأرض الى الجبال ، ومن باب أولى ما دونهن ضخامة وشأنا ، فان ذهن السامع يكاد يتغرق

ثم يذهل من منظر السموات وهى توشك أن تسقط وهــو تحتها ، ومن منظر الأرض وهى تميد وتتصدع وهو فوقها، ومن منظر الجبال وهى تكاد تنهار وسامعوا القرآن لأول مرة كانوا تحتها ، وكأن الخطر حينئذ يكاد يحيط بالســامع من كل جانب ، واذن فهذا الخبر الشــنيع قد يصيب بخطــره السامع نفسه ، وليس خطره مقصورا على قائلى هذا المنكر من القول ، وهذا التجسيد الذى يكاد يكون مرئيا للســامع مع أنه فى حقيقته معان مجردة هى انكار لهذا الخبر السىء وهــو ادعاؤهم أن لله ولدا ، فأصــل المعنى أن هــذا الخبر جريمة دينية وعقلية كبرى ، ولكن القرآن باعجازه البيانى يصوغ هذا المعنى المجرد فى هذه الصورة الحسية التى تجمع الكون كله سماواته كلها وارضه بأضخم ما عليها وهو الجبال فى منظر واحد، ولكنه منظر يثير الفزع لدى كل ذى احساس وخيــال سليم ، ولا مهرب من هــذا الفزع ، فحيثما اتجــه السامع الى سماء أو الى أرض او الى جبــال فســيرى امامه مصدر هذا الفزع وهو حالة الكون الذى يوشك أن يتداعى ويسقط وليست هناك مقدرة عــلى التصــوير والتجســيد تستطيع أن تجارى هذه المقدرة ، لأنها فوق مستوى البشر ، وهذا مجرد مثال لتجسيد المعانى ، أما عن دقة الألفاظ فنأخذ أيضا مثالا للفظ واحد فى التعقيب وهــو لفظ (ادا) من قوله تعالى :

(لقد جئتم شيئا ادا)

فمع أن هــذا اللفظ يؤدى أكثر من معنى من المعــانى المتقاربة ، لتلائم أكثر من سياق ، الا أن هذا السياق يحتمل كل هذه المعانى ، فمن معانى الأد عند العرب العجب العجيب، والعظيم المنكر ، والشدة الشديدة ، والثقل العظيم ، وكل هذا يحتاجه السياق ، وكأن القرآن يختار مثل هذا اللفظ فى مثل هذا الموضع ، ليقول ان كل معانيه تتحقق فى هذا الموقف ، أو ليقول ان هذا الخبر لا يكفى فى التعقيب عليه وصف واحد ، وانما يحتاج الى كل ما يمــكن من أوصــاف

ومعان للتعبير عن نكره وشناعته ، ولكن مما يستوقف الذهن من هذه المعانى لقربه من التجسيد المشار اليه للمعانى هو معنى الثقل ، حيث كأنه يتضمن أن هذا الخبر يبلغ منكره من الثقل درجة لم تتحملها السموات الأرض والجبال فكيف تحملتها نفوس بعض الناس وعقولهم ؟

وهكذا منهج القرآن فى الخبر والتعقيب ، يسوق الخبر فى ألفاظ مجردة يسيرة الدلالة بمقدار الخبر مثل (لا اله الا الله) ولكن اعلام القرآن يتيح لنفسه بسطة واسعة فى التعقيب على الخبر ، سواء فى مجال الاقناع العقلى بالحجة أو مجال التأثير الوجدانى ببراعة التصوير البيانى ، كما رأينا فى المثال السابق الذى أوجزنا التحليل فيه حيث ان التحليل ليس هدفا لذاته ، وانما هو لمجرد التمثيل ، والا فان كل جملة ، وأحيانا كل لفظ يتضمن فيضا من دقة التعبير والتصوير ٠

المثال الثانى : (خبر عن اليهود) :

(وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين، ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ، ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ٠٠) (٤٧) ٠

فهذا المثال يتضمن خبرا وتعليقا على الخبر نفسه وذلك كما يلى :

(أ) فأما الخبر فهو :

(وقالت اليهود يد الله مغلولة)

---

(٤٧) ٦٤ وما بعدها سورة المائدة ٠

كناية عن قولهم ان الله سبحانه بخيل ، فان قبض اليد كناية عن البخل وبسطها كناية عن الجود ، وكأنهم يقولون مادام الله غنيا ويملك كل شيء ، ويملك أن يفيض علينا من هذا الغنى الواسع ولم يفعل فهو اذن بخيل .

وقد كان الخبر فى صياغته ألفاظا مجردة من أية مبالغة أو اضافة أو تصوير بيانى من شأنه أن يؤثر فى مشاعر السامع كشأن الأسلوب البيانى الذى يقصد به تحريك مشاعر السامع ، فان هذا من شان التعليق على الخبر ، وليس الخبر نفسه ، اما الخبر فانه مصوغ فيما يشبه فى قربه اسلوب التخاطب ، وأسلوب الكناية فيه وهو (يد الله مغلولة) هى من نوع الأسلوب المتداول فى التخاطب ، كما ان هذا الخبر لا خلاف حوله أى حول صدقه بين طرفى الخصومة ، فالقرآن يقول ان اليهود قالوا هذا ، واليهود لا ينكرون ذلك لأنهم قالوه فعلا علانية وليس سرا ، والقرآن ليس حريصا على وصمهم أو وصم غيرهم بأى سوء ، بل هو يدعو الجميع الى نبذ كل سوء والتزام طريق الله ، ولكن النتيجة ان من خصائص الخبر الصحيح الصادق كهذا الخبر انه يكون موضع اتفاق الطرفين .

(ب) اما الذى يختلف حوله الطرفان بالضرورة فهو التعقيب على الخبر ، لأنه يمثل وجهة نظر أحد الطرفين فحسب ، وهى بطبيعتها مصادمة للطرف الآخر .

واذا كانت صياغة الخبر يسيرة قريبة التناول للمعنى وموجزة فان التعقيب على الخبر غير ذلك ، لأنه يحتاج الى بسطة فى المعنى ودقة فى الصياغة حتى يصل الى حد الاقناع ، لأن المفروض أن الخبر سهم اعلامى موجه الى صاحب التعقيب ، فهو فى تعقيبه محتاج الى صد هذا السهم عنهم حتى يقنع السامع بأنه سهم خاطىء زائف ، وانه بالتالى لا يلحق به سوءا .

ولكن تعقيب القرآن يتجاوز هذه الغاية الى غاية أبعد ، فينتهى الى غايتين ، احداهما ابطال مفعول دعاية الخصم ،

والأخرى جعل هذه الدعاية أو هذا السهم يرتد فيصيب مطلقه ، وذلك كما يلي :

١ ـ أما ابطال دعاية الخصم وهي ادعاء أن الله سبحانه بخيل ، فلا يحتاج الى بسطة في القول لوضوحه لدى كل من له عقل سليم ولو كان يرفض الايمان ، وقد صيغ في هذه العبارات :

(غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء)

فتعبير (غلت أيديهم) وان كان في ظاهره الدعاء عليهم الا أنه يشير الى أن هذه الصفة وهي البخل موجودة فيهم هم وليس في الله ، والواقع التاريخي والواقع المشاهد يؤكدان ذلك ، فشهرة اليهود بالشح والبخل أصبحت مضرب الأمثال في كل العصور ، وما من بيئة عايشوها الا اصطدمت بهذا الواقع منهم ، حتى أصبحت هذه الصفة فيهم مجالا خصبا للقصص والمسرحيات والأعمال الأدبية في كل شعوب العالم ، وتعبير **(لعنوا بما قالوا)** بيان لبشاعة هذه الجراة على الله ، وانها موجبة لحلول اللعنة عليهم ، وتعبير **(بل يداه مبسوطتان)** توضيح للحقيقة ، وهي أن الله موصوف بالجود وليس بالبخل، وجوده في فيضه وسعته يختلف عن جود الناس ، فأي انسان مهما بلغ من الجود هو في العادة يعطي بيد واحدة ، ولكن الله يعطي بيديه جميعا ولذلك كان التعبير (يداه مبسوطتان) وليست يدا واحدة ، وتعبير **(ينفق كيفه يشاء)** احتراز من تجاوز الصفة الحسنة وهي الجود الى صفة سيئة وهي الاسراف والتبذير ، فان الفلاسفة يعرفون الفضيلة بأنها وسط بين رذيلتين ، كفضيلة الجود هي وسط بين رذيلة البخل اذا نقصت ورذيلة التبذير اذا زادت ، والقرآن يؤيد ذلك بقوله تعالى :

(ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) .

فيدا الله مبسوطتان ولكنه ليس كل البسط ، بل ينفق بتقدير وتدبير حتى لا يختل نظام الكون ، ولو كان الناس جميعا أغنياء ما وجدوا عاملا يستأجرونه ولا خادما يستخدمونه ، ولصبوا جهدهم فى البغى والظلم ، كقوله تعالى :

(ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر مايشاء انه بعباده خبير بصير)(٤٨)

فمن هذا القبيل (ينفق كيف يشاء) أى ينفق بتدبير وتقدير وليس انفاقا مطلقا ، لأن اطلاقه هو الاسراف والتبذير •

٢ ـ وأما جعل هذه الدعاية التى يتضمنها الخبر ترتد سهما الى قائلها فقد بسط فيه القرآن شيئا من البسطة فى كشف حقيقتهم وحقيقة الدافع اليهم ليقولوا هذا القول المنكر فى ذات الله ، ثم بين السبب الحقيقى فى شعورهم بالفقر والحاجة ، ويمكن تحديد هذه المعانى فى نقاط موجزة كما يلى :

(أ) يشير تعقيب القرآن الى ما مضمونه أن السبب الحقيقى فى اساءة اليهود الى الله ليس اعتقادهم فى صدق هذه الاساءة وانما هو تنفيس عن شعورهم بالحسد لمحمد صلى الله عليه وسلم وللعرب على أن كتابا سماويا هو القرآن انزل عليهم ولم ينزل على اليهود الذين يوقنون كل اليقين فى زعمهم أنه لا يصح أن تكون النبوة أو الكتب السماوية الا فيهم هم ، كما كانوا يتوقعون ان يكون النبى الجديد وهو محمد منهم ، فلما كان من العرب امتلأت نفوسهم حقدا وحسدا وسجل القرآن هذا عليهم فى أكثر من موضع نحو :

(أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) ؟ (٤٩)

---

(٤٨) ٢٧ سورة الشورى •

(٤٩) ٥٤ سورة النساء •

وبطبيعة الحال فان نفوسهم ستمتلىء نقمة على الله سبحانه ، لأنه هو الذى حول عنهم فى زعمهم ما يرونه حقا لهم الى غيرهم ، وتبدو هذه النقمة منهم على الله واضحة فيما حرفوه من التوراة ، وفى أعمالهم الأدبية ، وفى أمثالهم وأدبهم الشعبى ، وهناك بحوث عديدة فى أنحاء العالم ومنها بحوث مؤلفين من اليهود أنفسهم توضح سوء صلة اليهود بالله ونقمتهم عليه واعتقادهم بأنه عدو لهم ، فالقرآن انما ينقل بعض واقع معروف عنهم ، وليس اتهامهم الله بالبخل هو السبب الوحيد الذى نقله القرآن عنهم ، بل نقل سبابا غير قليلة يوجهونها نحو الله ، بعضها مباشر وبعضها غير مباشر ، ومنه :

(لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء) .

يعنون بهذا ما يطلبه الله من الأغنياء من التصدق على الفقراء ووصفه هذه الصدقة بأنها قرض عند الله مثل :

(ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم)(٥٠)

فقال اليهود مادام الله يقترض منا فنحن أغنياء وهو فقير ، ولم يجرؤ أحد من الكافرين حتى أشدهم شركا أن يوجه سبا مباشرا الى الله سوى اليهود .

فالقرآن يوضح أن السبب الحقيقى فى حقدهم على الله وسبهم اياه هو حسدهم لمحمد على انزال الله القرآن عليه ، ويؤيد القرآن لرسول الله أن نزول القرآن عليه سيزيدهم طغيانا وكفرا ، وبالتالى سيزيدهم حقدا على الله وعلى رسوله والمؤمنين ، وذلك فى تعبير **(وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا)** والطغيان هو مجاوزة الحد فى أى شىء ومنه :

(انا لما طغى الماء حملناكم) (٥١)

---

(٥٠) ١٧ سورة التغابن .

(٥١) ١١ سورة الحاقة .

والكفر أشد الأمور مجاوزة للحد ، ولكن سب ذات الله أشد الأشد .

وإذن فهذا التعبير من التعقيب (وليزيدن ... الخ) يكشف خبايا نفوس مطلقى الخبر الذى ينصب عليه التعقيب، وبدل أن يتجه هذا السهم (وهو اتهام الله بالبخـل) الى الله ارتد بهذا التعبير الى اليهود كاشفا عن صفة من أسوأ صفات البشر فيهم وهى الحسد .

(ب) وفى ختام التعقيب ما يشبه الرد عـلى اليهود فى ادعائهم أن سبب فقر الفقراء منهم هو بخل الله بأن السبب الحقيقى هو ضـلالهم وتفريطهم فى العمـل بشريعتهم التى أنزلها الله اليهـم ، ولو أنهـم أقاموا ما أنزل الله اليهـم من التوراة والانجيل وعملوا به لانهال عليهم الرزق والخير من كل جهة ، وذلك فى تعبير :

(ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) .

والأكل من فوقهم ومن تحت أرجلهـم كنـاية عن توافد الخير والرزق اليهم من كل جهة ويسره فى تناوله بغير جهـد وكدح ، وهذه سنة الله للبشر جميعـا أن التزام شريعة الله وطاعته يضمن الرزق الوفير والحياة الطيبة ، كما فى القرآن

(من عمـل صـالحا من ذكر أو أنثى وهـو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) (٥٢) .

وقد قال نوح لقومه :

(.. استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) (٥٣)

---

(٥٢) ٩٧ سورة النحل .

(٥٣) ١١ سورة نوح .

وقال هود لقومه :

(ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم)(٥٤)

وما أكثر تكرار هذه السنة التى جعلها الله فيما يشبه الوعد المؤكد أن يتكفل برزق من يسير في طريقه ، حتى ان المؤمن يفاجأ بالرزق من حيث لا يحتسب مثل :

(ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب (٥٥)

واذا كان هذا منطوق سنة الله ووعده فان مفهومها أن من يجانب طريق الله ويغاضبه فلابد أن يشعر بالحاجة أو عدم التمتع بما لديه ، وفي كل حال لابد أن يشعر بأنه غير مطمئن النفس ، وأنه محتاج ، وقد يكون غنيا ولكن الله يلقي فى نفسه هذا الشعور بعدم الطمأنينة وعدم القناعة وانعدام الرضا ، وسيطرة الجشع ونحو ذلك ، بل ان القرآن يصرح في غير موضع منه بأن من عقاب الله احيانا نزول الضر والكوارث فى الدنيا ، سواء فى المال وغيره ٠

وكان لابد ان تسرى سنة الله على اليهود ، فان مغاضبتهم الله ، وتحديهم رسله ، ونكرانهم نعمه قد ملأ نفوسهم شعورا بالهوان وعدم الرضا أو الطمأنينة ، ومن ذلك الشعور بالفقر الذى يدفعهم الى الجشع الجامح الى المال وان كانوا أغنياء فى حقيقة أمرهم ، وبالتالى يدفعهم الى البخل الشديد الذى عرفوا به فى كل مكان حلوا فيه من العالم ، والذى يصوره القران تصويرا بديعا لم يطرفه تصوير اخر حيث يصورهم وقد اصبحوا ملوكا يملكون من الغنى ما يملكه الملوك ، ومع ذلك فان البخل يدفعهم الى أن يضنوا ليس بانفاق تمره فحسب ، وانما يضنون حتى بانفاق نقير التمرة ، وهى النقرة التى تكون فى ظهر نواة التمرة ٠

---

(٥٤) ٥٢ سورة هود ٠
(٥٥) ٣ سورة الطلاق ٠

(أم لهم نصيب من الملك فاذن لا يؤتــون النــاس نقيرا) (٥٦) •

واذن فتعقيب القرآن يتضمن ردا عليهم بأن الفقر أو الشعور بالحاجة لديهم ليس سببه بخل الله سبحانه ، وانما سببه أنهم ضلوا عن طريق التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم :

(ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) •

فبــدل أن تتجه دعايتهم عن بخــل الله ارتدت اليهم فى كشف جانب من سوئهم وهو الضلال الدينى •

(جـ) وفيما بين الفقرتين السـابقتين من تعقيب القرآن على هذا الخبر المنكر من اليهود نجد نوعا من عقاب الله لهـم على جرأتهم على الله بهذا السب الذى لم يجرؤ عليه سواهم ، ولكن أيضا ليكون العقاب لهم من نوع السهم الذى وجهوه الى الله أو هو نفسه ، فان ما وجهوه الى الله انما نبع من عداوة وحقد على الله ، فرد الله هذه العداوة فألقاها بينهم ليــكونوا شيعا متصارعة لا تلتئم أبدا :

(وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة)

وأمر آخر كان من عقاب الله لهم ، وهو أن من هوايتهم اشعال الفتن والحروب والصراع فى كل مكان يحلون فيه ، وكل مكان يصل اليه تدبيرهم ، فكتب الله عليهم افشــال كل نار يشعلونها للحرب ، وكل فتنة يدبرونها للكيد :

(كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) •

ثم ان القرآن فى سياق التعقيب يكشف بعض مساوئهم وخباياهم ، ومنها أن طبيعتهم الافساد فى الأرض ، فما من مكان يحلون فيه الا وينشرون فيه الفســاد بشــتى ألوانه ، سواء الفساد فى السلوك ، أو فى الاقتصاد ، أو فى العلاقات الاجتماعية أو فى أى شىء ، فالمهم أنهم لا يتجهون الى اصلاح

---

(٥٦) ٥٣ النساء •

أبدا ، بل كل ما يسيطر على نفوسهم وأمانيهم أن ينشروا كل ما يعرفه النـاس من أنـواع الفسـاد ، وأن يضيفوا اليـه ما يخترعونه من أنواع الفساد وما أكثر ما يخترعونه ، وهم لا ينـكرون ذلك الا فى المجـادلة ، أما ما سجله تاريخهم ، وما سجلته أقلامهم فانه ينطق بأن الافسـاد فى الأرض بكل أنواع الافساد هو نزعة مسيطرة عليهم تمـلأ كل نفوسـهم وآمالهم ، وما دونوه فى دستورهم الصهيونى (بروتوكولات حكماء صهيون) ينطق فى هذا المجال وغيره من مجالات الافساد ونزعة حب التدمير لكل شىء فى العالم ، والقـرآن يسـجل عليهم هذا كثيرا ، ومنه ما تضمنه هذا التعقيب :

(ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين)

وحتى لا يظن سـامع أن الله تعـالى يريد مبـادلة أحد العداء ، فان القرآن يؤكد ان باب الله مفتوح لليهود كما هو مفتوح لغيرهم ، ولكنهم هم الذين يصرون على الكفر والمغاضبة لله ، ففى هذا التعقيب :

(ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهـم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم) ٠

ومضمونه أنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا ٠

ومن هذا المثال يتضح لنا أيضا منهج القرآن ، فى سرد الخبر بأيسر الألفاظ وأوجزها ، وأقرب المعانى لأداء المدلول دون أى تدخل أو اضافة أو مبالغة ، وانما هو مطابقةللحقيقة التى وقعت والتى لا يستطيع الطـرف الآخـر أن يكذب فى سردها ، ولذلك خلت صيغة الخبر من أية اشارة تدل عـلى رأى القرآن فى هذا الخبر ، وقد كان يمكن أن يصاغ الخبر فى صيغة تدل على رأى ناقله وهو القرآن نحو أن يقال وقالت اليهود لعنة الله عليهم قولا منـكرا فى ذات الله وهـو أن يده سبحانه وتعالى عن ذلك مغلولة ، فهذا هو الخبر نفسه ولكنه مقرون فى صياغته برأى ناقل الخبر وهو القرآن ، وليس هذا منهج القرآن ، فان منهج القرآن كمـا سبق هـو ايراد الخبر كما هو دون تدخل أو ابداء رأى من باب كمال الصدق،

ثم يكون الرأى والرد فى التعقيب ولكن التعقيب على الخبر هو الذى تتاح فيه البسطة وابداء الرأى والتيقن فى دحض الخبر بالأدلة من جهة ، ويكشف دوافع الخبر وملابساته من جهة أخرى ٠

المثال الثالث :

(خبر عن المشركين) :

(واذا قيل لهم اتبعـوا ما أنزل الله قالـوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان أباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يســمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) (٥٧) ٠

(أ) والخبر هو :

(واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبـع ما ألفينا عليه آباءنا) ٠

ولفظ اذا هنا لا يراد به المستقبل ، وانما يراد به الماضى بمعنى كلما قيل لهم آمنوا أجابوا بهذه الحجة ، وهى التمسك بسنة الآباء والأجداد ، وهى حجة تقليدية تكاد تكون ثابتـة لدى المشركين فى كل العصور ، وهى حجة تعبر عن العجـز العقلى وانعدام الحجة المنطقية ، فان عبادة الاصنام واضحه التنافى مع كل العقول ، فلا يستطيع عقل سليم ان يجد حجة ولو واهيه تجعل من الأصنام آلهة تعبد ، وحين يعجز المشركون عن ايجاد أية حجة منطقية لعبادتهم الأصنام يلجأون الى هذه الحجه وهى الاقتداء بالآباء والأجداد ، وقد تكرر فى القرآن كثيرا نقل هذه الحجة عنهم مثل :

(قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) (٥٨) ٠

---

(٥٧) ١٧٠ وما بعدها سورة البقرة ٠

(٥٨) ١٠٤ المائدة ٠

ومثل :

(قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) (٥٩) ٠

وهي في الواقع ليست حجة اطلاقا ، بل هي خروج عن الموضوع وهروب منه ، فالموضوع الذي يحاورهم فيهم دعاة الايمان أن أصنامهم باطلة ولا يصح أن تكون آلهــة تعبد ، فكان المفروض أن تكون حججهم كلها ، وحوارهم كله حــول هذه القضية ، هل أصنامهم باطلة أم صحيحة ؟ فاما أن يثبتوا صحتها واما أن يعترفوا ببطلانها وكل شيء بعيد عن هـــذا الجوهر هو خروج عن الموضوع ، وقد اضطروا الى الخروج عن الموضوع حيث لا حجة لديهم يحاورون بها ٠

ومن ناحية المنهج نجـد المنهج الملتزم تجـاه الخبر في القرآن ، هــو صياغته في أيسر الفاظ الحقيقة واقربها من لغة التخاطب التي تخلو من الأسـلوب البيـاني والصـناعة اللفظية ، ليكون أكمل في الصدق ، وأصدق في النقل ، ومن ذلك ايضا خلو الخبر من أية اشارة الى رأي ناقل الخبر فيـه وهو القرآن ، فقد كان يمكن كما تفعل بعض وسائل الاعلام أن ينقل هذا الخبر بنحو هذه الصيغة مثلا : وقد بلغ الجهل والحمق بهؤلاء أنهم اذا دعوا الى الايمان بالله وترك عبـادة الأصنام أن يجعلوا كل حجتهم اتباع الآباء ، فهذه الصـيغة ونحوها تتضمن الخبر نفسه ، ولكنها مصوغة بصيغة توحي برأي السامع في الخبر ، ولكن منهج القرآن في التزام حرفية الصدق ، والحياد الكامل في الخبر تجعله يلتزم صياغة الخبر دائما بأيسر الألفاظ المجردة من أي تدخل ٠

(ب) وأما التعليق على هذا الخبر فقد أتيحت فيه بسطة واسعة لابداء الرأي ، وتفنيد موقف الخصم ، وقد بلغ هـذا التفنيد مبلغا مزريا بعقول الخصم وهم المشركون، وبعقيدتهم أشد الازراء ، وذلك في النقاط الآتية من التعقيب :

١ ـ يسخر القرآن سخرية شديدة من التزامهم اتبـاع

(٥٩) ٧٤ سورة الشعراء ٠

آبائهم اتباعا مطلقا دون تفكير أو نقد ، فالمفروض فى أى عاقل ألا ينساق وراء أى أحـد وهـو مغمض العينين مغلق العقل ، بل ينساق وراء الحق والصواب ، ومن هـذا القبيل توجيه النبى صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

(لا يكن أحدكم امعة ، يقول أنا مع الناس ، اذا أحسن الناس أحسنت ، واذا أساءوا أسات ، بل وطنوا أنفسكم اذا أحسن الناس أن تحسنوا ، واذا أساءوا أن تتجنبوا اساءتهم).

ولكن المشركين يعترفون بهذه الحماقة بل كأنهم يعتزون بها ، وهى الغاء عقولهم فى اتباع آبائهم ، ويصوغ القرآن هذا المعنى فى سؤال بالغ الاستخفاف بالمشركين ، وهو :

(أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) ؟

بمعنى أيتبعون آباءهم ولو كان آباؤهم لا يعقلـون ؟ ومما هو ملحوظ فى القرآن بصـفة عامة الاهتمام بصـوغ المعـانى المهمة دائما فى أسـئلة ، وذلك لتحـريك عقـول السامعين ، فان أى سؤال يحتاج بداهة الى جواب ، وأى جواب مهما كان السؤال سطحيا يحتاج بداهة أيضا الى تفكير ولـو يسير ، وحينما يستخدم السامع تفكيره بصورة محايدة فلابد أن يصل الى الحق وهو الايمان بالله الواحـد ، ولـكن صيغة السؤال تعتمد على عنصرين :

١ ـ أحدهما نفى العقل عن آبائهم فى عبادتهم الأصنام، رغم أن هذا النفى جاء فى صورة افتراضية لمصاحبته للفظ (لو) ، والواقع أن اللجوء الى صيغة السؤال هو الذى أوجد هذا الافتراض ، ولولا السؤال لكان نفى العقل عن آبائهم صريحا ، ولكن السؤال يهـدف بهـذا الافتراض الى توسيع نطاق الجهل فى اتباع الآباء دون عقل ، بمعنى أينسـاقون وراء آبائهم بدون تفكير فى كل أمر ولو افترضنا أن آباءهم مجردون من العقول ؟

٢ ـ والعنصر الثانى فى صيغة السؤال هى نفى الهداية عن آبائهم افتراضا ، فهو أيضا بمعنى أيتبعون آباءهم ولو

كان آباؤهم ضالين ؟ غير أن لفظى الهداية والضلال قد ضاق مدلولهما بكثرة استعمالهما فى المجال الدينى ، أما العربى فكان لوقع اللفظين فى نفسه مدلول أوسع من المدلول الدينى، بل هما أصلا من مدلولات حياته فى البيئة والمعيشة وليس فى الدين ، فان أخطر ما يتخيله العربى وهـو يعيش فى بيئـة صحراوية شاسعة أن يضل فى الصحراء فلا يهتدى الى الطريق الصحيح ، فليس أمامه حينئذ الا المـوت المحقق بعـد معاناة وعذاب مر من الظمأ والجوع ، ثم نقل معنى اللفظين الى المجال الدينى لتشبيه المؤمن بالذات يسـلك الطـريق الصحيحة فى الصحراء ، وتشبيه الكافر بمن يضل فى الصحراء فيتجه فى النهاية الى الهلاك ٠

فوصـف آبائهم بأنهـم (لا يهتـدون) وان كان ذلك افتراضا فانه يرسم فى ذهن السامع العربى صـورة مخيفة تصور له آباءه وقد ضـلوا طـريقهم فى الصحراء فأصبحوا يسيرون على غير هدى وهم متجهون بالضرورة الى الهلاك فى متاهات الصحراء ، وهى صورة ذات تأثير بالغ فى المشاعر ، لأنها من مشاهد البيئة ٠

ولكن اجتماع الوصفين عدم العقل وعدم الهداية يجعل الصورة أشد سوءا حيث ان ضلال آبائهم سيكون حينئذ ليس لعدم معرفتهم الطريق السليم ، وانما لتجردهم من العقول ، والفرق بين الصورتين غير يسير ، فان العاقل اذا ضل الطريق قد يحاول بعقله حتى يوفق الى الاتجـاه السـليم فينجو من التيه ، أما فاقد العقـل فلا يرجى منـه أن يهتـدى ، حيث لا يوجد أى عقل يحاول به الاهتداء ٠

٢ ــ ومن النقاط الجوهرية فى تعقيب القرآن على هذا الخبر أنه يرسم لخصومه أصحاب هـذا الخبر صورة بالغـة السخرية من وضعهم العقلى ، وهى صـورة أشـبه بالرسـم التعبيرى (الكاريكاتير) الساخر ، وقد صيغت هذه الصـورة من البيئة لتكون أقرب الى عقولهم ومشاعرهم ، وهذه الصورة تتضمن مواسـاة للرسـول وللدعاة ، وهى تصوير هـؤلاء

المشركين في صورة قطيع من الماشية يرعى في واد ، والذى يدعوهم كأنه الراعي ، فالراعي مهما حاول أن يتخاطب أو يتفاهم مع القطيع بأى كلام أو ألفاظ فلن يستطيع ، وأقصى ما ينتظر من القطيع هو سماع الصوت دون فهم أى شيء مما يتضمنه من كلام ومعان ، وكذلك هؤلاء ويخيل الى من يناديهم أو يدعوهم أنهم يفهمون ويعون ما يقول بينما هم في الحقيقة لا يتجاوزون سماع ما تسمعه الماشية من راعيها ٠

ولكن تصوير القرآن يتجاوز بهم هذا ، فيجعلهم أسوأ من الماشية ، فان المواشى لها حواس كالسمع والبصر ، أما هؤلاء فكانوا أسوأ من الماشية ، حيث كأنهم عطلوا كل حواسهم، فعطلوا سمعهم ، لأن السمع اذا لم يصاحبه فهم فكأنه ليس سمعا بدليل أنك حين يوجه اليك مثلا سؤال لم تفهمه تطلب اعادة السؤال فتستوى أنت والذى لم يسمعه أصلا ، وكذلك عطلوا ألسنتهم وأعينهم لأنها أيضا اذا لم يصاحبها عقل وادراك فلا قيمة لها ، بدليل أن المجنون يتكلم كلاما كثيرا ولكنه لا يختلف عن الأبكم في أن كلا منهما لا يستفاد من لسانه شيء ، وكذلك البصر لا قيمة له بدون العقل ، ولذلك كان في القرآن :

(فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى في الصدور) (٦٠) ٠

ولذلك كانت نتيجة الحكم عليهم بفقدان السمع واللسان والبصر هي فقدان العقول :

(صم بكم عمي فهم لا يعقلون)

وكل هذا في مجال التعقيب على الخبر السابق وهو :

(واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) ٠

ومن الواضح أن التعقيب جعل من الخبر أضحوكة

---

(٦٠) ٤٦ سورة الحج ٠

عميقة ، ووضع أصحابه فى موضع الهزء والسخرية منهم ومن عقولهم ٠

وهذا ما يعرف فى وسائل الاعلام وخصوصا المسموعة بصدق الخبر وحرية التعليق ٠

المثال الرابع :

عن المنافقين :

(٠٠٠ قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون) (٦١) ٠

وهذا النص يتضمن خبرا وتعقيبا ٠

(أ) فأما الخبر فهو :

(قالوا نشهد انك لرسول الله)

ولفظ نشهد بمعنى نحلف وبه احتج بعض الفقهاء بأن لفظ الشهادة فى مثل هذا يمين تترتب عليها أحكام اليمين من الكفارة وغيرها ، فالمنافقون يحلفون لرسول الله انه رسول الله ، وذلك فى مواجهته أو مواجهة المؤمنين ، ولذلك كان التعبير :

(اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله)

أما حينما يشعرون بأنهم فى منجى من قوة الرسول والمؤمنين فانهم يظهرون كفرهم ونفاقهم على حقيقته ، وهم بهذا الحلف يتصورون أنهم يخدعون الرسول والمؤمنين ،

---

(٦١) أول سورة المنافقون ٠

متصورين أن الرسول سيصدقهم ، والواقع أن الرسول كان سيصدقهم لولا تحذير القرآن وتنبيهه ، لأن الرسول لا يعلم الغيب ، وانما يحكم بالظاهر الذى لا تحيط به ريبة ، والمنافقون لديهم من القدرة على التمثيل والتخفى بحيث لا يثيرون حولهم ريبة ، بل ان لديهم مقدرة على اقناع الناس بالدور الذى يمثلونه حتى يبدو كأنه حقيقة ، وذلك بحكم مرانهم وتدريبهم الدائم على الظهور بوجهين ، ولذلك اعترف القرآن لهم بهذه المقدرة فى نحو :

(وان يقولوا تسمع لقولهم)

بمعنى أن كلامهم متقن جيد يدعو الى تصديقه ·

ولكن الذى يعنينا هنا أن القرآن يسوق هذا الخبر :

(قالوا نشهد انك لرسول الله)

فيما يسير عليه منهج القرآن حينئذ من سرد الخبر كما هو فى أيسر الألفاظ وأقربها دون تدخل فى الصياغة أو المعانى أو الايحاء برأى ناقل الخبر فيه ، بل يكون موقفه الحياد الكامل حتى ان الطرف الآخر وهو الخصم لا يستطيع أن يجد ثغرة أو مطعنا فى نقل الخبر أو صياغته لأنه يمثل الحقيقة كما هى :

(ب) وأما التعقيب فقد كانت فيه بسطة واسعة لكشف حقيقة الخبر ، وحقيقة قائليه ، فان حقيقة قائليه انهم كاذبون مخادعون ، وأما حقيقة الخبر فهو من باب الحق الذى يراد به الباطل ، وذلك أن تعبير (انك لرسول الله) هو فى ذاته صدق وحق ، ولكن المنافقين الذين قالوه لا يقصدون به الصدق ولا اعلان الحقيقة ، وانما يقصدون أن يخدعوا به الرسول والمسلمين ، ولذلك فان تعقيب القرآن على الخبر للرسول والمسلمين حقيقة أن قائلى هذا الخبر وهم المنافقون انما يريدون به خداعهم ، وليسوا صادقين بالمقياس الخلقى للصدق ، فان الصدق فى المقياس الخلقى هو التطابق بين اللسان والجنان أى بين لسان القائل وعقيدته فى داخل نفسه بصرف النظر عن مطابقة هذا للواقع أو عدم مطابقته

أما الصدق فى المقياس المنطقى فهــو التطابق بين اللســان والــواقع أو الحقيقة ، بصرف النظــر عن عقيــدة القــائل ونفسيته ، والدين انما يحاسب بالقياس الخلقى وحده ، من باب الحديث النبوى (**انما الأعمال بالنيــات**) وفى القرآن

(لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) (٦٢) ٠

أى أن الله انما يحاسب على القصد والعمد وهو ما ينويه المرء ويقصده ، والامام أبو حامد الغزالى يجعل من هذا مبحثا يدور حول أن الأعمال فى نظر الدين لا تقاس بظاهرها وانما بالقصد منها ، فالشر اذا قصد به فاعله خيرا يصــبح خيرا ، والخير اذا قصد به فاعله شرا يصبح شرا ٠

والمنافقون يقصدون بهذا الحلف شرا وهو خداع الرسول والمسلمين ، بينما يضمرون فى أنفسهم الكفر بالله ، والحقد على الرسول والمسلمين ٠

وعــلى المنهج الذى سبقت الاشارة اليــه من أن تعقيب القرآن على الخبر ليس يبطل سهم الخبر فحسب ، بل يجعله يرتد الى صاحبه ، على هذا المنهج يسير أيضا هذا التعقيب ، فان المنافقين كانوا مستترين فى ظلامهم وكهوفهم ، لا يرتاب فيهم الرسول والمسلمون ، بل يظنون بهم خيرا كما يرونه من ظاهرهم ، فلم يكتفوا بذلك ، وانما أرادوا أن يضعوا الرسول والمسلمين موضع المخدوع المغرر به ، فأطلقوا سهامهم نحــو الرسول والمسلمين ، وكان منهــا هــذا الخبر الذى يتضمن حلفهم أمام النبى أنه رســول الله بقصــد أن يخدعوه ، فاذا القرآن فى تعقيبه على قولهم يكشف للرســول حقيقتهم التى كانت مخبأة ، وانكشاف حقيقتهم أسوأ ما يحذرونه ويخشونه حيث تنقلب حياتهم كلها رأسا على عقب ، من أمن الى خوف ، ومن صلات طيبة مع المسلمين الى قطيعة قاسية يعانونها ، ومن أمل فى المستقبل الى اشفاق شديد أو يأس قاتل وهكذا ، فقد

---

(٦٢) ٢٢٥ سورة البقرة ٠

عاد سهمهم وبالا عليهم ، وأصبحوا كتعبير القرآن :

(يخربون بيوتهم بأيديهم) (٦٣)

ولكن تعقيب القرآن لا يكتفى بكشف كذبهم وخداعهم وانما يسوق كثيرا من صفاتهم واعراض نفاقهم التى تجعل كل مسلم ذى عقل يستطيع بها ان يكشف كل منافق ، فهؤلاء الذين جاءوا يخدعون الرسول فتحوا على أنفسهم وعلى كل طائفتهم بابا رهيبا بالقياس اليهم ، وليست هناك رهبة او رعب يعترى منافقا أشد من خوفه أن يكتشف نفاقه ، فالجاسوس مثلا وهو أكمل صورة للنفاق أشد ما يخشاه هو انكشاف حقيقته ونعرض هنا فى ايجاز شديد أبرز النقاط والمعانى التى تضمنها تعقيب القرآن (٦٤) .

١ ـ كشف كذب المنافقين وخداعهم فى تعبير :

(والله يشهد ان المنافقين لكاذبون)

وشهادة الله بمعنى الحكم عليهم بالكذب، وحتى لا يحدث لبس فى ذهن السامع من هذا التعبير ولا يتساءل كيف يكون قولهم لا يثير أى لبس ، ولا يستطيع أحد ان يشكك فى مدلوله وهو انه رسول الله كذبا فقد أورد القرآن قبل هذا تعبيرا :

(والله يعلم انك لرسوله)

٢ ـ يوضح القرآن للرسول والمسلمين أنه لا ينبغى أن ينخدعوا فى لين هؤلاء المنافقين وظاهر توددهم ، فان الحقيقة أنهم يقفون موقف العداء الشديد ، بل الحرب الخفية العاتية للرسول والمسلمين ، وكما أن المقاتل بالسلاح المادى العلنى يلبس درعا تقيه طعنات الأعداء فان المنافقين يلبسون ايضا درعا ولكنها منسوجة من الايمان التى يحلفونها كهذه اليمين التى يتضمنها الخبر **(اتخذوا أيمانهم جنة)** والجنة بضم الجيم هى الدرع .

---

(٦٣) سورة الحشر .

(٦٤) انظر كتاب اسلوب القرآن فى كشف النفاق للمؤلف طبع هيئة الكتاب .

٣ ــ يوضح تعقيب القرآن أنهم لا يحملون أية عقيدة ، لا ايمـانا بالله ، ولا بالأصـنام ولا بأى شيء الا بمصـلحتهم الشخصية العاجلة ، وهذه طبيعة تميز المنافق :

(ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) ٠

ويوضح هذه الطبيعة موضع آخر فى القرآن :

(مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء)(٦٥)

٤ ــ يكشف القرآن صفة من صفاتهم وهى الاعتماد على المظهر ليخدعوا به من يتعاملون معهم ، فكل مظهرهم متكلف، سواء فى شكلهم المادى كالملبس والزينـة ، أو التـكلف فى الكلام وحسن الحديث ، أو غير ذلك من كل ما من شأنه ان يكتسب ثقة الرائى لينخدع به عن الحقيقة والجوهر :

(واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم)

ولكن القرآن يوضح أن هذا المظهر يختلف مع حقيقتهم الجوفاء ، فحقيقتهم **(كأنهم خشب مسندة)** ٠

٥ ــ كما كشف القرآن حقيقة مظهـرهم فانه يكشـف حقيقة جوهرهم ونفسياتهم ، وهى أنه اذا كانوا يظهرون فى مظهر القوة والعزة بأجسامهم الشامخة وكلامهم المتعالى ، فان نفوسهم مملوءة رعبا وخوفا من أن ينكشف أمرهم ، وليس هناك تصوير لابراز هذا المعنى فيهم كتصوير القرآن :

(يحسبون كل صيحة عليهم)

بمعنى أنهم كلما سمعوا صيحة ظنوا أن أمرهم قد انكشف وأن هذه الصيحة خطر قادم اليهم ٠

---

(٦٥) ١٤٣ سورة النساء ٠

٧ ـ الانصاف :

وليس هذا الحديث تكرارا لما سبق ، وانما هو محــاولة لابراز الأثر الاعلامى والنفسى لانصاف الخصم ، وذلك ان كلا من طرفى الخصومة فى الحرب الاعلامية والنفسية يحاول فيما يحاول جهده وبكل الأساليب أن يحط من قدر الطــرف الآخر ومن قوته ومزاياه ومن كل ما يمكن أن يرفع شــأنه ، محاولا فى الوقت نفسه أن يلصق به كل ما يستطيع الصاقه من مساوىء ومن أية عوامل تضعف من شأنه وتنفر منه ٠

وكل اعلام البشر فى الخصومة يقوم على هذا الأساس ، وهكذا يفعل اعلامهم ضد محمد ، حيث يحفــل القرآن كمــا سبق بنقل ما وصموه به من مساوىء هم أعلم الناس بأنهــا مختلقة ، فضلا عما تلمسوه له من سلب أية ميزة له أو لأى شيء مما جاء به من قرآن أو تشريع أو اصلاح ٠

وبمنطق الحرب فانهم يتوقعون أن يسير اعلام خصمهم محمد وهو القرآن على نهج اعلامهم وسائر الاعلام المعروف ، فيسلب منهم كل حسنة ، وينسب اليهم كل سـيئة مهما كان الأسلوب الذى يصــوغ به ذلك مغلفــا ، وســواء أكان ذلك تصريحا أم تعريضا ٠

ولكنهم أيضا يفاجأون بأن القــرآن حينما يتحــدث عن خصــم مهما بلغت عداوته فانه لا يتجــاهل خــلال حديثــه ما يعرض من حسنات لخصمه ، ســواء أكان خصــمه فردا أم جماعة أم شعبا كما رأينا فى حديثه عن زعيم قريش الذى اخترع دعاية وصف القرآن بأنه سحر ، وكيف انهــا كانت أخطر دعاية حورب بها القرآن ،وكيف أن القرآن نوه بذكائه وخطورة تقديره وكما رأينا فى حديثه عن ملكة سبأ التى كانت مشركة بالله ، ومع ذلك يشيد القرآن ضمنا بأسلوبها فى الحكم والسياسة ، وكما فى حديثه عن جماعة الملأ الذين استشارتهم ملكتهم ملكة سبأ ، وكيف أنهم التزموا اخــلاص النصح الذى دفعهم الى مخالفة الملكة مؤثرين ذلك على كسب

رضاها ، وكيف أنهم مع ذلك استطاعوا أن يحافظـوا عـلى واجب الطاعة لملكتهم لأنهم لم يروا منها ما يدفعهم الى التمرد عليها ، فالقرآن يشيد أيضا ضمنا بموقفهم ومسلكهم رغـم أنهم كما يسجل القرآن كانوا مشركين بالله ، كما رأينا فى شعب مكة أو العـرب عامة من اعتراف القـرآن بما يتضمن قوتهم فى الخصومة وبراعتهم فى مزاولتها .

وكما رأينا فى اعتراف القرآن بفضـل شـاهد امرأة عزيز مصر فى حرصه على اظهار الحق ومهارته فى التحقيق والاستنتاج المنصف مؤثرا ذلك عـلى مجاملة قريبتـه وعـلى ما يصيب سمعتها وسمعته هـو ، ورغم أنه كان مشركا بالله فان القرآن يشهد له بهذا الخلق ، وكما رأينا فى الشـهادة الضمنية التى تكررت فى القرآن لمشركى العـرب بأنهم لم يكـونوا اغبيـاء فى شركهم ، فلم يدعوا لآلهتهـم صـفات الألوهية الحقيقية ، ولم ينكروا أن الله هـو الخالق المـدبر للكون ، وأن الأصنام انما يعبدونها لتقربهم الى الله ، وأنه وان كان ذلك لا ينفعهم فى العقيدة بشىء الا أنه يرفع عنهم صفة الغبـاء والحمـاقة التى اتسـم بهـا بعض المشركين الآخرين .

وأهم من ذلك أن الانصاف للخصم فى القرآن ليس فى مواقف أو أمثلة معينة ، وانما هـو منهج ثابت واضــح ، يعرضه القرآن فى مبادىء نظـرية واضـحة ومكـررة فى القرآن ، ثم يطبقها فى أمثلة كثيرة عملية ، فمن هذه المبادىء النظرية فى القرآن :

(ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) (٦٦) .

بل يحرص القرآن على ما هو أبعد من ذلك ازاء الخصم، وهو الاحسان اليه بعد العفو ، ولكن العفو أو الاحسان ليس شىء منهما حقا للخصم ، وانما هو تفضل عليه ، أما الانصاف

(٦٦) ٨ سورة المائدة .

فهو حق ثابت للخصم فى القرآن ، بينما هو شىء غريب غير متوقع فى منهج الخصم واعلامه .

ومن هذا التناقض يأتى الجانب الأكبر من التأثير النفسى لاعلام القرآن ، فلو كان انصاف الخصم متبادلا بين أعلام القرآن واعلام خصومه لما كانت لاعلام القرآن ميزة ، وبالتالى لم يكن له أثر نفسى محدد أو متميز ، أما حينما يتوقع خصوم الاسلام أن يبردلهم القرآن منهجهم فى الكذب او التحامل وانكار الحقائق أو نحو ذلك مما يفعلونه هم فى اعلامهم ويتوقعون مثله فى الرد عليهم ثم يفاجأون بعكس ذلك فهنا لابد أن يكون صدى ذلك عميقا بالغ العمق فى نفوس الخصم وان لم يظهروا هذا الصدى .

ومن أمثلة توقع خصوم الاسلام أن يكون اعلام الاسلام وهو القرآن سائرا على منهجهم ما صدر من أم جميل زوج أبى لهب عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد امتلأت نفسها كراهية وحقدا للنبى ، ولعل من أهم أسباب ذلك حسدها اياه على أن يبلغ من علو الشأن ومن اهتمام الناس بأمره مالا يتاح لأحد من بنيها أو ذويها أن يبلغه ، فامتلأت نفسها حقدا وحسدا له ، ولكن نفسها لم يكن فيها شىء من كرم أو حسن خلق ليجعلها تخفى هذه المشاعر فى أحنائها ، أو تعبر عنها فى صورة عادية مألوفة كما يعبر غيرها من أعداء الرسول مما كانوا يفعلونه من ايذاء باللسان أو سخرية بما يصدر عنهم نحوه من استخفاف وانما تجاوزت ذلك الى أسلوب بالغ السفاهة ، وبالغ الحطة فى ايذائه ، وبحكم الجوار فى المسكن فقد كان مضطرا أن يواجه هذه السفاهة منها كل يوم ، بل كل حين من اليوم ، وكانت أم جميل بطبيعة الحال تتوقع ردا من قبيل ما يألفه الناس من رد ، ولذلك حينما سمعت ما نزل فى شأنها من القرآن :

(وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد) (٦٧) .

---

(٦٧) ٣ سورة المسد .

قالت لقد هجاني محمد ، لأن الهجاء هو أقرب الردود على الخصوم الفا عندهم ، وبلغ منهـا الغيظ أن حملت حجـرا وذهبت الى الكعبة وهى تقـول اين محمـد ؟ والله لئن لقيته لاضربن بهذا الحجر فاه ، مع أن النبى لم يرد عليها ، وانما الله سبحانه هو الذى اراد أن يواسى نبيه ويعينه على احتمال الاذى ، فكأنه قال لا يقلقنك ما يصدر من هذه المراة ، فانها فى غبائها لا تعدو أن تكون أتانا (٦٨) مما يحمل عليه الناس الحطب ، ولكنها تعتقد أن القرآن كلام محمد ومع أيلام هذه الصورة لأم جميل الا أن القـرآن لو تأملنـا لوجدنا انه لم يخصها فى ذمها بشىء زائد عن مشركى قومها ، لأن القرآن يشبه المشركين فيما يتعلق بموقفهـم من العقيـدة بالذات بالأنعام، بل ان البهائم أهدى منهم سبيلا لأنها تؤدى بغريزتها ما خلقت من أجله ، وفى القرآن :

(ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) (٦٩) ٠

فهم أضل سبيلا لأنهم خلقوا ليعبـدوا الله ، بمعنى ان يجعلوا حياتهم تسير وفق مشيئة الله وطاعته سواء فى حياتهم الروحية أو المعيشية أو الاجتماعية ، فكل هـذا عبادة لله ، ولكنهم شذوا على هذا وعلى الفطرة التى فطر الله الناس عليها وهى الاحساس بوجود الله فيما يعرف بالغـريزة الدينيـة ، بينما ظلت البهائم ملتزمة عبـادة الله وتسبيحه بالتزامهـا ما خلقها الله من أجله ٠

واذن فتشبيه زوج أبى لهب بما يحمل عليه الحطب من الدواب ليس تخصيصا لها بذم دون سائر المشركين ، وحتى اذا فهمنا أن النوع الذى شبهت به مما يحمل عليه الحطب هو الحمير ، فان ذلك أيضا هو ما شبه به المشركون النافرون من الدعوة الى الله ، حيث شبههم القرآن :

(كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة)(٧٠) ٠

---

(٦٨) الأتان أنثى الحمار ٠

(٦٩) ٤٤ الفرقان ٠

(٧٠) ٥١ سورة المدثر ٠

فالقرآن لم يهج أم جميل كما زعمت ، لأن الهجاء هـو تخصيص المهجو بذم على المنهج المألوف فى الهجاء ، وهو ذات منهج الاعلام البشرى الذى يهدف الى الحط من شأن المهجـو بأية وسيلة دون التقيد بقيم أو مبادىء ، أما ما ذكره القرآن من ذم أم جميل فهو توضيح لحقيقة تشترك فيها مع سـائر المشركين من أى جنس وفى أى مكان ، غاية الأمر أن هـذا الذم قد اكتسى فى أسلوبه صورة بيانية ساخرة من أم جميل، ولكنها بالغة التأثير النفسى ، وهو ما يهدف اليه القرآن من التركيز فى بلوغ أعماق النفوس فى أى معنى يطرقه ٠

الفهـرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٩٢/٣٨٧٤